Point B
ex rue
u diable

جمال ماتي

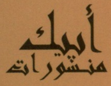
N°
114

حامض-حلو

مكابدات فكر معذب

رواية





جمال ماتي

حامض-حلو

مكابدات فكر معذب

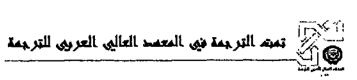
منشورات أبيك

حتى لا يتمكن منا النسيان

ر.د.م.ك : 978-9961-769-25-6

الإيداع القانوني : 2007-47





جمال ماتي

حامض-حلو

مكابدات فكر معذب

رواية

ترجمة: بشير عليّه

أبيك
منشورات

إلى مالية و أمين ماتي

في النقطة ب114، كما في كل مكان،

غالبا ما تفتكّ الحرية و الحب و البحث عن الذات

بمقابل من التضحيات و المحن.

إعلان . . .يريد أن يكون مطمئنا (؟)

عزيزتي القارئة، عزيزي القارئ، لا تفزعا! إن كل أحداث و شخصيات هذه الرواية لم تكن، وليست، و لن تبقى سوى الثمرات المرّة لخيال في أوج المعاناة. سيقول البعض: مريض. اطمئنوا، فإن النقطة ب114، على العكس، حقيقية فعلا!

بعد مقهى الأنترنت.كوم[1]، يستمر البحث، خارج الزمان و المكان، في رحلات طعمها "حامــض، حلــو وزقوم" ... علينا أن لا نظلم الحياة، إنها مرة و حلوة. يجب أن نعرف كيف نستمتع بلذيذها وأن نتحمّل مرارتها. و لكن التحمل لا يعني تقبّل الحياة، يجب أن نشربها حتى الثمالة.

[1] - مقهى الأنترنت.كوم: رواية أخرى للمؤلف (المترجم).

ديباجة: الاستيقاظ

إذا أردت أن تعرف إلى أين تمضي، اعرف من أين تأتي.

تلمود

عقيبة الشيطان سابقا

الحي القديم، المتشبث بالربوة الحجرية، يشبه سلمّا ضخما سيئ النحت، يمد ساقيه إلى غاية البحر وينظر إليه بخيبة. والبيوت المغاربية التالفة الزخارف بفعل الزمن تتساقط أطلالا. المساكن المستند الواحد منها على الآخر، تتداخل وتلتصق بالدرجات المكسورة تفاديا للسقوط. وتشابك الأزقة الضيقة والمظللة هو الذي يربط بين حياة سكان الحي العتيق. و اللون الأبيض الذي كان منذ عهد قريب، يغطي كل الجدران، فقد بكارته. والقلعة تلبس الحداد بكل هدوء متشحة باللون الرمادي في انتظار اللون الأسود القادم. لكن هذا الحصن الذي عرف كيف ينضد فوق أسسه العصور والحضارات، هل يجد نفسه فجأة مصابا بلعنة إلهية؟ لطالما تغنّى الذين يحنون إلى الماضي بآثاره، وكان أحرى بهم أن ينتحبوا على ما أصابه من خراب!

تحتضر المدينة العاجزة ببطء. و تبكي السماء المكفهرة على المساكن القديمة الآيلة للاندثار. تموت القصبة دون أي انفعال.

في أحد تلك المساكن المتداعية، استيقظت ذات صباح حزين، بعد سفر طويل، طويل جدا خارج هذا الزمن. واحتفاءا برجوعي إلى المكان الذي ترعرعت فيه، كانت الآلهة كلها، في ذلك اليوم، تبصق تقززها على المدينة. ربما كانت تلك طريقتها في الترحيب بي! فتحت عينيّ كما نفتح ستارا صدئا لدكان قديم، مغلق منذ الحرب الأخيرة، لتفقّد

الحصيلة. وقد آلمني صرير جفوني وهي تنكمش. كان الوجه المائل عليّ وجه امرأة، سابحا خلف شاشة من الدخان. أعدت إسدال الستائر بألم لأركز من جديد في ظلمتي.

عند محاولتي الثانية للاستيقاظ، كان الضباب قد انقشع، و تعرفت ذاكرتي على هذا الوجه. كانت الشفاه تبدو قريبة كأنها تريد التهامي عندما همس صوتها بطريقة إيمائية:

- نهارك سعيد عزيزي، ها أنت عدت أخيرا.

لم تكن لدي لا القوة ولا الرغبة في الرد عليها.

إذا كانت شفتاها، شعرها ولون عينيها غير مجهولة لي، فإن رنين صوتها، على العكس، ظل غير محدد. لقد كان رتيبا وناشزا. لم يتوقف هذا الصوت المعدني عن الكلام لمدة طويلة، لكنني بقيت غير قادر على فك أي لفظ منه: كانت الكلمات تأخذ شكلا مغايرا بمجرد خروجها من فمها. "يجب عليّ فحص أذنيّ أيضا فقد كان هناك ما يشبه المشكل في استقبال الصوت!" هذا ما قلته في نفسي وأنا أحاول التعلق بهذه الحياة الجديدة.

كانت العودة إلى السطح بطيئة ومؤلمة، فقد مكثت عدة أيام للتمكن من مغادرة سريري الرث، الأثاث الوحيد الذي يتصدر وسط هذه الغرفة التي لا تقل وحدانية هي الأخرى.

- قولي، والأطفال، أين هم؟ ذاك ما تجرأت على طلبه منها ذات مساء حين استعدت، من خبايا ذاكرتي، الوجوه الضاحكة لأولاد أوبنات كانوا ينادونني: "أبي".

- كان ذلك منذ وقت طويل حين... آه... لابأس، أظن أنه عليك أن تذهب لطبيب أو مرابط. ولكنك الآن في حاجة إلى الراحة...

منذ عودتي، لم أكن أشعر أني بخير. فقد اجتثثت نفسي من محيط كابوسي لا تتواجد فيه إلا التهيؤات، حاضرة في أحلامي وبالأخص في

يقظتي، حتى أن الأطباء الذين زرتهم لم يفقهوا شيئا من كربي. وقد أتخموني بكل بساطة بالمهدئات، بالقدر الذي يبقيني على قيد الحياة، ولكن ليس بالقدر الذي يكفي للهروب، الهروب من ماض غامض ينعكس على حاضر ومستقبل غامضين! إن الأقراص ذات الطعم الحامض التي أبتلعها صبحا و مساء، تذكرني بأبخرة القنب الهندي التي تعتّم باستمرار فكري المعذب. فلا تمرّ لحظة دون أن تلمع ليلا، خلال نومي، شظايا حدث غريب عشته، لتكدر راحتي وتشغل حتى أيامي الفارغة. وقد يحدث لي أن أشعر بارتدادات ترسل لي صورا باهتة مليئة بالذعر والمفارقات التاريخية. أرى رملا في كل مكان، ومحششة معزولة، لكنها تغلي بعالم من المرضى المنهارين على حصائر مفروشة أرضا، ومن أطباء مرتدين مآزر ذات لون "خضر كاكي" لا ينفكون يملؤون جو هذا الكوخ بالدخان. كل هؤلاء الأشخاص يظهرون أحيانا وكأنهم يخوضون معركة لا هوادة فيها، وأجد نفسي، في كل مرة، ضمن معاركهم. "هل أنا في قلب ساحة معركة، تتجابه فيها كوابيسي وآمالي، أم في مكان موجود في حياة أخرى؟ هل وُجدت حقا هذه الرؤى القصيرة التي تأتيني من الداخل أم أن فكري هو الذي انفصل نهائيا؟" تلك هي الأسئلة التي كنت أطرحها على نفسي عندما أكون في حالة تجلي. كنت، من الخوف، أتفادى الخروج من بيتي وأبقى سجين غرفتي، رافضا فتح بابي. لقد كان عندي انطباع غريب، لدى سماع أي صوت، بأن أناسا أشرارا عادوا يبحثون عني لإعادة وضعي في حفرة أوهامي المرعبة وسط هذه الخرق المرمية على الأرض وعلى أفرشة القش.

- هاك، خذ مهدئاتك، ستساعدك على استعادة قواك.

كانت المرأة التي أيقظتني تبدو وكأنها تعرفني جيدا، ولكنني لم أكن قادرا على تحديدها.

- هذا المكان، أين؟

- ولكن يا عزيزي، إنك في بيتك.

- لكن أين هو بيتي؟

- القصبة. كان هذا الشارع الصغير من قبل يدعى "شارع الشيطان"، ومنذ ذلك الحين ، غيّر مسؤولو البلدية الجدد تسميته لأن ذلك لم يكن جميلا... بالنسبة للدين. أما الآن، فهي النقطة ب ونحن نسكن في الرقم 114 ... نحن في النقطة ب114.

الحجيرة البيضوية

على البشر أن يعانوا رحيلهم مثل قدومهم إلى الدنيا؛
المهم أن يكونوا مستعدين.
ويليام شكسبير

الجرة المحطّمة

نهضت فيما بعد وفي رأسي هذه الكلمات: *"لقد حطموا الجّرة، تجّار الرمل الذين يقضّون ليالّي ليرشّوا عليها الرمل الدقيق، لقد حطموها ليفرغوها من نسغها! لقد انتهوا بتكسيرها إلى ألف قطعة لما أرادوا خضخضتها كثيرا"*

لقد أقلقني حلم هذه الليلة لشدة ما كان يبدو حقيقيا. وحتى عندما فتحت عينيّ كان الرمل لا يزال تحت جفنيّ، إنه حلم غريب لا محالة: لقد كانت هذه الجرة العتيقة مكسوّة برسوم تحكي مشاهد من الحياة. عندما حدقت بانتباه أكثر في هذه الرسوم، على الجرة، كنت أراها تتحرك في ديكور حزين وفي سيناريو أكثر كدرا. فتحت سماء رمادية اللون باستمرار، كانت وجوه الشخوص المرسومة تبدو مرهقة لا مبالية. كان هؤلاء الناس، وهم مذعورون، يهربون من منزل كبير محصّنة ليختبئوا في الخارج، في كوخ خرب تماما ومغروز في الرمل. لقد كانت الصحراء تمتد حول القصر وإلى ما هو أبعد أيضا. وقد سئم السكان الإذعان، في صمت مغنطيسي، لأوامر وتوجيهات أسياد القصر. كانت هذه الدهماء تثير فيّ الحزن، فالتحقت بها متخطيا وعيي ووجدت نفسي أتسكع معها مثل الشبح. كنت قد تعلمت، منذ اقتحاماتي العديدة لعالم الحلم، التنقل بيسر محيّر لا يمكن أن يحدث إلا في الأحلام أو في الكوابيس، فقد كنت أتحرك خارج عوائق المسافات والزمن. كنت أجتاز بخطوة بسيطة الأنهار والأودية الملوّثة القاتلة. وكنت أرى من جديد نفس

الأشخاص يبحرون في أطواق سحرية هشة تفر نحو شواطئ خرافية الحدود، لم يبلغها أحد أبدا لكنها مأمولة إلى الأبد. كنت أطير قفزا، فوق السهول والجبال، وكنت أشاهد أبراج بابل نفسها التي كانت تحبس أبناء القرويين لتعلّمهم ألا يفهموا أبدا وألا يتفقوا أبدا، في مدارس المنائر حيث كان تجار الخدع يصنعون الأدمغة الجافة.

كان الكذب يكيل المديح لتلك الأرواح الشابة المعقودة اللسان المضاءة بظلامية أكثر عتمة من لياليها الخالية من الأحلام. هنا، كان الأطفال يلونون الأمل بالأسود ليحزنوا مستقبلهم أكثر، ويملؤوا رؤوسهم المسكينة بالفراغ. وفي هذه الكوابيس، كنت، ككل مرة، أعيد زيارة المعابد التي لم يعد فيها مكان لله. لقد غادر تاركا وعوده، تهزأ بها الصراعات الدنيوية المعدة بدقة من طرف القوى "الماكيافلية" صاحبة نظرية: الغاية تبرّر الوسيلة. ففي هذه الأصقاع القروسطية، كان مجانين فريسيون مراؤون قد وضعوا اليد على كل ما كان يمس العقيدة، وكانوا يهزبون من كل مراقبة. وحتى الأسياد، لم يكن بإمكانهم إيقاف أعمالهم العقائدية والمرعبة. وفي المساء، وفي وقت متأخر، عندما أكون متواجدا في محيط القصر، كنت أشاهدهم يحتفلون مع بعضهم، أسيادا ونسّاكا، حول موائد كبيرة تطفح بالأطعمة المطبوخة بخمر له لون وطعم الدم. وكان يقوم على خدمة هؤلاء الأسياد وحاشيتهم جوارهزيلات. كانت السماء، على هذه الجرة مصبوغة باستمرار بلون رمادي؛ ولدى تخطي خنادق القصر، كنت أحلق فوق شوارع وأحياء، وكنت أشاهد الأقنان يمدون أيديهم التي لم يعد بها خطوط أبدا. كان هؤلاء العبيد يعيشون قدرهم بالوكالة، وحتى الأخاديد على أكفهم كانت تمحى دائما من طرف قارئة كف سيئة الطّالع. كانت جدران الحصن المنيعة تزدادُ كل يوم ارتفاعا، عازلة الدهماء عن السلاطين الجشعين المتعطشين للحياة،

بدون توقف، على حساب مآسي ضحاياهم المعذبين دون رحمة في هذا المطهر. لم تكن تدفعهم أي إرادة لولا الأمل في رؤية مصيبة إلهية تحررهم أخيرا. وحتى هذه التضحية كانت تمّحى، أحيانا، لتترك المجال لحديث المشاجرات الاحتجاجية لأعتى المتمّردين وأكثر المجازفين.

"لقد حطموا هذه الجّرة التي يغطس فوها باستمرار في البحر الأزرق ليجدّد تعبئتها، وتنتعل قدمها رمل الصحراء الحار بقصد الاطمان." هذه الجرة التي لم تتوقف، منذ غابر الأزمان، عن إعادة إلصاق قطعها في احتضار لانهاية له. ومن شدة ما عانت من فتوحات الماضي، ها هي اليوم تتحول إلى فتات من طرف أناس خرجوا من ذات غضارها. قدر حزين! نهاية حزينة لأداة كان يفترض فيها إشباع رغبات حامليها! إن عينيّ تدمعان حزنا عند رؤية هذا البلد الذي يمتد، متقاطع الذراعين، على قارة، شائب الرأس، مسودّ البقية، بسبب الكثير من المآسي. إني مقتنع بأن موطن الخداع هذا هو موطني، وأني أراه ثانية في نومي المضطرب بسبب كل هؤلاء الساكنين في لياليّ.

انتهت اللعبة!

خرافات! استيقظت في عالم من الخرافات حيث لا نكون أبدا من نعتقد أننا نكون. القلق يمطر في الخارج، تحت سماء من الحزن، على أناس تعساء. أراهم يمشون، من خلال نافذة غرفتي، مرهقين، قلوبهم متورّمة من الغضب. جميعهم يلوّحون بأشياء سوداء في أيديهم والحشد كله يصرخ: "كثير! هذا كثير!"

– منذ زمن ليس بالقصير، لم يعد هذا الشعب الذي كنا نظن أنه تحوّل إلى دهماء من فئران التجارب العقيمة والمخدّرة، لم يعد يتردد أبدا في الخروج من خموله ليبصق غضبه.

لقد وضع هؤلاء الهائجون، الذين لا يتعبون من الصراخ،آمالهم في الصف الأول من ثورتهم. هذا ما روته رفيقتي.

- لماذا يصرخون هكذا؟

- لقد قطعوا حبالنا جميعا!

قطعوا حبالنا، إن الكلمة تأخذ رائحة مقززة وحلوة في آن واحد. إنها تحمل معنى لا أفهمه أبدا. لقد فصلونا عما ذا ليوصلونا بماذا؟ إن الفصل يفرض حتما وصلا على شكل آخر. إن الفطام لا يطمس التبعية، إنما يعيد توجيهها نحو رابطة غذائية أخرى ليعيد خلق تبعية أخرى. هل توجد وضعية وسيطة بين ال"غلق" وال"فتح" لا أظن ذلك. إن الطبيعة تخاف من الفراغ والإنسان لا يمكن أن يعيش في غياب هذه المعالم: انفصال اتصال؛ خطأ صواب؛ شر خير؛ تقديري

واقعي. لذا أعتقد بأنهم أدركوا أننا لسنا سوى مزدوجين بسطاء، ومن ثمّ استولوا على قاطعاتنا ليضغطوا حسب هواهم على الزرّ "فتح/غلق"

مازال هذا المجتمع من المسيَّرين آليا والمبرمج على وضعية "غلق" يصرخ مجددا ودائما، محتجا: "كثير! هذا كثير!" في شوارع المدينة القديمة.

من المحتمل أن يكون قد مر وقت طويل منذ فارقت هذا المكان، لأن الأشياء تغيرت كثيرا. فمنذ رجوعي لم أعد أعرف أبدا أي شيء، لا الأشخاص ولا الأماكن، وبدرجة أقل التصرفات. وعلى الأقل فإني لا أتوصل أبدا إلى إعادة تأطيرها في ذاكرتي! إن هذه النافذة هي الأفق الوحيد الذي يطلعني على العالم الخارجي ويسمح لي بالانفتاح على الخارج. ولكن هل يمكن تسمية انعكاس المرآة خارجا؟ وأي أفق؟ إن هذه الفتحة على الجدار الشاحب من القلق تمنح بعدا آخر للغرفة الوحيدة ذات الشكل شبه البيضوي. إنني ورفيقتي فيها. كما لو كنا ملفوفين في رحم ضيقة جدالا تكاد تسعنا. أحاول في كوابيسي، قذف نفسي من النافذة لأولد من جديد ولو قبل الأوان. ولكنني، عند كل يقظاتي، أجد نفسي منكمشا ومتعلقا بالمرأة التي أقاسمها الفراش. وفي كل مرة، تطوف عيناي المبتلتان بالخوف، في بقية الغرفة للتحقق مما إذا لم أكن ضائعا، من جديد، في عذابات لياليّ. هذا الجدار الأيسر قرب باب الدخول، وهذا مغسل اليدين الصغير مع المرآة الباهتة معلقة فوقه، وذاك جهاز التلفيزيون القديم موضوع مباشرة على الأرض، أما الطاولة الخشبية الصغيرة فهي بجانبي إلى يميني، وأما الفراش غير المرتب دائما فهو يشغل تقريبا كل الغرفة، وهذه النافذة المفتوحة دائما: كما لو كانت دعوة للهروب!

إن هذا الديكور البسيط يشهد أني لم أغادر بعد هذه الحجيرة، ولدي إحساس بأن هذا ليس هو الأفضل! لقد قمت، خلال المدة الطويلة التي كنت فيها محبوسا داخل كوابيسي المنغرزة في الرمل، بكل شيء

للاتصال بهذا العالم، ولكنني لست متأكدا أبدا من العثور عليه الآن. ففي مجتمع المهازل هذا الذي غدت فيه تعبئة الأفراد نموذجا قدريا مقبولا من الجميع أو يكاد، لحسن الحظ مازال هناك بعض المتمردين. كم أرغب في الانضمام إلى هؤلاء المقاومين المحتجين. لكن الشجاعة تخونني.

هناك ضجيج غامض يتصاعد من الشارع. وغليان الحشد قوي لدرجة أني لا أستطيع إغلاق النافذة. وفي الخارج لم تعد الدهماء ترغب أبدا في المزاح: الحشد يصرخ:

- انتهت اللعبة! انتهت اللعبة؟

النساء من نوافذ شققهن من فئة ف[2] يطبّلن بقدورهن و الرجال في الشارع يطبلون على أولادهم. أما الصغار فهم يتضاربون بصناديق قمامة حياتهم المقبلة. والكل يهتف:

- انتهت اللعبة! انتهت اللعبة؟

إن المجتمع برمته يتساءل عن نائبة الدهر هذه التي تمت إثارتها. لقد قررت السلطات منع الهوائيات المقعرة.

لقد سقط البيان مثل قاطعة المقصلة على عنق المحكوم عليه: "ابتداء من الآن، لا استقبال بالأقمار، لا هوائيات مقعرة. لا اتصال ولا برامج تلفزية!"

مستقبلا، وعلى الشاشات ستفرقع الصورة الموشحة بالنقاط الصغيرة السوداء والبيضاء مثل آفاق المشاهدين الأحادية اللون. والشعب يزمجر:

- انتهت اللعبة! انتهت اللعبة؟

كيف سينفطم هذا الشعب، بدون هوائيات مقعّرة؟

---

[2] - رمز عمراني يعني شقة مخصصة للمعلمين والإطارات: ف: فوضى كبيرة و1: واحد. "واحد فوضوي! واحد للسيد الأستاذ" هذا ما يعلن عند تسليم سلسلة مفاتيح الشقة، أما المفاتيح وباقي البيت، فذلك يلحق سنوات بعد ذلك. ومن ثم جاءت التسمية ف1 وبالأخص عدم الخلط مع "فورمولا وان".

لن يشاهدوا بعد الآن أي إشهار. وهم إنما يتغذون بها. فهم يتخمون، انطلاقا من قنواتهم المهبطية، بالأطباق المجمّدة والتحليات المثلجة وحتى بطعام الكلاب."آه من طعام الكلاب" فهناك من يدعون الجيران و الأحباب و العائلة حول غذاء متلّفز. يلتفون حول الطاولة الفارغة بغرفة الطعام قبالة جهاز التلفزة ويسيل لعابهم جماعيا أمام المآكل المثيرة المعروضة من طرف مقدمات مثيرات أيضا. إنهم يصنعون لأنفسهم وجبات بانتقالهم عبر القنوات التلفزيونية المختصة في فن الطبخ.

و"تلفزة التسوّق"، "آه من تلفزة التسوّق!" كيف ستقوم هؤلاء المدبّرات الطيبات، صاحبات الجزدان المثقوب، بمشترياتهن الخيالية؟ كيف يمكنهنّ أن يحلمن بهذا الجهاز السحري الذي يكسّر البيض وحده، أثناء استمرار سيدات البيوت العزيزات في صيانة أظافرهن. "آه من تلفزة التسوّق!"

لن يضحك الناس بعد الآن من النكات التي تسخر من المتفرجين"آه! آه! آه من النكات الجميلة". إن الضحك علاج كامل...يتغذى منه الفقراء المساكين. فخلال هذه اللحظة الخاطفة المفرحة، يشعرون بأنهم سعداء... قليلا، ولكنهم سعداء، حتى وإن كانوا يضحكون على أنفسهم. "آه! آه! آه من النكت الجميلة!"

لن يستمتعوا بعد الآن بالأفلام. هذه الأفلام المقدمة مساء في وقت متأخر جدا، تلك التي يقولون إنهم لا يشاهدوها أبدا، ولكن لا أحد يفوّتها بأيّ حال من الأحوال. تلك الأفلام التي تحرّر الغرائز بدلا من تحرير العقول، لا تهم الطريقة، حسبهم أنهم يتمتعون! "آه من هذه الأفلام! والمزيد من هذه الأفلام، من فضلك"

والألعاب. "آه من الألعاب التلفزية!"، كل الألعاب التي يشاهدون فيها، بحسرة، الآخرين يفوزون برحلات. "آه من الرحلات إلى مكان آخر"، للهروب بعيدا جدا أو إلى أقرب مكان، ولكن بالأخص إلى مكان آخر! أحيانا يغادر هؤلاء بسيارة جديدة، "يا للسيارة الجميلة!" وهناك أيضا أولئك الذين يربحون المال، كثيرا من المال، "آه من رائحة المال. آه! من هذه الألعاب العجيبة التي يلتمع فيها الأمل وأحيانا تبعث على الاعتقاد بأن هناك إلها أكثر رحمة" هذه الألعاب انتهت أيضا، إنها النهاية. لم يعد يوجد شيء من كل ذلك!

- لن يسيل لعابك أبدا!
- لن تشتري أبدا!
- لن تضحك أبدا!
- لن تتخيل أبدا!
- لن تتمنى أبدا!

ذاك ما كان قد أملاه البيان الديكتاتوري.

ورد عليه الحشد بأكمله:

- انتهت اللعبة! انتهت اللعبة!

وتتواصل المظاهرات طيلة أيام، وفي كل مدن البلاد. والناس الحاملون لأدوات تحكمهم التي غدت عقيمة، يصرخون ملوحين بأداة رغبتهم التي تحولت إلى أداة حرمان.

انتهت اللعبة! انتهت اللعبة؟ هكذا كان يندد المقطوعو الاتصال، وأصابعهم ضاغطة بكل يأس على الزر "فتح" من أداة الهروب[3].

وأمام التهديد المتعاظم، أعلنت السلطات حالة الطوارئ واستخدمت الوسائل الكبرى لاستئصال هذه الثورة الوليدة، فتمّ تحريك وحدات مكافحة الشغب التي انقضّت على المحتجّين ضربا بالهراوات.

- *لعبة يماك!* [4] *دين يماك!* [5] هذا ما كانت تردده كوكبة الفرسان وهي تضرب على الرؤوس المصوصة الأمخاخ للمتظاهرين المفطومين.

أما الشاحنات ذات الصهاريج فهي ترش الحشود المعارضة بسائل بولي، وعندما تفرغ الصهاريج، يقوم سائقو الشاحنات، وهم واقفون على عتبات آلياتهم، بفتح سحّابات سراويلهم ليقضوا حاجتهم بعناية. ويتم اللجوء إلى توقيفات بالجملة، مستعينين بالمطارق لتدعك جيدا هذه الكتل، ويهمس الحشد المتعب، المتعب جدا... في النهاية: *انتهت اللعبة؟ انتهت اللعبة!*

بعد ذلك، عندما ينهار "المحرومون من أداة الهروب" من كثرة يأسهم أكثر مما هو بسبب التعب، سيتم إطفاء كل قناديل أملهم لتخويفهم في الظلام. بالتأكيد، ستتم إعادة ربطهم. سيضغطون على الزر "فتح" وستنام الأمة كلها أو تستيقظ، مرة أخرى، في سبات عميق. وبعيدا، بعيدا أكثر، في الجهة الأخرى من الأفق، تضيء الأنوار، وتستيقظ البلدان الأخرى. "لقد انتهت اللعبة"

---

[3]- أداة الهروب: شيء سحري أسود اللون غالبا، يسمح بالسفر، بالأكل، باللبـــاس، بالحـــب وخاصة باللعب دون مغادرة كرسيك (تدعى أيضا أداة التحكم). المحرومون من أداة الهـــروب: أشخاص ليس لهم أي إذن أو حق لاختيار البرامج. لا تخلطوا بينهم وبين الهاربين: هم.

[4] - لعبة يماك: العب أمك. لا تخلطوا بينها وبين أطعم أمك أو عوّم بحرك.

[5] - دين يماك: ملعونة..... أي عقيدة أمك.

هدهدة الطفل

في نهاية هذا النهار، استشاطت السماء غضبا ودفعت بالجو للتحول إلى زوبعة. عصفات متواترة من الأمطار تقصف المدينة وساكنها. تعب أفراد الشعب من كثرة الصراخ بدون جدوى، واقتناعا منهم بأنهم فاشلون إلى الأبد[6]، وأنهم سيظلون كذلك دائما، انتهوا إلى التفرّق. وانتقل كل واحد ليدفن نفسه في جحره، في حين كانت الجرذان، في الوقت نفسه، تخرج من جحورها لتحتل الشارع.

جلست على حافة السرير؛ يقابلني جهاز التلفزة القديم الموضوع مباشرة على الأرض وهو مشغل؛ إنه يبصق صورة محجبة من نقاط صغيرة سوداء وبيضاء. لقد مضت أيام وربما أشهر، وجهاز الاستقبال أعمى؛ لا يرسل أبدا حتى هذه البرامج التلفزية الشهيرة، المموّهة بنفاق متسامح؛ لاشيء غير نقاط صغيرة تبدو وكأنها تقفز على هذه الشاشة الشاحبة. تمددتُ وأنا مكتئب على السرير لأعود إلى النوم. وأمام سرعة أثر الأقراص ذات الطعم المزّ، سرعان ما وجدت نفسي في مدار ارتخاءات الجنات الاصطناعية. كنت أنتظر هذه اللحظة بهدف النوم، النسيان، وربما الحلم أيضا أحلاما زرقاء. هذا ما كنت أتوق إليه. في هذا السكون الذي لا يعكره شيء غير بصاق القناة المهبطية، يجتاح فضاء غرفتي، ببطء، نغم حالم ذو إيقاع مغنطيسي، يأتي

---

[6] - أشخاص فقراء ومرضى عندهم بصورة خاصة الشكومون. وهو مرض الفاشلين.

ليهدهدني. هل هو صوت مورفي[7] الذي أسمعه من بعيد أم هي برامج تلفزيوني الخاص استأنفت بمعجزة؟ إني جد متعب حتى أني لا أستطيع فتح عينيّ، إني أفضّل رؤية هذه الصور وسماع هذه الموسيقى من الداخل. سيكون عندي، على الأقل، انطباع بأني أعيش كابوسا مع اطمئناني إلى أنه يمكنني النهوض فيما بعد. – إن الواقع غالبا ما يكون أكثر احتمالا عندما يمر إلى الجهة الأخرى من المرآة.

هاك، هناك جديد في البلد. لقد هبطت على السلطات العليا ومضة عبقرية. لقد قاموا بتغيير نشيدنا الوطني. حقا، لقد كان القصيد القديم المغنى عدوانيا جدا. كان يتغنى بالحرب، بالموت، بالدم والنصر، بقتل الأعداء. وعلى العكس، فهذا النشيد الجديد، على شرف وطننا، أكثر حلاوة و أكثر هدوءا وأكثر سلما، بل إنه أمومي. إنه أمر عبقري! شكرا لهم فهذه هي المرة الأولى التي تفكر فيها السلطات العليا لهذه البلاد في تهدئة العقول بنشيد منغّم. هذا أمر جيد! بعد ئذ، ومنذ هذا الصباح،أخذت كل الإذاعات، التلفازات وصفحات الواب على الأنترنت تنشد وتردد لازمات النشيد الجديد المهدى من أجل المودة و الحب.و حتى الصحف ساهمت أيضا، فقد نقلت كلمات نشيد الأمة مكتوبة بكل لغات الوطن، بما في ذلك لغة الخشب واللغة المتفرّعة، وقد تقرر أيضا أن تكون كل الخطب والبلاغات والتصريحات مسبوقة وجوبا ومختومة بهذه المستحدثة الموسيقية. أما الومضات الإشهارية، فهي تقدم الأغنية على أنها الإنتاج الرائد لكل السنوات القادمة. وستكون في كل الوسائل الموجودة: إذاعة، تلفزة، إنترنت، شريط مسموع، قرص مضغوط أو شريط فيديو. وحتى مكبرات الصوت المركبة في كل مكان وفي كل زوايا الشوارع، في كل المدن؛ ستقوم، بدون تقاعس، بإشباعنا نوتات موسيقية مجّودة وبكلمات منتقاة بعناية، تشكل

---

[7] - مورفي: إله الأحلام في الأساطير اليونانية (المترجم)

نشيد الأمة الجديد التّنف. لأول مرّة قرّرت السلطات العليا أن نقوم جميعا في جوق واحد بإنشاد هذه التنغيمة الجديدة، تحت قيادة القائد الذي يقود البلاد. وهو رائع على شاشاتنا المهبطية، ونحن مندهشون أمام أجهزة استقبالنا، كلنا في وضعية استعداد، مرفوعو الهامة، شامخو الذقن، والدمعة في زاوية العين. نبدأ النشيد، في انسجام كامل وتناسق، مرفوقين بأكبر جوق فيلارموني في الدوار[8].

أما أنا، فأنـــام على سريري في سلام، خائر القوى جراء جرعة قاتلة من الأقراص ذات الطعم المزّ، تهدهدني موسيقى كاشفة للنفس بفتور، فتخرج كلمات النشيد الجديد من فمي:

نم يا ولدي، نم!
نم يا ولدي، نم!
ستنام الأمة، قريبا!

إن النغم، في الواقع، وجزءا كبيرا من كلمات هذه الأغنية الجديدة للوطن، تم أخذهما من أغنية قديمة كانت أمهاتنا تهدهدننا بها، بلهجتنا المحلية لترقدنا في أحضانها الحانية.

إلى التلاميذ الذين لا مدارس لهم، إلى سبوراتهم السوداء، مثل مستقبلهم، إلى طبشوراتهم التي لم تعد تكتب "غدا"، إلى ممحاواتهم التي تمحو ذاكرتهم، إلى أقلامهم التي أضاعت ألوانها، إلى هؤلاء الصغار الأبرياء الذين ننوّمهم.

نم يا ولدي، نم!
نم يا ولدي، نم!
إن عطلتك قريبة!

---

[8] – الدوار : الضيعة

إلى الشبان و الكهول الذين لا مستقبل لهم ولا درهم، لا عمل ولا ضحك، هؤلاء الذين يفقدون الأمل طوال النهار والليل، متكئين على جدران العار، يدخنون النسيان.

نم أيها الطفل، نم!

نم أيها الطفل، نم!

على الجدران القذرة ستلقى السأم!

وبسبب هذا المطر الذي يعبث بالهطول قربنا، وليس في قدورنا وأحواضنا، سنتعرض إلى تحديدات "مانعة للماء" قصد توزيعه. هنيئا للمطر! وا أسفاه عليّ أنا!

نم أيها الطفل، نم!

نم أيها الطفل، نم!

الماء في حنفيتك سينعدم!

لهذه المجوهرات التي لن أهديها لك، لهذه السيارة التي لن أقودها، لهذه العطل التي لن نأخذها، لهذا القميص الذي لن أقتنيه لنفسي، لهذه القطعة من اللحم التي لن نستمتع بها، لهذه السيجارة التي لن أدخنها، لهذا المال الذي لا أملكه، أقول لماذا؟ لماذا تنزل المحن دائما عليّ أنا... وأيضا عليك أنت؟

نم أيها الطفل، نم!

نم أيها الطفل، نم!

إن المال لمن يسرق ويغتنم!

للطلاق الحاصل بيننا لعدم توافق الطباع، لهذه الحياة التي آلمتاها وآلمتنا، نحن المتعبين في انتظار بسمتها، وهي المتعبة من رؤيتنا ضعاف الشخصية ومهزومين.

نم أيها الطفل، نم!

نم أيها الطفل، نم!

هذه الحياة حياة عدم!

لأولئك الذين لهم سقف في رؤوسهم ورؤوسهم في حلم، لأولئك الذين يشاطروننا أرصفتنا، وينامون تحت المطر على الأرض ويحسدوننا على أبوابنا ونوافذنا و أسرتنا، أولئك الذين يخجلوننا لأننا نرفض تحريم أنفسنا.

نم أيها الطفل، نم!

نم أيها الطفل، نم!

فالسقف ليس يهم!

للناس المعدمين الذين يمدون أيديهم ويعرضون رضّعهم على صدورهم العارية. للشيوخ الذين يبيعون حسراتهم ممسكين بأيديهم التي تحمل خطوط الحياة والحظ الممحوة. للفتيان الذين يصرخون حقدهم وهم يتسوّلون لقمة قذارة.

نم أيها الطفل، نم!

نم أيها الطفل، نم!

فالبؤس في الجماعة لا يهم!

للإناث التي هجرها الذئاب، للعذابات التي تعانيها من كل مكان. لحسراتها التي لا تهدأ، للامبالاة و الاحتقار الذي تحفظه لها الحياة التي لا تكف، رغم ذلك، عن منحها.

نم أيها الطفل، نم!

نم أيها الطفل، نم!

أيتها الأنثى إن مستقبلك مدلهم!

لأولئك الذين يبكون الأمهات و الآباء والأبناء بكبائرهم، ويخلفون وراءهم حدادا وحزنا، يرعون الحقد ويرفضون الاختلاف. لكل البربرية التي يبذرونها في حياتنا.

نم أيها الطفل، نم!
نم أيها الطفل، نم!
سأبصقهم على العظم!

عندئذ، للنصر، لفخر الأمة وحتى للأسوأ: لنغنّ! لنغنّ معا جميعا، أخواتي و إخواني، لنغنّ!

نم أيها الطفل، نم!
نم أيها الطفل، نم!
سينالون منا ما فوق العظم!
نم أيها الطفل، نم!
نم أيها الطفل، نم!
سننام جميعا قريبا، فنم!
نم أيها الطفل، نم!

عندما استيقظت، لم يتوقف المطر العاصف عن السقوط طيلة الليل كله. وفي الصباح أيضا، كانت تمطر حبالا قذرة ومزيته. كانت السماء منخفضة جدا لدرجة أنه يمكنني تقريبا لمسها باليد. أفتح النافذة لتهوئة الغرفة وطرد رائحة العفن التي تستقر كل مساء لتكدر أحلامي بالغم. وككل مرة، أخرج من كابوس لأدخل في كابوس قادم أكثر واقعية، وأكثر قسوة! وهكذا وصلت بي الحال، وأنا متأرجح بين هذياني الليلي وخيباتي النّهارية، إلى عدم معرفة أي الاثنين قد يفسد الأخر.

- هل نمت نوما جيدا، يا عزيزي؟

نظرت إليها برغبة مفاجئة في خنقها.

الخُضر ضاقت ذرعها

تتعقب الأيام الليالي لتشكيل سلسلة من الأسابيع والشهور. وفي الغرفة الصغيرة من الشارع ب عند الرقم 114، لم يتغير شيء بالنسبة لي: أقراص مزّة، تبادل الأصوات مع رفيقتي وأسئلة تظل بدون جواب. هذه الاستفهامات التي لا أكف عن طرحها: أين أنا؟ من أين أتيت؟ ومن أنا؟

اليوم أيضا، قرّرت عدم الخروج. وقولا للحقيقة، فإني ما وضعت رجليّ أبدا في الخارج. لن أتحرك من هنا، وسأفكر لمحاولة التذكر. ولأشغل هذه الصبيحة، فإني أساعد رفيقتي في تحضير وجبة اليوم الهزيلة والوحيدة، وإذا بقي منها شيء، فإن ذلك سيشكل بالتأكيد غداء الغد. في ركن من الغرفة، توجد مساحة صغيرة جدا مهيأة للطبخ. هناك قدر مملوءة ماء موضوعة على موقد الكحول الصغير، ومن هذا القدر، يصعد بخار نتن الروائح، مسكر مثل تلك الروائح التي يمكن أن تخلفها نارجيلة مملوءة بالقنب الهندي. هذه الروائح لا يشمها غيري، أما امرأتي فهي تزعم أن ذلك ناتج فقط عن فوحان الخضر التي تنضج! منذ استيقظت وأنا أتحاشى نظرات رفيقتي المتوسّلة. إنها تقول أنها لا تريد أن تراني في هذه الحالة، وأنها انتظرت طويلا، طويلا جدا، عودتي لدرجة أنها لن تقتنع وتستسلم لوجودها أمام جثة لا حياة فيها، بل أمام قطعة لحم. ودون أن أقول أي شيء، وكما لو أني أثأر لنفسي من كل ما يحدث لي، فإني التقطت بعض الخضار من السلة وأخذت أقشرها بحنق شديد. بعد تقشيرها أرميها في الماء الذي يغلي. وأتلذذ عند رؤيتها تغلي في هذا

الهيجان للقنب الهندي. أما الفقاعات الهوائية التي تطفو على سطح هذا الحساء فإنها تترك الفرصة لانفلات شكاوى وأنات هذه النباتات المسكينة. وتظل رفيقتي تنظر إليّ بدهشة دون أن تقول شيئا. بعد ذلك بدقائق، أغطس يديّ في هذا الماء الساخن ثم أخرجهما؛ إنهما الآن طريّتان كليا. لكن هذا الماء يحرق أصابعي. وآخذ في الصياح "يجب إنقاذها! يجب إنقاذها!" وبمساعدة رفيقتي، ألتحق بسريري راجفا ومتصببا عرقا. وعلى الطاولة الصغيرة، أجد علبة الأقراص ذات مذاق القنب الهندي في انتظاري.

– هاك، خذ أدويتك، سأوقظك بعد ذلك لتأكل.

وأسمع نفسي تهمهم: يجب إنقاذها! يجب إنقاذها! إن أثر المهدئات سريع، فالضباب الكثيف الحار يرتفع في الغرفة. ومن خلال الأبخرة المتصاعدة، ألمح وجوها غريبة. طولية أو مكوّرة، هذه الأشكال الشبه إنسانية، أراها بكل الألوان،ها هي تخترق بارتخاء جدار البخار المتلاشي لتحنو عليّ. إن الخضار تريد مخاطبتي، ولكن كلماتها تتبخّر في انبعاثات القنب الهندي، ودون أن أفارقها بعينيّ، تبحث أصابعي خفية ودون تبصّر عن علبة الأقراص "المزّة" فوق الطاولة الصغيرة.

– يجب إنقاذنا! يجب إنقاذنا!

منذ الأزمنة الغابرة، والخضار يتم إنضاجها على النار من طرف أسياد المواقد الكبيرة. والطريقة سهلة ولم تتغير أبدا منذ ذلك الحين. نأخذ خضرة جامدة لنقشرها، وغالبا ما نترع البذور من ذاكرتها، وبعد غسلها، مباشرة،توضع على النار!

في الوعاء الأكثر تقليدية ، القدر، تطهى الخضر بالطريقة الأكثر تقليدية: نصبّ الماء في القدر، نغطس فيه النباتات البقلية ثم نتركها تغلي. أحيانا تكون درجة حرارة الماء مرتفعة بشكل غير طبيعي، عندئذ يفور

الماء ثم يفيض، فيكاد يطفئ شعلة الموقد؛ وكم من طباخ ماهر شرد ذهنه فدفع ثمن ثورة الخضر هذه. ونتأسف لكثير من المتذوقين للمرق الذين اختنقوا وأحيانا احترقوا بهذه الطريقة.

"كثير، هذا كثير" قالت البطاطا، وهي تنوي الانتقام بهذه الطريقة من الجلادين أصحاب القلنسوة البيضاء.

وهناك أيضا طريقة المقلاة، تلك التي تقلي الخضر في وعاء مسطح تقريبا بدون غطاء. في هذا النوع من الطهي، يعوّض الزيت الماء. هذا السائل الذائب يحرق جلد الخضر حيّا. وأحيانا تنشيط قطعة بطاطا غضبا احتجاجا على المعاملة التي تتعرض لها. عندئذ، تثور قدر ما تستطيع، وفي انتفاضة أخيرة من الاحتضار تعمد إلى بالانتقام.

"هاك! خذ هذا على الوجه" تقول البطاطا المقلية وهي تبصق الزيت الحارق على وجه المكلف بالمواقد، الواثق جدا.

"يقال أن القوي يغلب دائما الضعيف، ولكن يحدث أحيانا أن يخدش الأصغر سيده الكبير...ولا نتمنى أكثر من ذلك." هكذا فكرت البطاطا المملحة المحترقة لتعزي نفسها.

وإذا قرر الطاهي أن يعبث بقسوة، فهو يترك درجة الحرارة تتجاوز الحد المعقول، عندئذ تبدأ الخضر تقفز في الزيت المتوهج إلى أن تنتهي محترقة في المقلاة.

هذه الطريقة استعملت أثناء الحروب. ولكن سرعان ما تم التخلي عنها بسبب ما فيها من قساوة و إفراط. لقد حكم على هذه التقنية بالفضائحية من طرف الجيران الوعّاظ والمناهضين لسوء المعاملة ضد الخضر. لقد اعتبر هذا العمل جريمة ضد بقليات الإنسانية.

ومنذ اختراع قدر الضغط، غدت الخضر المسكينة تحضّر للأكل في الظلام، في وعاء عميق، محكم الإغلاق. عندما يغلق الغطاء، لا يخرج

أي شيء أبدا، لا ماء يغلي، ولا زيت حارق. ففي الصمت والظلام، تتعرض للمجازر والتعذيب، هذه الخضار الجامدة التي لا فكر لها، في غياب كل الأنظار وإبصار كل العقول. وأكثر من ذلك، فإن القدر الضاغط يمتلك مستحدثا ثوريا: فعندما يرتفع الضغط والحرارة في الداخل، ينطلق صمّام أمان مصفرا. أيّ إبداع، هذا الصمام! إنه يترك المجال لخروج الزائد عن حجم غضب الخضار! إن النباتات المسكينة المسدود عليها في سجنها الكتوم تظن أن هذا الصمام يسمح لها بالمطالبة بحقوقها، وبأن تُسمع صوتها بقوة أكبر. فخلال دقائق معدودة، كانت تتصور أنها حرّة وأنها كسبت الحق في التعبير، على الأقل. أما الجيران فيعتقدون، عند سماعهم هذه الصفارات الحادة، أنه أصبح بإمكان النباتات البقلية أن تعبّر بحرية، والدليل على ذلك أن هذه الأخيرة تصيح مصفّرة، ولا أحد يمنعها من ذلك. ولقد سمعنا في كل الأكواخ، خارج و داخل الضيعة: "في هذا الوعاء، توجد حرية التعبير، بالتأكيد!"

أما الطباخون، فهم لا يبالون ويتركون أغذيتهم تصفّر ليأكلوها بطريقة أفضل فيما بعد، وكلما صفرت أكثر كلما نضجت أكثر!

إنهم يغنّون معا: "ها أنا أسمع البطاطا تصفّر، وها أنا أسمع اللفت يصفّر!"

إن هذه الطرق تم تجاوزها الآن، إنها قاسية جدا ومعلنة جدا. حتى أن بعض الجيران ثاروا على المعاملة التي عامل بها رؤساء الطباخين الخضار المسكينة. منذ ذلك الحين، وُجدت منظمات عالمية لحماية حقوق الخضر. وأصبح سادة المواقد ينتبهون للطريقة التي يُنضجون بها "نزلاء قدورهم". وعندما تقوم لجنة من المنظمات العالمية لحماية حقوق الخضر (م.ع.ح.ح.خ) بزيارة للمطابخ التي يفترض أنها مشبوهة، فهي لا ترى أي شيء مشبوه، ولا حتى النار، وهذا بفضل التكنولوجيا الجديدة: فرؤساء الطباخين الآن، يعرضون الخضر خلف واجهة جميلة شبه معتمة،

يضعون فيها الخضر بتنضيد مريح. فهي لم تعد غاطسة في الماء الذي يغلي، ولا في الزيت الحارق. إنها مسرورة لكونها لم تعد تُطبخ ولم تعد تُمتص إلا قليلا. إنها تحّيي بيدها مراقبي حقوقها اللطفاء.

وتنادي خلف الزجاج: "شكرا أعزائي، منقذي الخضر اللطيفين! شكرا على قدومكم لزيارتنا."

أما كبير الطباخين فيقول: "انظروا هنا، لا وجود لخضر تعامل معاملة سيئة في أوعيتنا، انظروا كيف نحافظ عليها. إنها معروضة جيدا ليتأكد الجميع بأن حياتها محترمة. ففي داخل مسكنها الجديد الشفاف يوجد عندها حتى الكهرباء لتستنير! لم تعد هناك نار أبدا، ولا قدر أبدا !إنها حرة في أن تحيا وأن تعبّر، وهي سعيدة كما يمكنكم أن تلاحظوا، أعزائي، مفتشي حقوق الخضار."

أخذ المعتوه الكبير، وهو يرفق الإشارة بالعبارة، يضغط على الزر الذي يوجد مباشرة أمام الواجهة الزجاجية الكبيرة لهذه الإقامة الجديدة الرائعة فينبعث النور!

إن الخضار في غاية الغبطة، إنها تصفــق لهذه الإنارة الرقيقة وتــتعجّب: "أمر رائع، وإضافة إلى ذلك، ومن أجل راحتنا وتسليتنا، فقد أقاموا لنا لعبة. فالقاعدة الدائرية التي نرقد عليها تقوم بالدوران. يا له من إحساس مفرح ومذهل! إننا مثل أطفال خضار في حفل متنقل: ممتطين أحصنة من خشب، تأخذنا دوامة السعادة والنشوة."

وتصرخ الخضر من فرط الغبطة: "مرحى! مرحى! سادتي الرؤساء آكلي لحوم البشر المحترمين لحقوق الخضر، شكرا للعبة!"

لم تدم النشوة طويلا. ففي أول دورة للعبة اخترقتها زخات من الموجات الكهربائية لتنضجها من الداخل: تحس الخضار أن أحشائها تلتهب، ولكن مظهرها الخارجي يبقى سليما. عندئذ تبدأ الخضر تصرخ

ألمها وغضبها. وفي الخارج لا يرى المفتشون سوى الضوء بل يفكرون أن المعروضات تستمتع بدورة احتفائية. وبالتالي فقد قام أعضاء حماية حقوق الخضر، العُمي الطرش عن نداءاتها، والمحجوبين عنها بالحاجز الزجاجي للمحرق، بالتصفيق تحية للآمرين الكبار وأعوانهم. إنهم يقدمون لهم شهادات حسن سيرة ويشكرونهم على قفزاتهم التكنولوجية.

أما الخضر، فقد احتجت متحدة قبل أن تنضج أخيرا بشكل فعليّ: "من الغبي الذي اخترع الطبخ بالمويجات الكهربائية لنا نحن الخضار؟"[9].

---

[9] - خضار: نباتات بقلية تدخل ببذورها، أوراقها، سيقانها أو جذورها في التغذية. عندما يقضم ممضغ شخص ما أو يؤكل فإن هذا الشخص يدخل أيضا في عائلة الخضار وبعد، يمكن طبخه بكل الوسائل.

نقطة ماء؟

في شارع الشيطان سابقا، في النقطة ب رقم 114، يرتسم النهار بصعوبة تحت سماء مستمرة في بكاء وجعها. أنا أنظر من الفتحة الوحيدة التي تطل على السلالم المنحدرة وعلى شارع القصبة، الشريان الرئيسي. أمر غريب، أحس أن مزاجي خفيف؛ لعل ذلك من أثر هذه الأقراص الملعونة ذات الطعم المزّ؟ أغتنم المطر الذي لا يكف عن الهطول لأغتسل على حافة النافذة. وقبل أن أتخطى إطار النافذة، أسقط قميصي وسروالي كاشفا بكل دهشة هزالي. أقف على الحافة الضيقة، في توازن غير ثابت، مثل البهلوان. وأنظف نفسي كاشطا بعنف جلد رأسي المتصلّب، يجب أن أتخلص من هذه القذارات بأي ثمن. إن هذه الأوساخ المنغرزة في جلد شعري تبشُر مخّي وتفسد أفكاري. ها أنا عار، واقف وسط أصص الأزهار المملوءة هموما مثل رأسي المملوء بالشكوك، ولكني أجد متعة جارفة وأنا أغتسل. وفي الأسفل يقهقه الناس في الشارع مشيرين إليّ بالأصابع، كم هو محزن أن تراهم يضحكون بغباء! لابد أنهم لا يعرفون أن الماء نادر جدا من حيث أنا عائد، وإلا كيف يفسّر أني بمجرد استيقاظي، أرمي بنفسي على الحنفية، فاتحا فمي بأكبر قدر، آملا أن أعبّ جرعات كبيرة من هذا الماء الرمادي الذي يزداد غيابا أكثر فأكثر، على مر الأيّام؟ إني أشرب لأروي فكري وأجعله أكثر سلاسة. إني أشرب لأسقي أعصابي وأمنع الجفاف عن ذاكرتي، إني أشرب لأني لا أريد أن تتحجّر أحلامي وذكرياتي. تحت هذا المرش الجوي، كل

قطرة ماء تنسحق على جسدي تمنحني إحساسا مقتضبا بالسعادة وبشيء "معاش سابقا" مؤلم. وفي رأسي، أحاول أن أركبّ قطع اللعبة المُربكة.

- لكن ماذا تفعل إذن، يا عزيزي؟

- إني أغتسل. ألا ترين ذلك؟

– على النافذة، وأنت عار أمام كل سكان الحي، وتحت المطر؟

– يجب أن أتخلص تماما من هذه الأوساخ التي تشوش فكري!

– نعم، لكن ليس أمام الناس. من فضلك، ادخل.

– لقد نضبت الحنفيات في الداخل!

أواصل تدليك جسمي. وتتشكل في الشارع عناقيد من الجيران ينظرون إليّ بغرابة وهم يقهقهون.

وأسأل رفيقتي:

– لماذا لم يعد الماء موجودا أبدا؟ هل تستطيعين أن تقولي لي، أنت التي لم تفارقي هذا المكان.

– لقد مرت أشهر منذ رفضت الحنفيات السماح بمرور الماء. كل الناس يتحدثون عن هذا الأمر بما في ذلك وسائل الإعلام. إنه إضراب وحشي لمحوّلي المياه! فمن الحنفية البسيطة إلى مازج الماء بمساعدة الحاسوب(م.م.م.ح)، كلها تقوم بحبس السائل الثمين. ولكن هذا ليس سببا لتبدو عاريا أمام الجيران!

– قولي لي. أين أنا؟

– لكن... في النقطة ب114.

– أتذكر دون وضوح بأنه لا يوجد هناك أيضا ماء.

– أين هناك؟

– لا أدري، بالتأكيد في رأسي... لا شك في ذلك.

فجأة، أشعر بالتعب، لقد أرهقني هذا التمرين. أنزل من النافذة، تأتيني رفيقتي بمنشفة. أشعر بألم في الرأس و برد في جسمي.

– كم مر من الوقت وهذه الحنفيات الحقيرة في إضراب؟

– قبل هذا التوقف العنيف، كثيرا ما كانت تقع انقطاعات لعدة أيام، وربما لأسابيع، ولكن لا أحد كان يمكن أن يظن بأن ذلك كان بسبب خطأ هذه الأنوف السائلة. لابد أن نعترف، إننا كنا نجّرم ظلما مصالح المياه والأرصاد والحكومة و/أو الإله الطيب. إن الصلوات موجهة إلى هذا الأخير والشتائم للمذكورين أولا أو العكس، الواقع أني لم أعد أذكر. إن المتهمين (دون أدلة) يتقاذفون الكرة. فمصالح المياه تتهم الأرصاد بإسقاط مطر الضباب على جانب دلاء الماء التي عوّضت السدود المتوحّلة. ثم إن الحكومة قررت بناء أحياء من صنف غرفة واحدة، تطل على منظر رائع لمدن الصفيح، فوق الوحل المنضّد داخل هذه السدود.

– ولكن ومع ذلك، فإنها تمطر، منذ فتحت عينيّ، لم تتوقف السماء عن البكاء علينا!

– أنا أعرف، فالأرصاد تجرّم التيار المعاكس الثابت للأعاصير الذي يرفض الهجرة إلى الجنوب، وهذا الأخير يبرر ثباته بكون طبقة الأوزون مثقوبة فوق رأسه، وأن هذا الثقب لا يفتأ يتوسع. وهذا بالتأكيد ليس خطأه! حسبما يقول! أما الحكومة فهي تتضرّع إلى كرم الله، وتوبّخ مصالح المياه والأرصاد.

– والله، ما رأيه في كل هذا؟

– الله، إننا لا نعرف حقا ما رأيه في ذلك. لا يوجد أي رد فعل منه: نداء، لاشيء. إنه يرفض أن يقدم روايته للأحداث. كل هذا العالم الجميل يتقاذف الخطأ. "من يعطّش من؟" لقد ظل السؤال مطروحا إلى اليوم الذي استيقظ فيه الشعب على قرقرة غريبة قادمة من كل مكان.

ففي تلك الليلة، قررت كل حنفيات البلاد، في نهاية اجتماع وطني، وبعد مناقشة هائلة، التوقف عن أيّ نشاط مائي! لقد اتخذ القرار "إضراب عام لحنفيات البلاد."

- هكذا إذن!

- منذ ذلك الحين، تقررت التعبئة العامة واستقر فن التدبير في فكر وعادات الناس. وبدأ تبادل عناوين الحنفيات المرتشية والمؤجرة من طرف الحكومة، في السر. وتدخلت الأنترنت للمساهمة: فقد ظهرت للوجود، على الشاشة الكبيرة مواقع واب أقيمت خصّيصا للبلاد. وهي تقدم عدة أنواع من الحلول لهذه الكارثة الخارقة للطبيعة.

- هكذا إذن.

- لقد أصبح الناس قذرين أكثر فأكثر، وظهر ترابانديست[10] يتاجرون بالمياه الفاسدة، يقترحون سائلا عطنا من شأنه تعويض فضائل السائل المفقود. لقد نضبت كل منابع البلاد.

- هكذا إذن!

- تروي الإشاعة أيضا أن طائرات شحن تزوّد ميسوري الوطن بالماء المستورد، من البلدان المجاورة، الذي يدفع ثمنه من أموال الزيوت المصدّرة، لكن يجب أن لا نصدّق كل ما يقال!

- طبعا، لكن... أي شيء هذا! لكن بم تطالب هذه الحنفيات المتمّردة؟

- لقد طالبت الحنفيات، بكل بساطة، بماء صالح وصحي في شرايينها الحديدية والرصاصية. فمنذ سنوات وهي مكرهة على ابتلاع

---

[10] - الترابنديست: خليط من رجال المال، ورجال البورصة والإقتصادين، المهربين وتجار المصالح المحتالين لا رادع لهم وهمهم الوحيد "الربح". "الترابنديزم" هو معروف بكونه نشاط احترافي مثمّن جدا. هذه الوظيفة المحبوبة جدا لا تتطلب أي تأهيل جامعي أو مدرسي وهي في متناول أي غبي يريد الصعود بسرعة إلى مستوى اجتماعي يحسد عليه.

ماء غير صالح. إن هذه الأنوف السائلة، نيفًا[11]. إنها ترفض أن تسقي أخاديدها مياه ملوثة.

– إلى هذا الحد؟ وبعد؟

– وأخيرا، عندما تمكنا من تحديد المذنبين، ارتاح تيار الأعاصير المعاكس، والحكومة والله، وقد تم حتى التعويض على بعضهم. وحسب الأخبار الأخيرة، فقد تم رفع قضية أمام العدالة ضد الحنفيات المناهضة، وأن وحدات التدخل ضد الإرهاب جاهزة لتنقضّ وتلوي رقبة "الحنفيات المجرمة".

– هكذا إذن!

– يبدو أن إضرابا جديدا يُحضّر، فالملعقة المملوءة قهوة بلغ ثمنها عشرة أضعاف كأس ماء وسخ. وهناك حتى إشاعات رائجة حول موضوع أباريق القهوة... ولكن هذه حكاية أخرى... أو هي إشاعة أخرى.

– ولكن قولي لي يا صديقتي العزيزة، أين أنا؟

– ولكني كررت لك ذلك عدة مرات سابقة، إنك في بيتك، في النقطة ب114.

– وتؤمنين أنت بكل ذلك؟

– في النقطة ب114؟

– لا، لاشيء... لم أقل شيئا. إني أريد العودة للنوم. ناوليني الأقراص، من فضلك!

---

[11] - نيفا: الأنف (المترجم): الشرف والفخر. هذا المفهوم كان سائدا عند المستأنسين، وقد سقطت منذئذ في البطلان. ملحوظة: يمكن أن نعتبر إذن أن ح.نيف. ياتنا قديمة جدا (من قبل الطوفان، في هذه الحالة المحددة).

اتركوني

إني مقتنع الآن بأنه يوجد في شارع ب، في الرقم 114، شبه حياة رهيبة، لا أنس فيها ولا حنان، في شارع الشيطان هذا. فمنذ استيقظت في هذه الغرفة، والأيام تختلج لتتشابه أكثر وتتحول إلى كوابيس عند هبوط الليل. إن حياتي تتسم بإيقاع تناوبي مؤلم: فالصبيحات تُهجّن وفق تجارب معيشة شاذة لدرجة أنني أتساءل دائما إن لم تكن تهيؤات؛ والليالي مسكونة بافتراضات واضحة لدرجة أني انتهيت إلى الاعتقاد بوجودها. ومع ذلك، فإن الزمن يبدو متوقفا، لكثرة ما يتكرّر في هذه الحجيرة الضيقة. إن الأحداث تتلاحق هنا، في الخارج وفي عقلي، ولكنها لا تبدو مقدّرة بالمدة؛ غريب... إنها تعطيني باستمرار الانطباع بشيء شوهد سابقا.

كان عليّ ربما أن أوقف أخذ هذه الأقراص ذات الطعم المزّ ولكن كيف يمكنني أن أعيش بدونها؟ هل هذا الخيال الذي لا يطاق يصدر عنها، أو أن الواقع الحزين الذي أحياه هو من سيحوّلني إلى مجنون؟ توجد، قبالتي، هذه النافذة المفتوحة تماماوالتي تمدّ نحوي مصراعيها... كأنها تدعوني ـــ وفي منتصف الغرفة، يوجد الفراش غير المرتب الذي ترقد عليه امرأة، تدّعي أنها لي. وبخجل، تدفعني مشاعر عميقة لتصديق مزاعمها. لا بد من ابتلاع أي شيء، إذن ومادام لابد من فعل أي شيء، فالأفضل الإيمان بقليل من الحب. كان الغطاء القديم المنكمش يترك فرجة تظهر جزءا من جسدها العاري. وشعورا منها بنظرتي الحارقة على

بشرتها الصقيلة، تجذب باحتشام البطانية الرقيقة التي، رغم ذلك، تكشف باهتمام حقيقي بالتفصيل، تقاطيع جسد ظل دائم الشاب، دائم الإثارة ولا يشبع أبدا. أشعر بأني مذنب بكثير من الأشياء في هذه الحياة. ولكن ما لا يغتفر أكثر: هو أنني قد أكون هجرت هذه المرأة. ليس لكوني لا أشتهيها، فالرغبة لا تزال موجودة، كامنة،مكتومة ومحجوزة داخل عروقي المتحجرة، ولكن على الأصح، خوفا من أن لا أكون في مستوى وعودي. فغالبا ما أكتفي، في ساعة متأخرة جدا من المساء، عندما تكون قد نامت، بتخيل ممارستي الحب معها مثل المجنون، كما كنت سابقا وأحيانا بأكثر هيجانا! كل ذلك وأنا ألتهم بعينيّ تقاطيع جسدها السخية المهداة لاستيهاماتي الليلية. ثم أنام بدوري يملأني شعور بالكبت وكثير من الحسرات. إن الحب هو أن تعطي كل يوم، ولكن مضى عليّ وقت طويل لم أمنح فيه أي شيء، وكم يجعلني ذلك محرجا. كما أن كبريائي وشكوكي تمنعني من مصارحة رفيقتي بمعاناتي. فمنذ عودتي وأنا أكلمها قليلا أو لا أكلمها إطلاقا؛ وإن صمتي لم يزد جو الأماكن الثقيل إلا ثقلا، لقد غرقت في دوامة استفهاماتي. إن فقدان الذاكرة يخفي عني جوانب كاملة من حياتي. وفي الليل، في نومي المضطرب، يحدث لي أن أتحدث عن أشياء غريبة، بلغة أكثر غرابة، وهو ما يفزع رفيقتي المكلفة بالسهر عليّ كل مساء. أحيانا تقرأ عليّ أشعارا لأنسى قليلا هذه العذابات التي تثيرني. وهذا يوم أخر سأقضيه في الشك والتساؤل. إني جد متعب لأواجه، مرة أخرى إضافية، يوما آخر. لذا غالبا ما يطيب لي أن أجعل نفسي مجنونا. مجنونا وكفى! أتقبل ما أتخيله و أذوب في منمنمة ذاتي الفاسدة، لا أعلم في أي جهة من المرآة أقف، وأنظر إلى نفسي في ضمير الغائب. نعم، هكذا، أعتقد بصراحة أنّ كوني مجنونا يسهّل لي المهمة، جنونا يساعدني على القيام بالاختيار بين دعوة النافذة ودعوة

رفيقتي. وككل مرة يحرجني فيها هذا المأزق، أحط نظري التائه على طاولة صغيرة منخفضة قرب الفراش حيث ينتظرني أنبوب الأقراص... وبالضبط، قبل أن أعود للنوم، تعبر فكرة ساذجة فجأة ذهني المخدّر: "أن تكون مجنونا، فقيرا وتكون محبوبا من الحياة أفضل من أن تكون عاقلا غنيا، وتكون مرفوضا من هذه الأخيرة."

في الصباح، عندما استيقظت، كان الماء يملأ كل مكان في الغرفة، وفراشي يشبه سفينة تسبح على بحر صيفيّ هادئ. الأسماك الحمراء تتبختر فوق زربيتي، وأجد كل ذلك جميلا جدا؛ الأسماك تسبح على جنبات باخرتي الصغيرة!

أغطس لألتحق بالمطبخ سباحة في هذه المياه المنعشة الخيّرة، ويرسل لي إبريق القهوة نكهة قهوة ساخنة تجذبني وتلهمني بقية يومي، أشعر أني بخير هذا الصباح يا لمتعة هذه القهوة!

عند عتبة الباب، أقوم بقفزة بهلوانية على يديّ. أنا شخصيا مندهش لإمكانية القيام بها. ثم قفزات عديدة أخرى على العشب الذي يزين الحديقة.

أمشي في الشارع، عاريا تماما. لا أحد يلاحظني، أو بالأحرى لا يبدو مشمئزا من عريي؛ في الحقيقة إننا جميعا نتجول، عراة تماما. اليوم وعلى الطريق الموصل إلى عملي، ألتقي بأناسي سعداء: إن الجو جميل، فالشمس مشعة وسط السماء الزرقاء والناس من حولي يشعرون أنهم بخير، وأنا أيضا.

عندما أصل إلى عملي، أجد كل شيء جاهزا سلفا، لا يبقى لي سوى الإمضاء. إن زملائي متعاطفون. يقدمون لي شرابا في مقهى الزاوية. ومنتصف النهار يقترب. وغدا سأكون سعيدا، إنه يوم راحة.

أدعو حبيبتي إلى الغذاء، ونحتفل على عشب الحديقة الأخضر الذي تنبعث منه عدة روائح عطرة. إنها في أوج جمالها اليوم. أقول لها ذلك فتشكرني. ومع ثنائي يتورد وجهها الجميل؛ وأعتقد أن وجهي كذلك، من الاضطراب. وعلى سبيل التحلية، أهدي لها حديقة ورود. إني سعيد، أنا متأكد أني في الجنة.

للمرة الألف، أبوح لها بعشقي؛ ومن خجلها تذوب في دموع من السعادة. أغادرها إلى غاية الغد، منفعلا، راضيا. وفي هذه الغبطة، أواصل طريقي. وعند المرور، أتعلق بسحابة عابرة. أجلس على الأبيض القطني لكومة سحاب مجنّحة، وأستسلم لنسمة حلوة المذاق. أثناء نزهتي السماوية، أتحاور مع الخطاطيف. تزقزق لي عن ربيع جميل الأيام، وأنا أداعبها لأشكرها. تطير عاليا في السماء، وتتمنى لي بجناحيها رحلة طيبة، وأطير ضاما قبضتيّ. أتأرجح قليلا إلى الأمام وأنا أقفز، وأحلق على ارتفاع مائة متر عن الأرض. أتنقل بيسر، في كل مكان. أنا في واقع يمكنني أن أطير فيه، إنه واقعي!

ومن أعلى شارعي، أشاهد كوخ أصدقائي الخشبي؛ إنهم يسكنون على الضفة الأخرى لمجرى الماء. أنزل لأقول لهم يوم سعيد؛ يتمنون لي قدوما طيبا ويدعونني للعشاء، أثّمن هذه الدعوة ولا استطيع رفضها. ثرثرنا طيلة الليل، وتحدثنا بإسهاب عن المستقبل والماضي، والأزهار والربيع. وبقيت إلى ساعة متأخرة ثملا بالصداقة، ثم نمت على العشب البارد، مع القمر والنجوم ورفاقي.

عند الصباح الباكر، أيقظتني أغنية العصافير، فاغتسلت بالندى البارد، رفقة الأرانب والحلازن. قبل توديع أصدقائي، أخذوا مني وعدا بالعودة لتحيتهم قريبا. لقد طلع الصباح على يوم رائع آخر.

أقفز على زهرة نيلوفر لأقطع النهر، ترافقني ضفدعة خضراء، تتمنى لي صباحا سعيدا؛ وخلال الرحلة، تنقّ لي قصة عاطفية جميلة؛ وعند وصولي إلى الحافة، أقفز إلى الأرض اليابسة وأعبر لها عن تقديري. تقذفني بقبلات قبل أن تغيب في رحلة عبر الأزهار البحيرية.

ألتحق ببيتي متسلقا الأودية والجبال. ألاقي في طريقي أناسا من الريف، يقترحون عليّ أن أجالسهم، نتحدث عن المطر والجو الجميل، عن العادات والأساطير؛ نتقاسم الحليب والخبز، وعند مفارقتهم، يقدمون لي باقة من الأزهار الآلبية، أتقبلها بانفعال شديد. إن اليوم يوم استثنائي. وأعود للترول نحو السهل و أنا أغني والزهرة بين أسناني .

على عتبة بيتي، تمرّ قطتي فرحا عند رؤيتي. وأعود للغطس في الموجة الصافية لأدخل إلى مسكني. لا تزال الأسماك الحمراء هنا. ما من شك، إني أسبح في السعادة!

واليوم، تماما مثل الأمس والغد، لا أرغب في إرهاق نفسي، و سأذهب لأستريح في فراشي وأقضي، داخل رأسي مرة أخرى، يوما جميلا آخر.

"أرجوكم! اتركوني! دعوني... أحلم."

أفضل أعدائي

إنني خامل! لقد أصبحت خاملا، أنا الذي كنت أمتنع عن النوم لكي لا أضيع شيئا من حياتي، وأعيشها كاملة، ها أنا الآن أغتبط لعدم فعل أي شيء بأيامي وبمعاناة لياليّ. عاطل أنا! أنا عاطل، لم أعد أعرف عمل أي شيء بأصابعي العشرة، ويكون هذا أسوأ عندما يأمرني رأسي بذلك. إن بطالتي تضاعف العوز الذي نعيش فيه، أنا ورفيقتي. إننا نعاني شظف العيش، فالغذاء والمال نادران. ولا أفهم دائما كيف تتصرّف امرأتي لتغذيتنا، ثم إني لا أريد أن أعرف ذلك، وربما لا أجرؤ على اكتشافه. إذا كان في القارب شخص واحد يجيد التجديف، فما على الشخص الآخر إلا الاكتفاء بتشجيعه أو على الأقل أنَ يستحي ويسكت. غالبا ما أجدني محادثا نفسي، ومحدقا مباشرة في عينيّ، أقول لها: "أنا الرجل!" كما لو أن ذلك سيغيّر شيئا ما من الوضع. "أيها الغبي، من سيمضي بالقارب قدما إذا لم تكن هي؟ أيها الأبتر! المسكين..." هذا ما أجيب به كل مرة. نهاية المناجاة!

ومع ذلك، يجب أن تتوقف وضعية الهشاشة والتبعية هذه؛ إني لم أهرب من كوابيسي لأعيش في هذه الظروف. لا! يجب أن أستعيد التفوق على الأحداث، لن أترك لها المجال لامتلاكي مرة أخرى. أحيانا، عندما لا أستطيع تحمل موقف المسعف هذا، أبتلع الأقراص الملعونة بالكمشة لأهرب من حاضري، وأسمح لذكرياتي المبهمة الزرقاء باجتياحي، ولكن الذكريات السعيدة تعذب القلب أيضا. واستعادتها

أكثر قساوة عندما نتذكرها في النهاية. أخيرا لو كان لي الاختيار، لاخترت هذه الأحلام الزرقاء حتى لو تلونت بالألم عند الاستيقاظ .إنها تذكرني ببوهيمية شبابي، وعدم التفكير في المستقبل الذي يجعل حياتي أكثر بهجة. كنت أعبر حدود مغامراتي بلا شيء في جيوبي، فكل شيء في رأسي. كان رأسي مغطى بسحابة وقدماي مرتحلة دائما، لم أكن أبدا آخذ اتجاه الريح، كنت أنا الريح! كنت أعيش حواضر متلاحقة. فحين كان آخرون يهابون الزمن، كنت أنا أتحداه. نعم لأن هذا الزمن كان لي، وجب أن أتمتع به؛ كنت أدفعه، بسرعة كبيرة، نحو الماضي ليترك المكان للمستقبل الذي سيعّوضه مباشرة. كنت أستمتع بشدة بكل وقت يتاح، لأنه في الوقت الذي كنت أتنفسه فيه، يكون قد مضى في غياهب الحسرات أو كان يستحم في بحر الرضوان.

أقراصي، بسرعة! إني أرغب في الالتحاق بنفسي في حاضري الماضي. كان هذا حسبما أعتقد، في ذلك العهد السعيد الذي عرفتها فيه، هذه المرأة التي تتقاسم معي اليوم بؤسي و جنوني. وكان ذلك أيضا في نفس الفترة التي عرفت فيها هذه الشخصية الشيطانية...

في أزمنة القحط تلك، كنت قد ذهبت أطلب من أفضل أعدائي أن يقرضني شيئا من المال لإرضاء شهواتي "يجب أن نغتنم الحياة جيدا!"

قال لي بأنه لم يبق له شيء منه. لقد أنفق كل أمواله، وحده، دون أن يقصد ذلك واعتذر عن كونه قد التهمها... وأضاف بأن والده كان مريضا...، وأن صديقته كانت تريد أكل التفاح، وأن الحياة كانت غالية... وهلم جرا! من الهذر! وأخيرا علمت أنه قد أضاع كل ماله.

أما أنا، فقد احتججت، بالتأكيد:

– إن ما فعلته ليس جيدا، فماذا أفعل أنا لأتسلى؟

– أنا آسف...، أجاب بحزن ثم سكت محرجا، لأنه أدرك توّا عدم لياقته.

– لقد تأخرت كثيرا! إن الخطأ قد وقع، سأذهب للبحث عن عدو آخر لتعويضك. إنك لم تعد تهمني، فقد أصبحت مفلسا الآن. سيكون هذا عقابك! أيها العدو ..! وصرخت غاضبا: "إذا لم يكن بالإمكان الاعتماد على أعدائنا فعلى من يجب علينا الاعتماد إذن؟"

أخذ، المفلس المهان يبكي حظه الذي جعله خصما تم التخلي عنه، وا أسفا له، وحسنا فعل بتفاحته، هذا سيعلّمه أن يرفض مقاسمتي. ها هو مفلس مثلي!

من ثم ذهبت أبحث عن أشخاص أغنياء في محيط أعدائي، ولكن ورغم بحثي الجيد، فلا أثرياء، ولا وجود إلا للفقراء. ماذا حدث لهم حتى يصابوا جميعا بالفقر، وفي نفس الوقت؟.يا له من زمن قذر بالنسبة للأعداء! يا له من زمن قذر بالنسبة لي!

في طريقي، التقيت عجوزا نصوحا، أفادني بأن العون لا يمكن طلبه من الأعداء، بل عند الأصدقاء.

– ولكني أنا، لم يكن لديّ أبدا أصدقاء، لقد عاشرت دائما منافسين. إنه لمن السهل أن تجد الأعداء، هذا ما أجبته.

لقد كان مجنونا، هذا المرشد! إنه لم يكن يعلم بأن الشخص المخلص يحتاج للعناية والاهتمام، وغالبا لكثير من المال؛ إن الصديق حساس، في حين أن العدو لا تجب مراعاته، لقد كان من الأسهل تسييره إذن، وعلى كل، فإن ذاك ما كان ليسوّي وضعيتي. لقد كنت دائما مفلسا. "بسرعة! يجب عليّ أن أجد حلا."

– ويتفلسف الشيخ: إن أفضل عدو للإنسان هو الإنسان.

– وإني أبحث عنه من أجل ذلك. لأنه الأفضل! لكن، لم أعد أجد أعداء أثرياء وأسخياء!

- إذن، لم يبق لك إلا أن تجد صديقا جيدا، نصحني العجوز فسألته: من هو أفضل صديق يستطيع أن يجعل إنسانا مفلسا مثلي سعيدا أيها المرشد؟

- يقال أنه الكلب!

- آه حسنا؟ إذن من أجل ذلك، عندما يكون الإنسان سعيدا، يقال أنه يعيش حياة كلب؟

- لا! إنه العكس، أي عندما يكون شقيا، فإنه يقال له "حياة كلب"!

- عندئذ، إذا كان شقيا معه، فهو ليس صديقه بالتأكيد، هذا الكلب الشرير!

نفد صبر العجوز المغتاظ فنهض وهددني بعصاه وهو يصرخ بيّ:

- أيها الغبي، اذهب إلى الشيطان!

رضيت بهذه النصيحة، وعاودت الانطلاق بحثا عن شيطان سخي، شاكرا، بطبيعة الحال العجوز.

وفي طريقي، صادفت لوحة إشهارية. تقترح جولات سياحية إلى الجحيم. وجاءت فكرة الذهاب للقيام بجولة في جنة الآلام والعذابات. و بينما كنت أفكر في الأمر، رأيت أنه يمكنني هناك دائما أن أبيع روحي للشيطان. وأن ذلك سيمنحني قليلا من المال.

كنت إذن قد ذهبت إلى"الشيطان" أقايض روحي، كنت أريدها غالية، ولكن هناك، في الجحيم، كان الشيطان تاجرا ماهرا. كان يتقن اغتنام الفرص الجيدة. إن روحا معذبة تتعذب دائما حتى تباع بيعا جيدا في سوق العذاب. كانت السوق ممتلئة والأسعار لا تكف عن الهبوط، إن أولاد العفاريت كانوا يقومون، دون عناء، بصفقات شيطانية تماما! "السوق قاسية، لابد من المساومة جيدا! هيا، هذا مشتر، إنه هو الذي سأقترح عليه

نفسي." أطرح نفسي قبالة الملعون، كالسلعة مع الاهتمام بتحديد ثمن مرتفع أعلقه على قميصي. يقترب...أقوم بإغرائه. ينظر إلي فأبتسم.

- ما الذي يمثل خصوصية روحك لتطلب كل هذا الثمن؟ سأل الأقرن ذو القدمين المنفرجتين، وعلامات المفاجأة بالثمن بادية عليه.

أظن أني قد أعجبته. فبدون تردد أخذت وضعا مغريا، وكنت أحاول مدح مؤهلاتي، "لكن ما هي هذه المؤهلات التي أمتلكها؟" اضطربت أمام هذا الاستفهام، وانتهيت بالتخاذل متلعثما، ودون اقتناع صريح:

- حسنا... إنها روحي وأنا أعرفها جيدا. وهي طيبة معي، وإني بصورة خاصة، أحب نفسي كثيرا.

علق الشرير قائلا: في هذه الحالة، لماذا لم تعد ترغب فيها؟

لم أكن أنتظر ذلك أبدا. لم أعد أعرف ما أجيبه، ورحت أتلجلج:

-ح... ح... حسنا! إني أريد تغييرها. هكذا فقط!... لكن... إنها جيدة، نعم، بصراحة، بل إنها جيدة جدا، روحي! هكذا كنت ألح على شيطاني بطريقة سريعة.

- تغيّرها. ومقابل ماذا؟

- آ... آ... مقابل كثير من المال.

- ساذج! ألا تعرف أن السوق هو الذي يحدّد السعر؟ إن روحك لا تساوي أكثر من أي واحدة أخرى، بل ربما أقل!

- الخبيث الماكر. هنا أمسكني؛ كان لابد إذن من الاحتيال مع الشيطان إن كنت أرغب في مواصلة المساومة.

- وماذا تقول سوق الأرواح؟

- إنها تكد لتقلع، ثم إنها غير معتبرة تقريبا... إلا إذا قررت، طبعا، مقايضتها، هذه الروح البائسة.

كنت أفكر وأنا لا أزال معروضا. ثم اتخذت هيئة مطمئنة، فاقترحت أخيرا على شبيهي.

– هيا للمقايضة... ها أنا أقترح عليك روحي مقابل روحك! نعم، لم لا، إني مستعد لتبادل روحي مقابل روحك! إني أخفّض أنا، سيدي الشيطان، وعندما أخفّض لا أهتم بالتفصيل. هنا اندهش شوّاء جهنم .

– روحي، روحي أنا؟

وأمام دهشته، رحت أزايد بشجاعة.

– ولما لا؟ روحي مقابل روحك.

– يا للشيطان، هذا فعلا شيء جديد! إنها حقا أول مرة يُقترح فيها علي هذا النوع من المقايضة. قل لي يا إبليس الصغير، كيف ستفعل بعد ذلك لتحصل على المال. بما أن ذلك هو ما يهمك؟ قال ذلك شيطاني المقايض وعلامات الحيرة بادية عليه.

ومن ثمّ، تقمصت دور المغري، ولعبت ورقة التلغيز. لا يوجد أفضل من ذلك لتأجيج فضول الشيطان.

– سترى. لنقم بالتبادل أولا . وسترى كيف سأتصرف، ألا يغريك ذلك بالمشاهدة، أيها الشيطان الكبير؟ هل أنا من قال: من لا يحاول أي شيء، لا يحصل على شيء؟ ليس الله بالطبع! إنه الشيطان حتما.

استغرب اقتراحي الشاذ، وتعجّب من جرأتي، واستجاب ابن أو صديق الشيطان، بسرعة محيّرة. بعد الانتهاء من التبادل، وجدت نفسي بروح شيطان.

بعد يوم من ذلك، وعيناي تلمعان مكرا، عدت لرؤية شريكي الأبله. فوجدته محزونا، يمشي قرب النيران المحرقة، وهو متخف عن

زملائه. وبوقاحة اقترحت عليه، وأنا أحدّق فيه بعينيّ الملتهبتين. كما تحسن فعله شياطين الجحيم.

- إذن، الآن وأنت أنا، هل تريد مبادلة روح شيطان بروحك الجديدة المتعبة، الفاسدة والمريضة؟

استشاط الشيطان غضبا عند مشاهدتي من جديد، وذهل بعدما تفطن لاحتيالي.

- أيها القذر! ها أنا أصبحت روحا معذبة بسببك!

- أيها الشيطان السابق، إنني أنا من يحدد الأسعار الآن. إذن ادفع قليلا. هل أنت موافق أم لا؟ إني أعمل في الوشاية أيضا. هل تعلم بأن أصدقاءك يبحثون عنك في كل مكان؟

أمام الخديعة التي تعرض لها، لم يجد بدا من القبول على عجل بل أكثر... متوسّلا لي. يجب أن لا نغري شيطانا أبدا، هذا القول، ما كان ليعرفه أحد أفضل منه فقد كان يناشدني.

- موافق! موافق! أيها الشيطان! ولكن يجب الإسراع لأنه إذا اكتشف العفاريت الصغار الآخرون هذه الشيطنة، فإنهم سيقومون بإرسالي، بكل تأكيد، إلى الأرض مثل روح تافهة كتب عليها أن تتعذب. هل كان يناشدني؟

وهتف فكري الميكيافلي ساخرا: شيطان تعرض للخديعة، يجب أن يحدث ذلك انقلابا في الدائرة الأخوية الإبليسية: إن ذلك يشكل سابقة: ماكرا غير ماكر.

اغتنمت اضطرابه لآخذ هيئتي الأكثر دهاء، ثم ألححت عليه، وقد تلبس جسدي بالشيطان:

- نعم، لكن قبل ذلك... عليك أن تزيدني النقود، كثيرا من النقود! هذه الروح البشرية المتعبة التي تجرجرها لا تساوي شيئا، إنك أنت شخصيا من قال هذا!

أصاب الشيطان المسكين هوان كبير، فاحمر خزيا وغضبا، وفي النهاية أعاد نفسي إليّ، وجعلني إضافة لذلك ثريا جدا. سأتمكن أخيرا من إعادة الغطس في فراغي المرح والموسر؛ وبالخصوص، لن أضطر إلى سحب الشيطان من ذيله.

منذ ذلك الحين، أصبح الشيطان أفضل عدو لي على مدى الحياة بل أكثر من ذلك، المهم أن هذا ما وعدني به على إثر مقايضتنا الأخيرة. أتمنى أن يوفي بوعده. إني مسرور على مدى الحياة بل أكثر!... إذ أنني عثرت على أفضل أعدائي.

التعرجات... إن كان لابد منها؟

هناك أماكن تجعل منا من نحن، وأحداث ستجعل منا من سنكون. وليست الغرفة الصغيرة المؤثثة بشحّ هي التي ستفعل ذلك. إن الشارع ب114 لم يعد يريدني ولا يتردد في تذكيري بذلك في كل حلم من أحلامي. إن هذه الرحم ترفض أن تكون أصلا لي، وتسلبني ماضيّ. منذ أشهر وهي تدفعني، كل مساء، للالتحاق بموكب كل ذواتي المعذبة؛ فأجد نفسي منغرز العقل، متقدما معها في متاهاتي المظلمة للقيام بـــ *"جولات في الجحيم... مادام لابد منها. الأقدام والأيادي في السلاسل. وبعهودنا، سنحاول أن نظل متضامنين وللصمت رافضين. الأرواح والقلوب دائمة البحث عن مزايا ذات نكهات سريعة الزوال. غرور أحمق... أوهام عابرة للعثور على المخرج المنقذ، والطريق الموّحد. لذا، ربما جازفنا في انتفاضة فجائية، بتأجيج حماسنا، بضربات محراث... إذا كان لابد من ذلك... على أرض الجحيم هذه، سنرتدي الحديد، نستبدل القلوب من أجل أن نعجب أو نرضي السحرة. سنبيع، بسحرنا، أرواحنا القابلة للمساومة، ونتنازل عن لحومنا الفاتنة المفيدة لكل الشياطين. شجاعة جبانة متخلية، خوفا، عن ذوينا؛ مضحية، عمدا، بمقدساتنا؛ مسلحة قتلتنا من أجل رغيف؛ سنأكل في أيديهم ونترك هذا الانحطاط المظلم يعمل "لندعه يعمل... مادام لابد أن يعمل". وماذا سنفعل نحن بأرواحنا، بأجسادنا أو بقلوبنا الموهوبة لحديد الجحيم؟ إذن، ربما،ننتظر و نفاجئ،*

الأمل الوحيد، المنتقم، المزين دائما بالكفن، المنقذ والمخلّص. "ننتظر، ربما، تفاجئ، كيف؟" من الظلمات الملحّة إلى الومضات الضعيفة، يتكون الوقف من بلغم تجرنا سواعده اللبلابية إلى معارك منحرفة وإلى انتصارات فاسدة وإلى هزائم نكسبها بفضل عنادنا الجشع.

وفوق رؤوسنا، هذه السموات الحالكات كالأبنوس، ذات البرق القاتل الذي يخرق الأجسام، ويلولب الأحلام؛ ماذا كان بإمكاننا أن نفعل أمام الزوبعة المزمجرة، إلا أن نستكين وقلوبنا في سلاسل العبودية... "إن كان لابد، لنترع السلاسل!" أمامنا، خلفنا، ومن كل الجوانب، ترى الآفاق، الماكرة دائما، ذات الرؤى المخادعة، عابسة، وهي نافذة البصيرة ومدمّرة مثل مرايا كاذبة. إنها سرا بات مزيفة ذات أوهام حقيقية. استبسالنا الحزين وغير المجدي الذي يقلق، الذي يرهق ويستسلم ليصنع دغلا عميقا يفقأ العينين؛يؤثر في الأبدان؛ يسلم الروح لإيغاف الشياطين، يسخر من دموعنا الشخصية؛ لا يعود يشحذ أسلحتنا؛ ينام ورأسه على دعامة القرار، ويحلم بالحكمة المفوّضة؛ يقتنص ابتساماتنا المسكينة المتثائبة، المغرية والمتواطئة، على وجوه مطلّية، مصبوغة، ومفسدة في خلسة، يخفي حسراتنا، يخنق حشرجاتنا تحت الوسادات، يغرق أسفنا الأمومي في تكور الأثداء؛ ويستفيق، كل الوقت دون أصباح. لعله يبلغ في النهاية، كل مساء، ذات مساء أو ذات يوم أسود، منتهى الشبق، وقمة الجبن، جوهرا جبانا سهل اللياقات، منقادة، مفروضة، بل مرجوة غالبا. تحزّبٌ محتّم سائغ. غفلة مسكرة. كم ترعب الشياطين، وكم هم أنذال قدّيسونا! الإرادات غائبة والأصول ضائعة... وها نحن صرنا هم، على بعد ألف فرسخ من سماواتنا، منهين بتوقيعاتنا تسكعاتنا في المتاهات المضحكة. ودائما ومرة أخرى، نعود إلى الجحيم؛ لا مجال لفعل أي شيء، فنحن متقلبون، منقادون، إن كان لا بد..."

عند الإفاقة من جولاتي الوعرة، اكتشفت أن العالم الذي تشغله أحلامي يضيق أكثر قليلا في كل مرة، وهو يمتلئ بحوادث مزعجة غير مرغوب فيها: أستيقظ حتما في فضاء حقيقي لا يكف عن التناقص، الأمر بسيط: لم يعد عندي أي أفق! وعلى النقيض، فإن الشيء الوحيد الذي يتبادر إلى ذهني هو الفرار، ولو أني لا أعرف إلى أين أذهب ولا نحو من! إن المرأة التي فتحت عينيّ عندها تعاني معاناة الكلاب لإعادة تكييفي مع الحياة الجديدة. فاللطف والعطف اللذين تكنّهما لي أدّيا إلى إحراجي، وأعتقد أني تعودت على حضورها.

- "لا تقلق يا عزيزي، أنا متأكدة أنك ستهتدي في النهاية إلى طريقك" هذا ما كانت تردده كلما كنت في أزمة، أي كل الوقت. و هذه المرة، أردت أن أذهب بعيدا في المناقشة حين واصلت:

- إن وجودك بجانبيّ يطمئنني، لكن... لكن...

بقيت كلماتي بكماء، وبصورة مفاجئة يضطرب قلبي... بطريقة غريبة من أجلها. لقد عدنا معا زوجين. كم أتمنى أن تحطم هذه المواجهة صمتي، لكن فكري مضطرب جدا، وللتوّ، اكتشفت أنني أزعجها أيضا بحياتي، وهذا ما لا تستأهله هي. ولكن لماذا تتملكها؟

- ولكن ماذا؟ تقول بإلحاح.

وتتحدني شبه شجاعة، فأبوح لها بمشاريعي الحزينة والحتمية.

- إن أبعد ما أذكر، هنا في النقطة ب114، أننا في الخارج دائما خارج الفصل؛ و الداخل بين الجدران الأربعة الصغيرة، فهي من أي معنى. إنني أقضي حياتي في استعراض الليالي والأيام وهي تمر كتهديدات. وتتسرب الأحداث، إما عن طريق النافذة وإما من خلال تعرجات ذاكرتي. فرغم حضورك الثمين، أنا أواصل القيام بالتحركفي عمق وحدتي.

– أنا هنا، لم يعد هناك سبب للخوف، لم تعد وحدك الآن. بهذا أجابت متفادية النظر إليّ، وشعرت أنها ترتعد أمام عباراتي.

إن العواطف المستيقظة فجأة والتي أشعر بها نحو رفيقتي تجبرني على مخاطبتها بصراحة أكبر. عليّ الآن أن أتصرف معها بوضوح.

– لم أعد أستطيع التصرف طبيعيا، وعندما أتمكن من ذلك، فإن الفضل فيه يعود إلى هذه الأقراص الغريبة التي تمنحني تأجيلا اصطناعيا في سيناريوهات تشبه عالم "دانتي". وقد أدى ذلك إلى غرس عادات مستهجنة فيّ، وعدت إلى الانغلاق على نفسي، حتى أن مزاجي الترق صار يبعدني، كل يوم أكثر عنك بل عن الكل. وفي سهادي كما في رقادي، فإن الجزع يرفرف حول السرير، ومع ذلك فإنك أنت التي ترقدين بجانبي. ومع مرور الزمن، أحس كأن بذرة جنون تنبت في فكري. لم أعد أعرف من أنا، ولا ما أرغب فيه. إن الحياة الحالية، في هذه الحجرة، لم تعد تناسبني. وحياتي السابقة؟ لم أعد أذكرها، وتلك التي ستأتي أفضّل أن لا أفكر فيها كثيرا. أعتقد أنه عليّ أن أذهب للبحث في مكان آخر، ولكن بالتأكيد ليس في هذه النقطة ب114... ربما في نقطة أخرى. عليّ أن أخرج من هذه المتاهة الحلمية، عليّ أن أغادر هذه اليوميات المبرقشة والمائعة، أريد أن أنزع من رأسي هذا الإحساس المؤلم بالشيء المشاهد سابقا وبعدم الرضى الأبدي هذا. صديقتي العزيزة، أنا مضطر لأن أقول لك بأن كل يوم يمر يزيدني اقتناعا بفكرة الرحيل من جديد. لا أريد أبدا مواصلة الكذب على نفسي، وبصورة أخص يجب أن لا أخدعك.

– أنت تبكين؟

– كلا...

– لا تخفي عنّي دموعك، أريد أن أراها، أن ألمسها وأن أمزجها بدموعي.

أنظر إليها فإذا بها تبكي أيضا.

– لن أتركك تنام إلى الفجر.

قالت ذلك، وقامت وهي تنظر إليّ مطولا بحنان، نزعت ثوبها وجاءت تتمدد على الفراش، بجانبي. كنت أرغب في أن أقطع لها وعدا بالرجوع ولكني لم أستطع. بين الكذبة والالتزام، اخترت الفرار وصمته الثقيل الذي لا يفتأ يبعدنا الواحد عن الآخر.

– إن بعض الأسفار تقودنا نحو قدرنا أكثر مما تقودنا إلى المكان المقصود. يجب علي أن أبدأ هذه الرحلة، أعلم أنها ستكون طويلة وجوهرية. إن اختيار الرحيل اتخذته وحدي، ولكن مهما كانت القرارات التي نتخذها للشروع في أي شيء، فليس ذلك إلا بداية لبعض هذا الشيء. إن المسار نحو غايتي يظل دائما مجهولا.

ويتكثف الصمت مع قدوم الليل. لم أعد أراها تقريبا، ومع ذلك فهي هنا بجانبي.

التعرّجات

إن الطريق التي تصعد وتنزل طريق واحدة وهي نفس الطريق.

هيرقليت

- العشاق، بصراحة...

الصدور مشغولة دائما بالخفقان للآخر والبطون الخاوية تنتظر الآخر... إنهم العشاق... بصراحة؛ إنهم شديدو التكافل والتعارض في آن واحد، ولكنهم يتكاملون بدقة! مثل الحياة والموت، مثل الكراهية والحب! وحده تناقضهم بين الشكل القضيبي والشكل المقعر يمكن أن يجمعهم في غرابة الحياة حيث يبحث الملآن عن الفارغ والفارغ يمتص الملآن. فكل واحد منهما، الفارغ والملآن، يجهل أنه يجهل الآخر فقط ليظلا دائما عاشقين. إن العشاق يعيشون الحاضر في تنافس هيجان مشاعرهم. أما المستقبل، فإنهم يتخيلونه من خلال نظرتهم ولكن قلوبهم هي التي ترتحل مسافرة، حيدة على الدوام، يرافقها حلم مضاء للآخر، أو لآخر. والصدفة هي التي تهتم بكل شيء وتملأ وجودهم المنتظم بالتناوب: ففي يوم، تُصفق الأبواب في كل حين، وتنوب صرخاتهم عن ضحكاتهم؛ وفي ليلة، يبتهج الفراش بضماتهم، وتزدهي الشراشف بجوهرهم، وتحل اللذة محل البكاء.

إن الصدور مشغولة بالخفقان للآخر والبطون الخاوية تنتظر الآخر... إن العشاق بصراحة... جشعون. إن التعظيم المستفيض لمشاعرهم ينسي الزمن، هذا الزمن نفسه الذي يذكي شهوتهم. وعندما ينسى واحد الآخر، ينسى الثاني كل شيء. إن حميميتهم عابرة بدون توقف، تنتقل من زهرة إلى زهرة ثم تعود دائما تبحث عن ملجأ عند الآخر... أو عند آخر بمصادفة زمن صغير، ينظم السهو الأبدي للعشاق.

فذات يوم تبرز الذكريات من قبرها وتأتي لتلاحق حزنهم أو لتضحك قلبهم. وذات ليلة تجلدهم البرودة ويستعيد الشك مكانه. وتظل كلماتهم شحيحة، محصورة، مضمومة بين شفاههم، وبالنظر يقيمون جدرانا من الصمت، يوقعون بأعضائهم التناسلية مواثيق سلم ويراهنون على عجلة الحظ. إن العشاق حقا... مراهنون.

إن الصدور مشغولة بالخفقان للآخر والبطون الخاوية في انتظار الآخر... إن العشاق بصراحة... طرشان. تهدهد آذانهم سمفونيات حبيسة اللسان تعزفها مخاوفهم، ومعاناتهم، ولكن تعزفها أيضا أكاذيبهم أو ببساطة رغباتهم. عندئذ يصبح فكرهم غامضا، وتغدو عباراتهم مشوشة؛ يبحثون عن أنفسهم ولا يجدون الكلمات لسماع فوضى عشقهم أو فراقهم. - إن الفوضى العاطفية هي النظام ناقص إرادة الكلمات - كما يقول الشاعر. لقد ذهبت كلماتهم هباء، في مكان ما، في ظلمة يستمرّ فيها صفق الأبواب، لقد تلاشت أصداؤهم في بلاهة اللياقات التفاخرية والإخلاص الحتمي المفتعل والمرائي. ذهبت الكلمات في الصباحات المضاءة للوعود المنطفئة، فلا مَعلم لها سوى وشوشة العهود وحدها. أما بقية الكلمات فقد طُعنت وقُيّدت حتى تصمت وترضى في غموض الصمت أو الوشوشات.

إن الصدور مشغولة بالخفقان للآخر والبطون الخاوية في انتظار الآخر... إن العشاق بصراحة... بُكم. لذا فكل ما يجيدون قوله لبعضهم البعض لا يصير إلا هراء عقيما صبيانيا. إنهم يتظاهرون بأنهم يتكلمون ولكنهم لا يسمعون حتى أنفسهم. لهذا تطير شفاههم المتقلبة لتجمع كلمات واعدة في حرارة حمّاما؛ وتقتلع استعارات كاذبة وعمياء من حقول الحقيقة؛ إن كلماتهم تكذب عليهم، تسكرهم وهم يشربون نخبها. بل إنهم يسكرون بخلّها. وهذا أمر سهل إذ يكفيهم غلق حواسهم

لُيفقدوا انفعالاتهم توازنها ويتركوها متحلّلة فوضوية، أو شبه حرّة؛ أرجلها في الهواء، أعينها زائغة، شفاهها مربوطة ومناخرها موسّعة، ولينتهوا باستنشاق العطور التي أوجدوها لأنفسهم دون تحريك لسان أو تحديق نظر! إنهم يتخيلون!

إن الصدور مشغولة بالخفقان للآخر والبطون الخاوية في انتظار الآخر... إن العشاق بصراحة قصيرو النظر. فهذه العيون التي يرفضون فتحها خوفا من التحسر على النور الذي يترصّدهم في الخارج، والذي كان قد يلتهم بؤبؤها وشبكيتها وينير في النهاية أدمغتهم. هذه العيون التي لن يفتحوها حتى أمامهم. إنهم يدركون بأن الرياء يستطيع أن يجعل المرايا تكذب والمرايا بدورها تدرك أنها تكذب على المرايا الأخرى. إذن كيف يمكن أن تصدّق نظرة الآخر، نظرته، نظرتك، نظرتي أو نظرة المرآة؟ وهكذا في انتفاضة مفاجئة، تصرخ: "لماذا لا تقول أو نكتب أو نندد بهذه الخديعة وأخيرا نظهر عراة في الحقيقة؟" حسنا، لا! إنهم يفضلون أن يصمتوا عما يخصّهم وأن يتكلموا عن الآخرين، براحة، لأنه من الأيسر أن تتكلم عن حقيقة ما من أن تكون حقيقيا!

إن الصدور مشغولة بالخفقان للآخر والبطون الخاوية في انتظار الآخر... إن العشاق بصراحة... كذابون. بعد كل ذلك، فهم ليسوا سوى أنفس بسيطة تحاول التفكير دون مجازفة ودون الإخلال بالاتفاقات والاعتقادات والوعود والأحلام... والحقيقة، هذه الحقيقة الموجودة في مكان آخر مثلما يوجد في مكان آخر أصل السرابات والصباحات القطبية الشمالية. هذا إذا سلّمنا بالاعتقاد أن ارتداد الحواس أمر حقيقي. كلاّ! متى يعلمون أن العيون إنما جُعلت لتكون ملتفتة إلى داخل الذات؟ أبدا: ليبدؤوا بحب أنفسهم قبل الزحف على قلب الآخر، وإذا لم يفهموا ذلك فلينظروا على الأقل إلى طرف أنفهم ، وليتركوا الآخر يعيش كما

يحلو له. يجب أن يتم التحول بطريقة عكسية، هذا بالتأكيد السبيل الوحيد للعدل في ذلك حتى تتحد خلال لحظة، لحظة صغيرة فقط ، هذه الصدور المشغولة بالخفقان للآخر وهذه البطون الخاوية في انتظار الآخر أو آخر... تتحد في كمال العشق التكافلي، حتى ولو لم يكن ذلك إلا لضمة قصيرة. وهنا... هنا، إنه لمن السذاجة والروعة حقا أن نكون عشاقا.

فوق شارع الشيطان سابقا، هناك سحب حزينة تموّه صبحا آخر، كما حُرّف حلم هذه الليلة الاستثنائية التي لم أحفظ منها غير هذا النثر المعدود الذي طرق نومي. بعد تسعة أشهر من الشك والحيرة، غادرت في النهاية هذا الحي، هذا الممر، هذه الدار وهذه الحجيرة: النقطة ب114 وخاصة المرأة التي كانت تعتقد أني عدت من أجلها. لقد أصبحت الغرفة البيضوية ضيقة جدا بالنسبة لي ولها. وكان الوقت قد حان للخروج من حياتها، لا أجد لنفسي الحق في أن أفسدها لها أكثر. وكما كنت أتصور دائما، خرجت من النافذة لأسقط كجنين مولود ميتا، اجتُث من الرحم في نفس أخير، قبل استعادة الحياة. تدحرجت على الدرجات التي تكسو تضاريس الشارع المليء بالحركة. عند أعلى الدرج الضيق، لمحت زاوية سماء رمادية. مازالت الظلمة رغم الوقت المتقدم من الصبيحة. اخترت النزول مخترقا ممرا وسط صناديق قمامة فارغة، أنا أرحل، ولكن... إلى أين؟ وجدت نفسي في الشارع، تحت مطر رمادي من القلق،وصرّة فوق كتفي تختزل فقري. أرفع رأسي فأرى، خلف نافذة الغرفة، هذه المرأة، رفيقتي عاجزة، تنظر إليّ وأنا أهرب. أعلم جيدا بأن الغشاوة على نظرتها لا تأتي من ندى الصباح. أحتّم على نفسي الابتسام لها وأوجّه إشارة من يدي لأقول لها: "تماسكي جيدا وانتظريني". لقد أخليت الأماكن دون أن أوقضها، مثل لص؟ لا. لكني لم أكن ارغب في أن أرى نفسي في عينيها المبللتين لأني لم أكن أعرف كيف أعثر على أدنى كلمة من قاموس

الفراق... آسف. إنها كلمة صعبة النطق وبالأخص جبانة في كل الظروف. وقد سبق أن تسببت لها في كثير من المتاعب. هذه الليلة، وفي ضمة أخيرة، قلت لها إنني أحبها، جاوبتني وهي تخفض عينيها "هناك كلمات لا تحمل معناها الحقيقي إلا في الفعل؛ فكلام الحب يتطلب، قبل أي شيء، الحضور بجانب الشخص المحبوب. هكذا أرى الحب." وحل صمت مكان الجواب.

"حب" هي آخر كلمة أحملها معي، وأنا أغادر شارع الشيطان سابقا، والنقطة ب114.

إلى قلبك الطيب

إن الجو رمادي هذا الصباح. ليس لدي رغبة كبيرة في الانطلاق نحو هذا الواجب الذي يدفعني لأذهب للبحث... عماذا؟ لا يمكنني تحديده... ربما نقطة ب114 أخرى؛ ليس لدي اختيار آخر غير أن أذهب. انطلقت برباطة جأش، وصرّتي ملقاة على كتفي، نحو المجهول. كنت أتمنى أن أقول على الأقل إلى اللقاء لامرأتي التي غادرتها. كانت تردد لي عند كل ضمة من ضمّاتنا: "إني أحبك، سأفتقدك."

سأفتقدها أنا أيضا. كنت وحيدا إلى جانبها. والآن وهي غير موجودة فإني سألجأ إليها.

ها أنا إذن في الخارج، كل شيء في داخلي، لاشيء فوقي. أغادر المدينة القديمة لسفر سيستمر ساعة أو دهرا. لا أبالي، المهم أن أكون في مكان آخر. لن يكون لي من مرافقين سوى ذكريات باهتة أجترها. لقد عشت نهاية كثير من الأحداث، ولكني لا أذكر ما هي. اليوم تنطلق بداية بحثي. أباشر مسيرتي بخطى رشيقة، على طريق كبير انفتح لي باللامبالاة الماكرة نفسها التي يمكن أن تكون عند ضفدع يبسط لسانه أمام حشرة صغيرة. لا يوجد أي شيء، على أقصى ما يمتد إليه بصري، يمكنه أن يشجعني على أخذ هذا الطريق المعبد. في هذه اللحظة بالضبط، قلت إنه مازال بإمكاني أن أتخلى عن هذه المغامرة التي أفرضها على نفسي وأن أعود إلى شارع الشيطان سابقا. ولكني أواصل. إن شعورا متشابكا من الأمل واليأس يدفعني لأنطلق نحو المجهول. بعد بضع

ساعات، التوت رجلاي على الزفت المشوّه الشكل جرّاء تناوب المطر وضربات الشمس عليه. وأجد نفسي مقطوع النفس، قد نال مني التعب، وأتقدم مترنّحا، متشابك اليدين للمحافظة على توازني. أشعر أني مخترَق بإحساس غريب يخترقني: إحساس الدخول إلى بعد جديد. هل انحرف فكري أم هي الطريق المصنوعة من العجين المقولب؟ كلما تقدمت أكثر، كلما انغرزت قدمي في وحل قار يمهّل تقدمي.

ها أنا أمشي. جعلت وجهتي نحو الأفق، وكل محركاتي في وضع القيادة الآلية. أما فكري فهو بعيد إلى الأمام. لقد أرسلته كدليل للبحث عن نقطة تحوم في نهاية طريقي. أتقدم للإمساك بماضيّ، هذا الماضي الذي يحجزني ولا يسمح لي بأن أعيش اللحظة الراهنة، فكيف بالقادمة. لست الوحيد الذي أخذ هذا الطريق السيار. أتقدم بصعوبة، ولا أعير اهتماما للناس الذين يحتضرون على الجنبات السفلى. ولتبرير هذه اللامبالاة، أجد حتى الاحتقار لهؤلاء الذين يمدون إليّ اليد.

قلت في نفسي وأنا أرفض فتح عينيّ، وأفكر مليا في قدري: "إنه قدرهم!"

يصيح بي شيخ واقف على حافة الطريق السريع: - إلى قلبك الطيب، وأمام انعدام إحساسي، التفتَ نحو سائقي السيارات.

- إلى قلبك الطيب، وهو يمن مادا يده للسيارات. كان السائقون مسرعين جدا فلا يمكنهم التوقف، وكانوا يجيبون."ارجع إلى مستشفى المجانين!"

أما أنا فقلت في نفسي وأنا أترنح ولكني أجدّ في إسراع الخطى:" ربما يكون أولاده قد تخلوا عنه على قارعة الطريق عند مخرج الطريق السريع. وقد أصبح مجاله الحيوي أكثر ثقلا وأكثر إحراجا بالتأكيد".

– إلى قلبك الطيب! يشتكي جريح يحتضر، ممددا في لجة من الدم بعدما صدمته سيارة سريعة جدا لا يمكنها التوقف في الوقت المناسب. أما العربات الأخرى وسائقوها فيمرون مصفّرين. وأما أنا فلم أتمهل وإن قليلا.
وقلت له على سبيل التهدئة: توجد دائما حوادث على الطريق السريع.

– إلى قلبك الطيب! يبكي طفل شاحب جدا، لفظه المجتمع على الطرقات معرّضا للخطر وحيدا؛ أهمله العالم.

إن السائقين متوترون جدا بسبب يوم مهدور سلفا فلا يفكروا في التوقف.

أما أنا فأغض الطرف عندما أمر بجانبه. وأعجل الخطو، وأنا أهرع لتفادي مناداتي مرة أخرى.

. – إلى قلبك الطيب! يستجدي رجل آخر منطفئ. يمكن أن نرى الجوع في عينيه الصغيرتين. وهو هزيل، في ثياب رثة، متسول يكسوه البؤس.

وخلف مقاود السيارات الجميلة التي تجري بسرعة فائقة لا يمكن معها ملاحظة الهزيل المسكين، كان الناس يضاعفون السرعة نحو موائد فاخرة، أما أنا فأقطع المنطقة وأنا أعرج. ليس لي ما أقتسمه!

– إلى قلبك الطيب! يصرخ مراهق وهو يجأر غضبا "أيتها الحياة القبيـــحة!" كان يحمل عصا غليظة في يد وبالأخرى تحترق سيجارة حشيشة. كانت حياته محروقة قبل أن يبدأها.

على الطريق السريع تسرع السيارات أكثر فأكثر، في تنافس متلاحق، كل سائق يريد الوصول قبل الآخر. أما أنا فأقوم باستدارة حول الجرة... وأنا أصّفر.

– إلى قلبك الطيب! تنبح امرأة شابة. وهي تروي أنه تم إخراجها من بيتها لكونها كانت مستعصية على الترويض. وهي تتمنى أن تنتهي من حياة الكلاب هذه، وتفضل أن تدهس على أن تعيش تابعة.

يضغط سائقو السيارات السريعون، المهملون وغير المهتمين بهذا النوع، يضغطون على الدواسات وهم يقهقهون. أردت إمساكها لمنعها من العبور. وصلت متأخرا جدا! عندئذ واصلت سيري وأنا أعرج بمهارة. لم أسمعها حتى وهي تصرخ.

– إلى قلبك الطيب! تتألم الكلبة، في صمت وكرامة. لقد طردها مروّضها وركنها على هامش الحياة لرفضها النباح. ولمعاقبتها بشكل أفضل، عمد إلى مصادرة جرائها.

تنساب السيارات بسرعة فائقة بحيث لا يمكنها التوقف أمام هذا الكليب. نبحت وأنا ألتقي هذا الحيوان.– "لا نوقف الناس بسبب ترّهة" مدت إليّ كتاب طلاسم مزخرف العنوان مشبوها، هو "قانون الأسرة". فطأطأت رأسي وواصلت السير بخجل.

– إلى قلبك الطيب! تتوسل فتاة شابة خائفة. كانت جميلة وخاضعة. وهي مكرهة، بقدر قاس، على ممارسة البغاء. يقطع السائقون سباقهم، محدثين ازدحاما على الطريق السريع، لدعوة الصغيرة للركوب. أنظر إليها. إنها تبكي.

– "إلى قلبك الطيب!" أغمض عينيّ لأتقدم بشكل أفضل. أعد نفسي بالتوقف عند التوسل الموالي... ولكن ليس الآن.

على آثار ظلّي

لقد أرهقني المسير الطويل على طريق من لا قلب لهم. وعرفت الآن أن الحقد إنما يولد من اللامبالات. لم أجد بعد، في مخرج الطريق، ما جئت أبحث عنه. كانت الاستفهامات والشكوك، إلى أبعد نقطة تصل إليها ذكرياتي، هي المعالم الوحيدة في حياتي. لم أكن أتصور أنه كان يمكن أن يكون هناك أناس مشوّهون بحقيقة الوجود وملفوظون على الهامش السفلي. إن اللامبالاة التي أبديتها نحوهم تسبب لي حسرات. كان عليّ أن أتوقّف، ولكن لم يكن لدي ما أقترحه عليهم. ينحسر النهار مرهقا برتابته، والمطر لا يزال يتساقط. وبعيدا يرتسم ضباب خفيف. هذا السحاب الأرضي، تمزقه بوابة ضخمة من خشب السنط، تنتصب أمامي. إنها مغلقة، تعلوها لوحة نحاسية مثبتة كتب عليها "باب الصحراء" وعند قراءتها يزداد قلبي انقباضا. كانت البروق تعبر رأسي من جهة إلى أخرى. وتضيء هذه الومضات أفكاري بقوة: هذا كوخ معزول، تائه وسط صحراء؛ وتلك خرق بشرية ممدة أرضا وهي تحتضر؛ وهؤلاء سجانون ماكرون وأسراهم ساهمون؛ وهذه نارجيلات محشوة بالقنب الهندي؛ وروائح قوية جدا تشك في حقيقتها؛ و فكري الأشعث المتمدد وسط هذا المستودع من الصور. إن المشاهد التي تمر أمامي نابعة من داخلي. والشخوص والأماكن يتشوه شكلها كلما حاولت تثبيتها في ذكرياتي. ولكني أعلم أنها موجودة هناك في لجج ذاكرتي، إنها تسبح في رأسي مثل صور تضاريسية. أغمض عينيّ كي لا أرى أكثر، وكي

أمنع بذلك هذه الصور الغريبة من الخروج من دماغي. أدفع باب خشب السنط الثقيل، وأنا أقول: "ليكن ما يمكن أن يكون!" تخطيت العتبة فتعثرت وسقطت، واصطدم رأسي بالأرض الرملية.

خلف هذا الباب، تستمر رحلتي: هذه شمس غاضبة قد احتلت السماوات.

لقد طردت كل السحب، وهي تنظر إلى العرق[12] بغضب ماحية حتى الظلال ومجففة كل الآثار. وظلّي، أمر غريب، لم يعد لي ظل. لقد هجرني. لا أدري إلى أين. لا أذكر أبدا منذ متى ضيّعت ظلي. إن أثار خطواتي تّمحى مباشرة بعد مرور قدميّ. أنا تائه، ولا أجد من يخبرني من أين أتيت. تملكني الخوف. دون ظل ودون آثار، أحاول أن أحدد وجهتي في هذه الصحراء الساخرة. إنه أمر صعب. أثناء العبور، كان يرافقني عُقابان. إنهما يحلقان فوق رأسي. هل ينتظران اللحظة المناسبة ليحتفلا؟ نقلتني نظرتي إلى هذا الديكور الدانتي[13] الذي قولبته الريح العريقة، حيث الصخور هي الشاهد الوحيد، ولكنها مع ذلك تظل صماء بلا رحمة. أما الريح فلن أستطيع الإمساك به، ولا بمسامها وأناتها. إن خوفي يزداد. وتنتصب أمامي هندسة مصنوعة من الصخور والرمل، في هذه الشساعة الصحراوية حيث لا منفذ ولا باب واحد مفتوح على العالم غير هذه السماء الحارقة والمصبوغة بالرصاص من طرف شمس متوهجة. في المساء تشتعل قبة السماء بألوان ملتهبة قبل أن تنطفئ في ظلمة كاملة، عندما ينسحب الكوكب الملك ليموت قدر ليلة. ما العمل للعثور في هذا الصخب الهادئ، على ظل منقذ، يوفر لي الدليل القاطع على أني

---

[12] - *العرق: لفظ يطلق في اللهجة الجزائرية على سلسلة الكثبان الرملية (المترجم).*

[13] - *الدانتي: نسبة إلى دانتي صاحب الكوميديا الإلهية (المترجم).*

أحيا، على أني موجود؟ فبدون ذلك، لن يكون الإنسان سوى ظل. على هذه الأرض المصنوعة من الأغبرة الهاربة والتضاريس المتحجّرة، أتقدم وحيدا وتائها، هناك حيث تنجب الريح الكثبان التي تخفي، في بطونها ذات التقاطيع الشهوانية، ذكريات البقاع القاحلة. لقد تمت الولادة على طول الزمن، واحتمالا ضمن ألم الناس الذين نقشوا، ورسموا شهاداتهم على جوانب الصخور، في كهوف دفنت الرمال نصفها. من هم هؤلاء الذين نقشوا الصور؟ فجأة غمرتني رغبة في معرفة تاريخهم.فهو حتما سيعلّمني تاريخي.

إني أريد أن أفك ألغازهم ، فهي بالتأكيد ستفسر لغزي، وهكذا ربما أستريح من معاناتي. خلف باب الصحراء، انفتح لي مسلك. بادرت بالبحث في أحشاء كثيب، ويداي تحترقان بملامسة حبات الرمل المشتعلة بسبب الشمس الحارقة. تفتش أصابعي بعصبية، طيلة ساعات، خلال رمل دقيق هارب. وترفض الأرض المنتهكة أن تبوح لي بسرها! أتوقف مغتاظا ومتعبا لأستعيد نَفسي. وأغتنم الفرصة لأمسح جبيني المتلألئ عرقا. جلبت انتباهي حبة رمل دقيقة، ملتصقة على كف يدي، بسطيحاتها المتعددة اللامعة. أغضّن عينيّ أمام مراياها المجهرية التي تعكس مشاهد سرعان ما أبادر إلى تفكيك رموزها. إن ما أراه يطمئنني و يحيّرني في آن واحد: لقد وقعت معجزة الماء في نفس هذه الأماكن. وقد مضى على ذلك بضع ثوان أو آلاف السنين. كم هي فارغة،هذه الصحراء، في نظرنا؛ ولكن كم هي ملأى بالنسبة لقلوبنا. إنها صحراء مليئة بالكشوفات! كانت النباتات الوفيرة ترصّع هذه الامتدادات الشاسعة المأهولة بالحيوانات المحبة للبشر، والأناس الذين يحترمون للدواب. وأرى أيضا، على الوجيهات الصقيلة لحبة الرمل، بواسل كبارا كانوا قد جاؤوا قبلي بكثير إلى هذا المكان، بحثا عن الحقيقة. لم يكن منفاهم عقابا بل بالأحرى ابتلاء ربّانيا: امتحانا

إجباريا للمرور، وصولا إلى المرتبة العليا من الحكمة، امتحانا كتب عليهم منذ غابر الأزمان. وقد فقد أغلبهم الحياة فيه، ولكنهم وجدوا الطريق وخلّصوا أشباههم من خطاياهم. هل يجب علينا، مثلهم تماما، أن نبدأ رحلة عبورنا للصحراء حتى ندرك أخيرا معنى حياتنا، و حتى نتقبل بالأخص الاختبارات الصعبة بعزيمة لا خور فيها، إنقاذا لشخصياتنا الهزيلة، ولو جازفنا بالتبشير في الصحراء؟

قديما، كان هذا المكان جنة لم نُطرد منها أبدا. جنة عدن هجرها الأرباب الذين تعبوا من صممنا وعمانا، فتركونا لأنفسنا وحيدين، نصارع لعناتهم.

"هل نحن الذين خلقنا الصحارى؟ بالتأكيد!"

أنهض مذهولا بما اكتشفته على جنبات هذه الحبة من الرمل التي صقلتها الريح و لّمعتها الشمس. وأستأنف طريقي بصعوبة. وكلما تقدمت في العرق، كلما بدا الأفق وكأنه يبتعد. وفوق رأسي،كان الكاسران ينتظران اللحظة المناسبة للاحتفال. صرخت فيهما أن اتركاني أرتاح، وطردتهما برمي حصوات صغيرة نحوهما. ولكنهما كانا قد حلقا عاليا جدا في السماء قبل أن تبلغهما حصواتي وشتائمي. أمضي في ألم، وقد أنهكني الجهد وأحرقتني الشمس، متقدما في هذا العالم الذي تئن فيه الريح عندما تهب .

بعد ذلك بلحظات، لحق بي العقابان المجنّحان. هذه المرة، لم يكونا طائرين ولكنهما يمشيان متبخترين بجانبي، وينظران إلّي بزاوية العين كأنهما يقيّمان مدى تعبي. كان العرق البارد يسيل على طول ظهري، وأنا على حافة الانهيار. يهبط الليل بعنف في حريق من الألوان. ويثقل الصمت وتمدّئ طراوة، غير منتظرة، ألسنة اللهب التي تأكل جسدي وأفكاري. من بعيد، يهدهد النشيد القديم للريح التي تنفذ في الصخور جسدي المتألم

وفكري المختل بسبب المعاناة وبسبب كثير من التساؤلات... وقبل أن أغرق في النوم، ألقي نظرة دائرية: هاك! لقد اختفى العقابان. وفي الصباحات، تذكرني أشعة الشمس الأولى، بحكمة بالغة، بالمكان الذي أتواجد فيه، فأنهض. لقد حلمت هذه الليلة حلما غريبا:

كانت هناك مـــأدبة، وكنت جالسا محاطا بطائرين كاسرين، عاريي الرأس من الريش، تطبعهما ابتسامة ماكرة. وعلى المائدة الطويلة، كان يتمدد جسد رجل مبقور، تتدلى منه أحشاء وإرب من اللحم دامية. كان وجه هذا الشقي المسكين يشبه وجهي. محوت بسرعة هذا الحلم المزعج من ذاكرتي التي أتمنى أن لا تكون سجلت ذلك كإنذار. واستأنفت مسيرتي التي لا تنتهي، دون ظلي ودون آثاري. لا وجود لأي معلم، والهاجس الوحيد الذي كان يدفعني هو: العثور على طريقي وسط الصحراء. عاد رفيقا سفري المشؤومان يحلقان فوق رأسي المحترق بالأشعة الأولى لكوكب النهار الطالع. إن هذين العقابين الجميلين ينتظران بصبر لحظة احتفالهما. وعلى بعد بضعة كيلومترات من التسكع المضني والمؤلم، ألمح جمالا تنوخ على جانب كثيب من الرمل. وتجترّ أعشابا غير موجودة، عوّضها الركاز، راغية فيما بينها. إني أسمعها تتحادث عن آخر الحوليات التي تتناقلها العواصف الحارة هذه الليلة. كنت أعتقد دائما بأن سفن الصحراء هذه، إنما ولدت من الكثبان؛ لقد أتعبها انتظار القرون التي أمسكتها سجينة. فخرجت من جنبات هذه التلال الرملية لتقطع هذه الامتدادات، وتتحدى الزمن. وقبل الرحيل، أخذت معها جزءا من تاريخ هذا المكان مع أسراره. كانت هذه المجترات المتكيفة مع العدائية الصحراوية، في المناطق الجافة، تدير رؤوسها نحو الأفق؛ وهي فكرة، بدون شك، لا يمكن أن يتنبأ بها غيرها. عند اقترابي منها، نظرت إلي بعين هازئة ثم انتصبت بشموخ لتستأنف رحلتها التي لا تنتهي. وغريزيا، سرت على

آثارها، على أمل أن تقودني ربما نحو آثاري، وأن تساعدني في العثور على ظلي. إن مسارها طويل وسليم، أما مساري فهو خليط من القلق والآمال. تتقدم الجمال بخطوات ثقيلة ولكنها حازمة. إنما تتوجه نحو سراب معكوس على شاشة من غبار. أجازف، أنا أيضا، بنفسي نحو هذا الوهم الناتج عن ارتدادات ساخنة لأرى عن كثب ماذا يرتسم. إن فضولي قوي جدا، وقد قلت لنفسي: "في النقطة التي وصلت إليها، أعتقد أنه لم يبق لي شيء أخسره". عندئذ شققت هذه المرآة المميّعة لأرمي بنفسي داخل عالم خيالي، أرجو أن يكون نافعا.

غريب... إن الباب الذي قمت باجتيازه توّا هو الباب نفسه الذي دخلت منه إلى الصحراء. ووجدت نفسي على طريق معبدة عريضة في نقطة الانطلاق نفسها. تحت السماء الرمادية بالسحب، لا يزال العقابان هناك، يحومان فوق رأسي. إن هذا القدر المتنكّر في طيور نذيرة شؤم، ذات مخالب على شكل منجل، ينتظر ليولم! وأنا مرهق، خائف، ولكن... دائما عازم...

لا أعلم كم *يوما قضيت في هذه الأصقاع القاحلة*. عندما أعدت فتح عينيّ، كان الزمن والديكورات قد تغيرت؛ وتورّم كبير، بحجم قبضتي، يؤلمني وهو يزينّ جبيني. وعند نهوضي، كان الباب قد اختفى! وشعري أصبح أكثر طولا. وشعرت أنيّ أكبر سنا. إن ما شاهدته على سطيحات حبة الرمل، كان صحراء قاسية ولينة في آن معا، مكونة من نور وظلام، حارقة وقارسة، متماسكة وزائلة، خفية وكاشفة. كانت ساحرة! لقد عدت من هذه الصحراء يملأني، أنا بذرة الرجل الدقيقة، إحساس بالعظمة. في المساحات الصحراوية الشاسعة التي زرهما، تتتابع المواقع ولا تتشابه أبدا. هذه تضاريس من الصلصال والبازلت، تخدش سماء لا غيوم فيها كأنها تريد جرحها وإبكاءها على هذا المحيط من الرمل

الدقيق؛ وهذه صخور غريبة تقارب بأشكالها مداخن أو تماثيل أبي الهول، تطوّق أو تستقر فوق كثبان شهوانية الأشكال، وتلك مغارات حفرها الزمن تتموقع على حنبات مشاهد قمريّة. هنا، تبسط الريح نفوذها كمهندس معلّم. هو الذي ينحت الديكورات أيضا، وهو دائما يخاطب الرجل بلسان الكثبان. إن إقامتي بهذه الصحراء علّمتني، على الأقل، شيئا: أنه توجد لغة تتجاوز حدود الكلمات. فالصمت، وعصف الريح، وخفقان القلب أكثر إفصاحا من كل الكتابات، وكل الخطب؛ وإن تأمّل حبة رمل بسيطة يكشف كل أسرار الخليقة، ويسمح باكتشاف عجائب العوالم. أنا مقتنع الآن بأنه لا دخل للصحراء في هلاك البشر. إن هؤلاء هم الذين هلكوا فيها عندما استهانوا بمشاهدها وسماعها.

كم من أناس قطعوا هذه الامتدادات العقيمة قبلي؟ وكم سيقطعونها بعدي؟ هل نخرج سالمين من هذه الرحلة؟ ماذا سنجد كسبب لنرضى بهذا التخلي الربّاني، و ننسبه للقدر إن رفضنا عبورها؟ هل نحن ذرائع لتبرير قساوة هذه الأصقاع الخالية من الحياة الظاهرة والتي، مع ذلك، تُطمئن المرتحلين البحّاثة الذين يجوبونها؟ هل توجد حقا صحراء للبشر وصحراء للأزمنة؟ هل أخطأنا الطريق في رحلتنا؟

هناك الكثير من الأسئلة كان عليّ أن أجيب عنها. والصحراء تحجبها في أسرارها. إني أتذكر تلك الليلة، عندما حدثتني ريح السموم عن موطنها. هل كانت الريح فعلا هي ما سمعت أو هل كنت فحسب أحلم؟ إن الصوت الدافئ مازال يطنّ في رأسي، مجيبا عن أسئلتي الساذجة:

"أرأيت أيها الإنسان الطيب، إن سكان هذه الأماكن يقولون أن الصحارى إنما وجدت ليتمكن البشر من العثور على أرواحهم في شساعتها. فبقياس أنفسهم مع عظمتها، سيكتشفون تفاهتهم. وسيسكن الأكثر قابلية للتأثر منهم تواضع كبير، وسيمكنهم تقريبا أن يفهموها.

أما الآخرون فلن يحفظوا من الصحارى غير قحالتها." هذا ما همسه الصوت الدافئ.

سألت: "قولي لي أيتها الريح، من يحتاج إلى هذا الفضاء العقيم؟ البشر؟ ولكن ماذا تُراهم يفعلون وسط هذه الكآبة؟"

"أيها الرجل الطيب! أرأيت هذه الامتدادات الشاسعة؟ إنها لا تحتاج أي شخص، ومع ذلك فهي تعلّم البشر عظمة الطبيعة. هذه المناطق الجافة جدا، التي يطبعها فقر في النباتات، وندرة في السكان، هي على النقيض ذات ثروة توازي هذا الصمت المطبق. إن كل متسكع يحمل في أعماق نفسه صحراء. وإذا أراد أن يعرف نفسه أفضل، فيكفيه أن يفتح قلبه ليتأمل نفسه بطريقة أخرى. إن هذه الأقاليم التي يرتحل فيها الناس، لكي لا يزعجوا أحدا، تدعو للتأمل والتفكّر. إن الصحراء ليست في حاجة لوجود أي بشر، فهي تظل رائعة في تجرّدها. تحرق الشمس رملها الدقيق وصخورها الوعرة دون أن تتأوّه. أما أنا، الريح، فإني أداعب جباهها الرملية دون أن آخذها منها.

ها! أرأيت كم هي عظيمة، هذه الصحراء! إنها لا تعرف نظيرالها. ففي الفراغ الثقيل لهذه الامتدادات التي تعتقد أنك تراها، هناك حضور ربّاني يملأ كل فضاء موجود بين حبات الرمل التي تشكله. فكل حجر وكل جزء صغير تسكنه عظمة رائعة تتناقض مع جمود هذه الامتدادات. هنا، الركاز هو كل شيء! وبالصدفة، فإن وجود واحة يأتي لتكذيب الحجارة والرمل؛ وأحيانا يبرّر ظهور سراب الطابع الغريب والساحر لهذا المحيط ذي المظهر العدواني. ولكن كم هو وديع وفـــاتن" على حد قـــول الســـموم.

"إذا لم تكن في حاجة إلينا، لماذا تحبس أفكارنا؟ لماذا تجرنا إلى فراغها؟ ما هي رسالتها الحقيقية للناس، عدا تلك التي تعلّمنا عظمتها."

"أيا هذا! هل رأيت كيف أن هذا الفراغ مملوء بالاعتدال؟ إن للصحراء حكمة أكثر عمقا وأكثر اتساعا من حكمة كل البشر. إنها تبرهن على عقل راجح و ثابت ومتيقظ في سلوكاته وتصرفاته. لا مكان للحيلة ولما لا طائل منه في هذه النواحي من الرمل والحصى. ولا يقاوم قساوتها إلا المهم والنافع. وفي هذا الفراغ، لا وجود لجماد، بل هي الحياة في حالتها الخام، كامنة وصلبة. وعندما تجعلنا نلمح سرابات، فهي إنما تفعل ذاك لتبرز لنا معنى الخيالي عندها، وهكذا تغرينا بملء الفراغ بالخرافة. إن هذه الحياة تتغذى من ذاتها دون انتظار أية نجدة، وتعطي الانطباع بحياة في حالة احتضار. ومع ذلك فالصحراء تعيش باستمرار وإلى الأبد بعاداتها الثابتة وبنفس الجهود المبذولة. إن خفقان قلبها ينظم سيمفونية الرياح التي تهب أحيانا لتنشد روعتها. و إن هذه الصحراء تحبّ الرجال الذين يُعجبون بقوتها وحيويتها ووقارها. إنها صحراء الزمن. ولكن هناك امتدادات أخرى مقفرة. تلك التي صنعتموها أنتم البشر: هذه الفضاءات الشرهة التي تختطف العقول لتحبسها في سجن الجهل. هذه المحيطات الرملية، حيث يمتطي الناس سفنا شراعية ويختارون المواقف تبعا للون أو قناعة أو فكرة، ليبحروا نحوا أصقاع تنوب فيها زينة الضلال عن زينة العقل، ويحل فيها القبيح محل الجميل، وتتحول فيها التطورات إلى ممنوعات. هذه الصحارى، أطلب منك أن تتفاداها. لا تغترّ بديكوراتها المغرية فهي ليست سوى خرافة لأن وراء هذه التزيينات الخادعة تختفي الكآبة. لا تقترب منها أبدا إنها صحارى البشر. وإذا تحتّم عليك أن تختار، ففضّل الصحارى ذات الفراغ الملآن على تلك المملوءة بالفراغ. ها! هل فهمت الآن كم أن الصحراء كبيرة وجميلة، أيها الرجل الطيب الصغير؟"

"أعتقد أني بدأت أفهم الصحراء. إنها لا تشبه تلك التي ركّبتها في رأسي. فشكرا أيتها الريح." كان ذلك جوابي.

"أعد غلق الباب وراءك، أيها الرجل الطيب الصغير، فلا يدخل هنا كل من أراد."

باستئناف طريقي، أمسكني ظل هارب. سرت إلى جانبه، ولكنه كان يبتعد أو يختفي كلما اقتربت منه. وخلفي، وبخطى ذئب، كانت آثار خطواتي تتبعني. كانت ترسم البصمات على القير المبلل بالمطر، بالضبط قدر زمن خطوة أخرى، ثمّ تتبخّر. ومع ذلك فأنا مغتبط، فأنا الآن أتبع آثار ظلي.

بعدما أعدت غلق باب الصحراء، همس لي صوت من أعماقي بأني سأعود إلى ذلك المكان، ولو كان ذلك آخر أيامي. "هاك، هناك ما يشبه هبوب نسمة دافئة." ألا تكون هذه هي الريح، تواصل محادثتي؟ أما الآن فعليّ أن أستأنف طريقي: أن أرى الأشياء لأرى نفسي، وأن أفهم الناس لأفهم نفسي.

العوّامة

أغادر الطريق الكبيرة وفكري منغرز في رمال زيارتي الأخيرة، لأسير في مسالك مرملة تزيّنها أدغال شوكيه تقود نحو جرف. البحر غائب، منذ مدة طويلة على ما يبدو. لقد انسحب مخلفا كلمات اعتذار، محفورة في صخور رسوبية متحجّرة ومبعثرة في الرمل. ألتقط بعضا منها. وقبل إدخالها جيب سروالي "الجينز" أضع قوقعة على أذني. أستطيع أن أسمع الصحراء وهي همس تاريخها في صخب الأمواج. وأتصورها منسحبة ببطء وهدوء، ودون ضجيج كبير، تاركة في فراشها الرمل والحجر. إن الوشوشات، التي أسمعها، مختنقة بسبب الهدير الصادر عن فكري. وبعيدا، خلف ستار من السحب، كانت الشمس في أعلى نقطة من مسارها. أتلكأ على شاطئ هذا البحر الهالك دون أن أعرف أي اتجاه آخذ. ثم أجلس على مواقع انحسار المياه العريقة، وأنا مرهق من إقامتي فيما وراء باب الصحراء. الشاطئ مبلل وأنا أرتعد، والبرد يأتيني حتى من الداخل. وأظل حالما، راميا بالحصى أمواج الماضي. وبعيدا، يتشوّش الأفق في ضباب كثيف إلى درجة الاختلاط بين سماء ورمل هذا الساحل الشاسع. ويُلقي ارتداد موج أخير، مثل حشرجة أخيرة للبحر، عند رجليّ، زجاجة من البلّور. ألتقطها فأجد في داخلها لفافة ورق. أنزع الغطاء بارتعاش، وأقلب الزجاجة الشفافة لأخرج لفافة ورق مصفر بفعل الزمن، كتب عليها : *منذ عشرة أو مائة يوم، والرياح العاصفة لا*

تكف عن إثارة بحر هائج بقوة. والعوّامة الهشة تهتز حسب رغبة الأمواج ذات الأصوات المزمجرة. كان القارب المتزعزع والمهتز بفعل العاصفة، يشبه غصنا صغيرا حمله سيل جارف. ولكي لا نسقط من على القارب، ترابطنا مع بعضنا بعضا، مثل عهد مختوم بيننا. هذه الروابط جعلتنا أكثر شجاعة؛ ومنحنا تماس أجسادنا المحترقة بالشمس، والمرضرضة بالتقلبات الجوية، انطباعا بالشجاعة مع الأمل في الوصول إلى مرفأ نجاة: أن نرسو على شواطئ بلدان أخرى أكثر حفاوة وأكثر غنى من الذي غادرناه، فهو مكان ملعون، كان يشوينا على نار كبيرة، بلدٌ لم يعد أبدا بإمكاننا أن نعيش فيه، ولا حتى أن نتمنى فيه مستقبلا محترما للأجيال القادمة. لقد أصيبت الجهة التي جئنا منها، فجأة، بعقم محزن؛ لم يكن هناك مجال لنهار جميل أبدا. فالشمس كانت باهتة وعمياء خلف سحب ساكنة، كانت تبدو على شكل طبقات كثيفة ومتناضدة. أما لون القبة السماوية فهو يعكس الملل. كان المطر شحيح الهطول، والسماء تبكي اكفهرارها ببطء. كان جوا ثقيلا، يمسح دموعه قبل الأوان، و قبل أن تبلغ أرضا غير مضيافة، بأي شكل. أما الوقت، فقد كان يرتجف خوفا من الأيام القادمة الغامضة؛ لم تكن هناك نسمة أبدا في هذا البلد. لقد انتهى الجمود إلى تثبيت العقول والأجسام ليجعلها بليدة. كان سجانونا قد أغلقوا أبواب الحرية، ورموا بالمفاتيح في الأمواج المجنونة. كان مساء حزينا يوم قررنا الرحيل، معا جميعا، والهروب من هذا المكان إلى أبعد ما يمكن، لاسترجاع المفتاح الضائع في زبد العذاب. كان البحر يمد إلينا أذرعه العاصفة، وهي تمنح مخرجا مؤلما لقدرنا المحكوم عليه بالمؤبد، في هذا المطهر المفتوح. كان هذا الهروب هو الحل الوحيد الذي بقي لنا قبل الموت النهائي. عندئذ، بدأنا بسرعة ودون كلل، بناء قاعدة صغيرة مسطحة عائمة بالخشب الذي قطعناه من الأشجار التي كنا قد غرسناها،

منذ زمن طويل جدا، حول حيواتنا لنقتات من حلاوتها ونتفيأ ظلها. لكن الثمار لم تكن تنبت أبدا على هذه الأرض البور، كما الآمال تماما. وإذا قدّر لها أن توجد: فقد كان ذلك بطعم مرّ تمنحه لبعضها بعضا.

إنه لمن أجل ذلك أيضا، كنا جميعا قد رحلنا، ليلا و خفية، على هذه العوامة البائسة، نتحدى الأمواج الهادرة ونجر فيها أمل هروبنا؛ لنبلغ أراض أخرى، ونبدأ حياة أكثر جاذبية من تلك التي عرفناها إلى حد الآن. وفي عرض البحر، كان الماء يبدو، أثناء العاصفة، أكثر عمقا والسماء أشد انخفاضا. و كانت آفاقنا خائفة، ولكن كان ذلك الثمن الواجب دفعه. كان السفر لا متناهيا؛ ولتزيينه، فان آلهة البحر والسماء ضاعفت من غضبها. وإلى هذه العناصر الهائجة، أضيف أيضا المرض و الجوع والعطش والخوف من الموت قبل حتى أن نعيش. وكان هاجس عدم بلوغ أرض الخلاص يشغل كل أفكارنا.

خلال هذه الرحلة، هلك كثير من الفارين، متشبثين في جهد أخير بالأخشاب الباردة للقارب المتداعي. وقد رميت هذه الأرواح المسكينة في الأمواج، وابتلعتها سريعا أعماق المياه المجنونة التي يتعذر سبرها. ستكون اللجج قبورها، والأسماك الآكلة للبشر دافنيها. ولكننا أقسمنا بأنه لا غضبة نبتون[14] ولا المصائب التي كانت ترافقنا ستتوصل إلى تثبيط همة البحارة المجازفين الباحثين عن السعادة، الذين لم يكونوا سوانا.

قبل الصعود إلى هذه العوامة المنقذة، كنا قد أخذنا ساعة رملية لاحتساب الزمن المنصرم. وبعد عدة أيام، غدت حبات الرمل ملتصقة على جنبات الفانوس الأعلى، ربما ذعرا من العناصر الهائجة والتي لا تقبل الترويض. لم يكن باستطاعة أي أحد من الفارين أن يقول منذ كم يوم

---

[14] - نبتون: هو إله البحر (المترجم).

أو شهر و نحن ماكثون، تقرعنا عصفات الريح وأمواج البحر المزبدة. كان همّنا الوحيد أن نتمسّك وأن نقاوم أطول مدة ممكنة، لكن قوانا كانت قد بدأت تخور. كان الزاد والماء الحلو مفقودين، وكانت المعدات تنعقد، والشفاه تجفّ من جوع وعطش غريبين، وسط هذا الامتداد المائي رغم غناه، الدنيء. ربما كان البحر غاضبا لرؤيتنا ونحن نرحل؟ ففوق رؤوسنا، كانت تحلق نوارس منتوفة الريش، حدادا. كانت تطير ببطء... كنذير شؤم.

أحيانا كان البحر يهدأ؛ وكنا نحاول عندئذ اغتنام هذا الهدوء لصيد ما يمكن أن نقتات به. وحتى في هذه الحالة الاستثنائية، وفي أبعد مكان يترلق إليه بصرنا الزائغ، يظل البحر دائما شحيحا، وغالبا ما يكون صيدنا هزيلا. كنا نتغذى ، كل بدوره، من أسماك نيئة صيدت في شباك تالفة بسبب ارتداد الأمواج؛ أما الأسماك الكبيرة فكانت تنتظر بصبر، في أعماق المياه، السقوط المشؤوم أو الحشرجة الأخيرة لغريق هالك. في هذا الإعصار، كانت حياة كل منا تتوقف على موت الآخر. كان هذا الأخير يترك مكانا أكثر، ويتخلى عن زاده الضئيل للغرقى مع وقف التنفيذ. كل يوم، يصبح البقاء أكثر صعوبة. عندئذ أكرهنا أنفسنا على الحلم لنتعلق برؤى أكثر طلاوة، ومقاصد منقذة وطريفة. كنا نتخيل في الهواء المثقل بالرذاذ صورا رفيعة نستمد منها قوتنا، مما يسمح لنا بمواجهة أخطار رحلتنا التي لا تنتهي.

ذات صباح، وبعد ليلة عاصفة، شاهدنا في الأفق أرضا ضبابية؛ وبنفاذ صبر، رحنا جميعا نجذف بقوة بأيدينا الناحلة وبإيقاع جنوني حتى لا نتوقف! وعلى قدر جهودنا، كان الساحل يقترب، وكانت أعيننا المحمّرة بملح الرذاذ ترى مشهدا رماديا، تعلوه سماء من رصاص، يرتسم... وتملكنا الشك والحيرة، نحن الغرقى المساكين المتطوعين، وبعد،

وعندما اقتربنا من الضفاف... ارتسمت حقيقة حزينة: لقد حملتنا الرياح والأمواج الغاضبة والمنتقمة إلى ماضينا، إلى حاضرنا وإلى مستقبلنا المرعب! إلى نقطة انطلاقنا... عند النقطة ب114.

إن القصة التي انتهيت منْ قراءتها، جعلتني مرة أخرى أشد حزنا. إنها تذكرني بشيء ما. ولكن وككل مرة، يظل ذلك مبهما، لا أستطيع التحديق في هذه الومضات التي تشبه صرخات نجدة صادرة عن مستقبل ميت سلفا أو عن ماض لم يوجد أصلا. أتمدد على الرمل، وفي رأسي ذكريات مبهمة لصخب أمواج تموت في الغور. إنها تهدهد أفكاري. إن الصرخات الحادة للنوارس السوداء الريش تجعلني أضيّع حبل أفكاري. هل فعلا،هذه الطيور الكفّية القدم التي تعيش على ضفاف البحر هي ما أسمع؟ في الواقع، ما هي حكاية هؤلاء الهاربين على عوامة، في عزّ العاصفة؟ دائما وأبدا، أسئلة بدون أجوبة. الوقت يمرّ أو ببساطة يتظاهر بالجري على هذا الشاطئ حيث لم يعد هناك بحر. بعد ذلك أستيقظ خائبا؛ إن صخب الأمواج ورائحة الرمل وصرخات هذه الطيور المقلقة لم تساعدني في بحثي، بل على العكس، لقد أعادتني إلى النقطة الملعونة نفسها.

أنهض وأرمي الزجاجة الفارغة على الرمل. "مرة أخرى، نقطة ب114 أخرى! إن هذا المَعْلم اللعين لن يفارقني إذن أبدا!"

يا لها من بقرة!

في الأعلى، خلف الروابي، تنتظرني طريق أخرى ومدينة جديدة. ماذا ستعلمانني أيضا؟ في طريقي، ألتقي شخصا غريبا ذا هيئة قروية مع شيء مشنقي من قيافته المضحكة. أنظر إليه من تحت إلى أعلى: قدماه صغيرتان؛ رجلاه قصيرتان؛ خط إليته مشدود جيدا، حوضه طويل، كبير الحجم، ملتحم بالجذع الملفوف في أطنان من الشحم و العضلات الرخوة. الرباط العريض ملتصق برقبة ثخينة ملتصقة بالجذع والرأس؛ وعلى الوجه، يبرز أنف مفطس بقوة، وفك ممتد ومفتوح إلى حد الأذنين، و ذقن عريضة ومربعة. هذا ما يتعلق بوصف الوحش ذي القدمين. هذا الحيوان الثديي الذي تحول إلى إنسان يتبختر في مشيته، صدره إلى الأمام، ماسكا بكلتا يديه أعلى عجيزته البارز. كان يجترّ علكا وهو يُهزهز رأسه، وينظر إلي من خلال جفنيه المخفضين بثقل. إني متأكد من أني قد رأيت سابقا هذا الوجه في مكان ما. ولكني لا أدري أين. كان يرتدي معطفا ثقيلا ذا مربعات كبيرة، و سروالا حريريا مغربيا يقولب رجليه الصغيرتين؛ تطل من جيوبه حزمة وبعض قصاصات الجرائد. تقدم بتثاقل ليلتمس قطع المسافة بر فقتي إلى غاية القرية القادمة. رفضت. لا أحب الغرباء الذين لا يتحرجون خاصة إذا كانوا يشبهون وحوشا على شاكلة نصف إنسان، نصف مجتر. ببطء وبخطى صغيرة، يبتعد الغريب قليلا عن طريقي ليس

كثيرا، فقط على بعد مترين مني، يزعجني أن يكون ظلا لي. والتفت إليه لأفهمه، فابتسم متظارفا وعاد للهجوم متوسّلا إليّ:

– من فضلك، سيدي، أنا لست من هنا ولا أعرف أحدا. اتركني أواصل طريقي معك.

– وأنا أيضا. لا أعرف هذه الطريق، ثم إني لا أدري أين أذهب.

– ها حسنا! هكذا نكون اثنين، يمكن أن أكون مفيدا لك. من فضلك، اتركني أسير إلى جنبك. إن اسمي عبدول وأنت سيدي؟

– لا أدري! تنبهت الآن إلى أنه ليس لي اسم حتى الآن.

ألح عليّ هذا المتسكع لدرجة أني قبلت رفقته في النهاية. ربما لكي لا أشعر بالوحدة؛ بالتأكيد، بسبب الوعد الذي قطعته وأنا أغادر طريق المعذبين الحجري. يجب القول أن الطرق لم تعد آمنة كفاية ليلا. أما ونحن اثنان، فان قطاع الطرق الكبيرة لن يجرؤوا على التعدي عليّ وأنا برفقة هذا الحيوان الهائل. ها نحن إذن نسير جنبا إلى جنب، على هذه الطريق اللامنتهية، كصديقين قديمين في سفر. أنا مسرور لكوني لم أعد أشعر بالوحدة، وهو مسرور أكثر. لم يعد جسمه المعضّل والمشبوه يزعجني، وطاب لي أن أجده ودودا وخاصة خدوما، وأحيانا أكثر مما يجب... بعد عدة أيام وليالي من المسير، انتهيت إلى التعوّد على حضور عبدول. يوجد الآن انسجام تام بيني وبين هذا المجتر. ذات يوم، كانت الشمس متعبة جدا لدرجة أنها قرّرت أن تغرب قبل الموعد، اخترنا أن نستريح في أرض شاسعة مغطاة بعشب مخصّص لتغذية الأبقار. كان عبدول يُعد نارا لطهي عشاء المساء الهزيل. كان يطيب له أن يكون نافعا، المغفل المسكين. كنت مرهقا لدرجة أني نمت مباشرة. هذه الليلة، حلمت حلما غريبا، كان موضوعه العشب والأبقار. استيقظت مع أول الأنوار الصباحية. كنت وحيدا، لم يعد رفيقي هنا. لا بد أنه نهض مبكرا... ولكن ليفعل ماذا؟ أنظر حولي لعلّي أجده.

– آه، القذر، ابن القـ... الـ... البليد. لا، البليد هو أنا! لقد عاينت، بدهشة كبيرة، اختفاء كافة أغراضي! بحثت، وأنا أرتجف، في جيوبي. لقد أفرغها الحقير تماما. حتى المبلغ المالي الذي كانت رفيقتي قد وضعته في الجيب الداخلي لسترتي، سرقه. آه، أي غبيّ أنا! لقد احتالت علي جيدا، البقرة!

استيقظت الشمس، ورفضت أن أفعل مثلها. بقيت راقدا على العشب أفكر فيما حصل لي. إني خجول من نفسي. والدموع التي تسيل تؤلمني أكثر من الغدر الذي كنت ضحيته. هناك أجسام، مع ذلك، لا تخدع. لقد توصّل هذا اللص إلى إخفاء قساوته وطمعه خلف مظهره الحزين. وقد غدرتني سذاجتي مرة أخرى. لست أدري كيف خُدعت بهذه السهولة... وخاصة كيف استطعت أن أسير بعض الطريق مع جلد البقرة هذا! وعاد الحلم المنذر لهذه الليلة ليسقط في فكري المستيقظ الآن. كان النعاس قد أغمض عينيّ المتعبتين.

على قمة ربوة معرّضة للشمس، كانت تنتصب غابة من أشجار السنط الغليظة التي كانت أغصانها الشائكة تخفي كثيرا من الطيور الأبنوسية الريش، وكان تحتها سهل أخضر اللون، غضّ، تسقيه مياه جدول رقراق حلو. كنت أعيش هنا، وسط جماعة قروية. كانت لي داري وكنت أعرف كل أفراد هذه القرية. كنت مختبئا تحت أوراق الشجر الظليل، وكنت قد فررت من الحرارة. وهاهي أبقار تنتصب أمام ناظريّ، و ترعى الأعشاب المختلطة بالأزهار المختلفة. لم يفاجئني ذلك، لقد تعودت على رؤيتها. فمنذ وقت طويل، كان قطيع غريب من الأبقار الهزيلة قد حل ليستقر بالمراعي الخضراء. في البداية، كان كل سكان القرية ينظرون إليها بشفقة، وأحيانا حتى باللامبالاة. لقد دفعها الجوع بعيدا عن أراضيها الأصلية. كنا نرثي، بسذاجة، لهزالها عندما كانت ترعى العشب

الطري جدا في مروجنا. ومع الوقت غدت تشكل جزءا من الديكور. ولم نعد نلاحظها أبدا. وكانت هي مستمرة في الرّعي، بهدوء دون أن تهتم بنا. وعلى العموم، ما الذي كان يمكن أن يزعجها؟ بالتأكيد لسنا نحن. ولشرود ذهننا، فإننا لم ننتبه إلى أن العشب "الشديد الخضرة" كان قد بدأ ينفد.

ذات يوم، اقتربت منا واحدة من هذه المجترات الهزيلة:

– من المحتمل أنكم لاحظتم و أنه لم يبق تقريبا شيء من العشب في مراعيكم!

أجبنا معا جميعا: آ صحيح؟

– نعم، نعم! إنه لم يبق لنا أي شيء نأكله. يجب فعل أي شيء لنا، هذا ما طالبت به ممثلة البقرات الهزيلة.

أخذنا ننظر إلى بعضنا من شدة الدهشة و فرط الانزعاج من هذه الجرأة الكبيرة. وكان السؤال مطروحا: ما العمل لهذه البقرات العجاف؟

قررنا العمل على مساعدتها لأننا، في النهاية، نحن الذين كنا قد قبلناها. وفوق ذلك فهي تشكل جزءا من الديكور. صحيح إنه لم يكن فيها أي منفعة لمرعانا، و إنها لم تكن تعمل ولم تقدم أي مردود لمجتمعنا؛ وحتى حليبها، كان بالكاد يكفي عجولها. وبعد، فقد أصبحت هزيلة، هذه البقرات المسكينة!

كان واحد منا يسأل: في الواقع، متى وصلت؟

أجاب آخر: منذ مدة، بالتأكيد! على الأقل عدة مواسم.

في النهاية، كان لابد من تقرير فعل أي شيء لها. فكان حبنا للآخر هو الذي وجه قرارنا: لن نتركها بالتأكيد تهلك، هذه البقرات المسكينة الهزيلة! قررنا اقتسام غذائنا معها. كل واحد منا يأخذ بقرة على كفالته.

– هكذا، وفي الأثناء، يمكن لعشب جديد أن ينمو في الأراضي المعزوقة. وبعد ذلك، يمكن لها أن تغتنمه. – أنا أيضا أخذت واحدة، عجفاء، بالتأكيد. كانت لطيفة، بقرتي أنا، مطيعة وغير مزعجة. كنت آخذها أينما ذهبت. كنا نأكل معا، أنا وبقرتي. بل إنني قمت بمجهود الفهم والحديث بلسانها للتواصل بشكل أفضل معها، باعتبار أن العكس كان مستحيلا. يجب أن لا أنسى بأنها لم تكن سوى بقرة... ضعيفة العقل.

كنت مسرورا من بقرتي، مخفّفا من"أ.ط"[15] اليومية، وفخورا بالتطورات التي كان يبدو أنها تحققها. كانت بقرتي فضولية ... هزيلة المعارف، تريد معرفة كل شيء حول ما كنت أفعله وخاصة كيف أقوم به. لقد تعلمت، بفضلي، ببطء، ولكن تعلمت ما يكفي من الأشياء لتشكل معي فريقا. كنت سعيدا لكوني أنقذت بقرتي من موت محقق، وجعلت منها بقرة عالمة، مؤهلة للتفكير والتصرف مثل إنسان. وقد استمرت شراكتنا عدة مواسم. وذات صباح، استيقظت فوجدتني راقدا على العشب الذي كان قد نما جيدا منذ أن أخذت البقرات تأكل في قدورنا.

– كيف وصل بي الأمر إلى النوم في الخارج؟ عندما أردت الرجوع إلى بيتي، منعتني بقرتي من الدخول.

– وماذا بعد، يا عبدول؟ كان هذا اسمها. وكنت أنا من أعطاه لها. هل تفتحين لي؟

– اذهب وابحث عن مكان آخر، أما هنا، فهو بيتي، اخرج! اركب الريح. قالت ذلك وهي تخور من خلف الباب.

---

[15] – أ. ط: لمن لم تقم أو لم يقم بها أبدا... أ.ط: أعمال طيبة... وليست غالبا آمالا طيبة.

- ولكن يا عبدول، هذا أنا، ألا تتذكرينني، أنا سيّدك، أنا من فعل لك الخير.

- بلى، أعلم من أنت، غبيّ ساذج. اخرج من بيتي وإلا استدعيت الشرطة!

- حسنا، لنرى، استدعيهم. سيرون من يسكن هنا، ومن هو مالك كل هذا.

- أيها الغبيّ الساذج، لقد أعددت كل شيء منذ اليوم الأول. لقد رشوت أصدقاءك، بل قمت بتغير كل الوثائق. هنا بيتي أنا الآن!

لقد أخذت مني كل شيء، القذرة: أراضيّ، داري، أصدقائي، وفوق ذلك، غيّرت الأقفال وغيّرت حتى الاسم على صندوق رسائلي، البقرة! وكل ذلك على مرأى من أقاربي المتواطئين. شكرا، أيها الرجال. ثّم قمت بمناورة لمحاولة التملق إليها.

- هل هذا ممكن؟ أيتها البقرة الهزيلة، إنك لن ترميني في الخارج؟

- بقرة هزيلة! صحّح لسانك، أيها الصديق المسكين!

لم أكن قد لاحظت أن بقرتي اكتترت جدا منذ هذه الشهور التي قضّيناها معا.

- يا عبدول، كيف سأعيش في الخارج وماذا سآكل؟

- ارع العشب مكاني!

في الأفق، كان هناك قطيع جديد من البقرات الهزيلة يتجه نحو مروجنا التي عادت إليها خضرتها.

- على ذكر هذا الواقع، هلاّ ذهبنا لنرى كيف حال القادمات الجديدة؟ إنها بالتأكيد بحاجة إلى أي شيء. إنها تبدو هزيلة جدا، المسكينة!

هذا ما كان يقترحه بعض الأشخاص الإنسانين الباقين من مجتمعنا.

وبينما كنت أموت كمدا، كانت الأبقار تتمتع بحلاوة العشب الأخضر. وتحت الجفون الثقيلة، كانت عيونها المحمرّة تلمح الدور التي كانت باقية للاحتلال. أما أنا فقد وجدت نفسي أرعى مع الأبقار الجديدة، الهزيلة الطموح دائما، محاولا فهم كيف أمكنني الوصول إلى هذه الوضعية... يا لها من بقرة!

آه يا ربي... لو كنت قد حلمت هذا الحلم قبل ذلك بليلة! أعتقد جدا أنني كنت سأسفك دم عبدول!

إخوة الابن الوحيد

إن المال لشيء سحريّ حقا. فبالنقود تمتلئ ساحتك بالناس الذين يحبونك! وإذا حصل أن أفلست مرّة، فإن الماكرين ينفضّون كما لو أنهم يتبعون التوجه الجديد لهذا الطعم، الذي هو المال أو فقط هروبا من رائحة العفن التي تصدر عنك ها أنا الآن مفلس جدا ووحيد. لن تكون لي مستقبلا ثقة في أي شخص لأن غبيّا خدعني. إني ساذج جدا؛ أرى العالم كما أتمنى رؤيته، ولكن كل شيء مختلف تماما.

إني نادم تقريبا على كوني شرعت في هذا السفر.

في طريقي، بدت لي اللقاءات التي أقوم بها عدوانية. ولكنها مألوفة بغرابة. أعتقد أني أجد نفسي في أعدائي وأني أنتهي بالخوف من وجهي الشخصي. ينبغي عليّ ربّما أن أتوقف عن تناول هذه الأقراص ذات الطعم المزّ التي تملأ رأسي بأبخرة القنب الهندي! أحاول، بصعوبة، استئناف طريقي، مجرّبا نسيان هذا الفعل السيئ. أتقدم وحيدا،مكرها نفسي على الاستهانة باقتراحات ومبادرات إخوتي الآخرين الذين أصادفهم في طريقي."كفى، حب الآخرين! يجب أن أفكر في نفسي، فقط" قلت هذا لنفسي متذكرا مغامرة كانت قد وقعت لي منذ مدة طويلة. في ذلك الوقت، كان لدي المال، بل كثير منه. كان هذا في العهد الذي قمت فيه بعمليات مربحة مع أفضل أعدائي، الشيطان.

- تحية، ألا يكون عندك عشر دراهم، يا أخي؟

يا للعجب! لقد ناداني "أخاه" كم هو لطيف. على كل، لم يبق لي تقريبا أي درهم، ولكن سأقتسم مع أخي.

- بالتأكيد "أخي العزيز" هاهي دراهمك العشر، وشكرا على مناداتك لي "أخا" يا أخي!

وعلى بعد حوالي كيلومتر، كان ينتظرني أخ آخر مسكين، يحتمل أنه محتاج. أصل إلى مستواه.

- يا أخي! هل تدعوني للأكل؟

رائع ماذا دهاهم اليوم حتى ينادوني جميعا، "أخي".

- نعم،إن ذلك سيمنحني متعة كبيرة، أن أدعوك إلى مائدتي، يمكنك اختيار أكلك بنفسك، "يا أخي"! آه؟ ماذا؟ تريد أن يكون ذلك كل يوم، موافق، إذن فليكن كذلك، "يا أخي".

للتعجيل في ذلك، سلمت له كل تذاكري الخاصة بالمطعم. هكذا لن يضطر لانتظاري. هاك، هذا أخ آخر غير بعيد.

- تحية يا أخي! هل تُعيرني سيارتك؟

تبًا له. لم لا بين إخوة إعارة سيارة، هذا ممكن أليس كذلك؟ طيب، أنا موافق.

- لا يوجد أي مشكل! لقد قمت حالا بشرائها، إنها جديدة، على الأقل لن يكون لك أي مشكل مع صندوقي. في الواقع، تريدها لكم من الوقت؟ شهرين؟ آ حسنا؟ لا. لا، هذا يناسبني. تطلب مني النقود لتشتري البترين، خذ بطاقة قرضي. ورحلة موفقة يا أخي!

إنه ظريف الأخ، وفوق ذلك، فهو يسير بسرعة، بسرعة فائقة. في الواقع، إنه لم يقل لي إلى أين يذهب... لا يهم، سأعرف ذلك عند

عودته. ولكنه يسرع جدا. هاك، إنه يخرج الآن من المدينة. "يا هذا، رحلة موفقة! يا أخي!"

- تحية يا أخي! هل تعطيني سروالك؟

آه، الأخ المسكين، إنه بدون سروال، هذا ليس عدلا، آه، لا، ليس عدلا!

- موافق، خذ السروال، بالتأكيد لن أترك أخا لي عاريا في الشارع. إذا أردت أعطيتك واحدا جديدا؟ لا، أنت تفضل هذا الذي ألبسه. موافق، سأنزعه لك، يا أخي. القميص أيضا، إنه ضروري لك لتكملة زيّك، ولا مشكل أنزعه أيضا. رائع إني مغتبط لك، على أن يكون لنا نفس القياس. آه؟ لا يهمك! هذا أفضل. هذا حسن، يا أخي، إنك لست صعبا.

أصل إلى بيتي، وتصوروا من أرى؟ أخ جديد، إنه ينتظرني أمام الباب.

- مساء سعيد يا أخي، ماذا يمكنني أن أفعل لك؟

- تحية يا أخي! إني جئت أقضي الليل عندك.

- بكل تأكيد! إنني لن أتركك في الخارج، في هذه الليلة الباردة. ستنام عندي، ماذا؟ آه! لن تذهب غدا. كم من يوم؟ آه، أنت لا تعرف ذلك، حسنا، يمكنك أن تقيم هنا، ما طاب لك من الوقت. بين الإخوة، بيتي هو بيتك.

- النسخة الثانية من المفاتيح؟ نعم... ولماذا؟ لا، إني طرحت عليك السؤال فقط لأعرف. لا إنك لن تهان. لا من فضلك، لا ترفع يدك عليّ. كان عليّ أن لا أفعل، حقا. كان عليّ أن لا أطرح هذا السؤال. إذن أنت تطلب مني نسخة من المفاتيح. نعم، لم لا، بعد كل هذا؟ هاك، ها أنا أقدم لك سلسلة المفاتيح؛ وهكذا تفتح لي عندما أدق جرس بيتي. إن هذا سيغيّرني. آه؟ نعم، بالتأكيد، بالتأكيد. عندك حق:

يجب عليّ أن لا آتي لإزعاجك أثناء قيلولتك بل وحتى بين قيلولتين. هذا طبيعي،هذا طبيعي. ولا مشكل، سأنتظر في الباحة إلى حين استيقاظك. ماذا تقول؟ امرأتي؟ تريد أيضا أن أترك لك امرأتي؟

– لا ، هنا لن أسألك لماذا تريد امرأتي، أخاف أن أكون فظا... ثم إن ذلك يمكن أن يغضبك، ولكن يمكنني أن أعرف ماذا ستفعل معها... امرأتي! حسنا نعم، لم لا؟ إنها تفعله لي جيدا، حينئذ لماذا لا تفعله لأخ. تفكير جيد، أخي! نعم هو كذلك. كما تقول: ستعد لك أطباقا صغيرة، وتكويك إذا كنت مجعدا قليلا! ستفعل لك واحدة... حسنا، يكفي! يكفي! لا ندخل في التفاصيل. ماذا؟ العملية بأكملها،مثلما تفعل لي؟ نعم، نعم... ربما في النهاية، يوم عيد ميلادي. باختصار،لا بأس! هذا حسن، أخي، إن عندك المفاتيح، والشقة، والزوجة، أما أنا فإني سأبقى على المسطحة، في حال احتجت لي. موافق؟

لا مجال للشك، إنهم ظرفاء، أناس هذه الأيام؛ لهم قدر كبير من الأخوة، قدر كبير من الحب وكثير من الأشياء للاقتسام، والطلب خاصة. وفوق ذلك، فإنهم يظهرون لي صريحين في أحاديثهم، وصادقين في مسعاهم، إني أحب جدا الأشخاص التلقائيين. ولكن ماذا دهاهم جميعا لينادوني "يا أخي"؟ لا بد أن أقول لهم بأني ابن وحيد!

بعد قصتي مع عبدول، جاء هؤلاء "الإخوة" ليذكروني بأنه كلما همت قرميدة بالسقوط وجدت نفسي على محور سقوطها! أخيرا، لابد أن أتسلح بالشجاعة لمواصلة طريقي، دون أن أكون، في كل مرة، مسحوقا بهذا القدر السيئ وبكل جنود الانتهازية. ابتداء من الآن، سأنتبه للمفترسين وحتى للآخرين: أولئك الذين لا يبدون كذلك. أقسم على ذلك أمام الله، وبالأخص أمام بشره الأغبياء!

بائع النوارس

القرية التي نزلت بها جاثمة على جانب جبل غابيّ؛ الغابة تنحدر بأشجارها و خروبها إلى غاية السهل. وفي وسط فرجة غابية محترقة، تنتصب هذه القرية ذات الأشكال والألوان المريبة. عندما تراها من الأسفل، يذهب بك الفكر إلى ثؤلول مدسوس في لحية شيخ. في هذا المكان، يبدو كل شيء مزيفا، فالدور ما هي إلا ديكورات للواجهة. والسكان يغلب عليهم مظهر الدراويش الدوّارين، ساذجي الفكر. كنت أتسكع دون هدف محدد في هذا البلد؛ فبالتأكيد ليس هذا المكان هو الذي سأجد فيه بغيتي. لدي الانطباع بأن بحثي هنا سيكون أكثر تزويرا من نسخة مزيفة عن "العهد الجديد"، أعاد إبليس كتابتها وتمّ نشرها في مطبعة جهنم. ولكني ألح دائما ومجددا في البحث. عند هبوط الليل، لم أعرف أين أنام، فدخلت مقهى بلديّا، راجيا أن أجد فيه قليلا من الراحة وبعض الأكل. كان النادل الذي استقبلني يشبه حبة خيار صغيرة، تعلوها حبة زيتون بدون نواة، والذنيب الذي يتدلّى برخاوة من قاعدة جذعه مدسوس بلا حياء تحت مئزر قذر، طغت فيه القذارة على البياض، وأقصر من أن يستعمل وزرة تستر نتوءه.

هذه الغرابة المتنكرة في نادل مقهى لم تكلف نفسها عناء أخذ طلبي. لقد حمل كأسا فارغة ووضعها أمامي، على الأرض: فعلا، فلا وجود لا لمائدة ولا لكرسي في هذا الدكان الخاوي. وفي الوقت الذي

بدأت أقلق من مضمون قدحي الجاف، هاهو يعود، حاملا قائمة الحساب في يد، لأن الأخرى كانت مشغولة تحت مئزره.

– هذا يساوي خمسة، ولا تنس عمولتي!

– خمسة ماذا؟

– خمسة! طز، من أين خرجت، أنت؟

ولكن في أي مستشفى للمجانين أقحمت نفسي ثانية؟ بقيت إجابتي في حلقي أمام المظهر المهدد للرجل الصغير الغارق في نزوته. ودون أن أفكره. التقطت خمس حصيّات من الأرض ورميتها على رأسه، رأس الزيتونة المبشورة. والغريب أنه لم يغضب، بل فضل عدّ الحجارة واحدة واحدة.

– ما هذا! أيها الصديق، وبقشيشي! قال ذلك وهو ينتحب مادّا يده الفارغة؛ وكجواب تام، بصقت على الأرض. شكرني قبل أن ينبطح ليلحس بقشيشه. وفي الوقت الذي كنت أمرّ فيه تحت إطار الباب، إذا بمترو ع النواة يمسك بي.

– أيها الغريب! عندي بوصلة للبيع، ستكون نافعة لك في سفرك. هذا ما اقترح علي الزيتونة الذي يحسب نفسه أيضا بيضة كولومبس. هاهو يتاجر في الأدوات البحرية! ليس غبيا، الخيارة! حقيقة، سأحتاج بالتأكيد إلى جهاز ملحق. الآن أعرف كيف أوفّي ديني له... بما أنه يقبل السيولة! انتهت المقايضة. وتهيّأت للخروج من هذا المكان الغريب، عندما أمسكني الخيارة بحرارة، للمرة الثانية، من ياقة سترتي، وهمس في أذني وهو يزين وجهه الزيتوني بغمزة منحطة:

– هيا! يا ابن بلدي، الآن وقد تعارفنا قليلا، يمكن أن نقوم بأعمال معا. أليس كذلك؟ ذلك ما اقترحه عليّ بجرأة ،الخيارة اللواطي.

- لقد قلتها، أيها الخضار، لا! ليس لي وقت أتقاسمه مع خياراتي! ذاك ما أجبته به قبل أن أخلي المكان.

أخذت قرارا آخر: لقد قررت استعمال حيلتي للخروج. أخرجت من جيبي، وأنا أغادر دوار الخدع، الفرجار المغنطيسي للتوجه نحو غاية جديدة.

أف! إن البوصلة غير ممغنطة، تدور إبرها مثلما يحلو لها، لقد نجح هذا الأخرق في خوزقتي. فهمت الآن لماذا كان منشغلا تحت مئزره قد كان يشحذ سلاحه!

- أنت تتحدث! حيلتي، يمكنني غرسها في المكان الذي تنبت فيه أفضل! هكذا ناجيت نفسي.

من فرط غضبي، رجعت على أعقابي، استدرت نصف دورة وذهبت لأتحاسب مع هذا الخيار المهرّج. وصلت متأخرا. فقد قاموا للتوّ بنقل ديكورات مسرح التصوير! لقد تبخرت قرية الخرافة تماما كما تبخرت حظوظي في التعويض. كان المكان خاليا، كما لو أن هذه القرية لم توجد أبدا.

إن السذاجة حبل يجب شدّه بقوة لمنعه من الاهتزاز، بنشاز، لمجرّد لمسة ماكرة من عازف نزق. هذا ما حكاه لي، ذات يوم، صديق كان يشكل عضوا في عصابتنا، عازف كمان في الأصل وفيلسوف أكثر في نهاية الأسبوع. وقبل أن يتحول للفن الموسيقي، كان هذا الصديق يعمل في التجارة. وقد كنت عرفته في هذا الميدان المكسب. وهو بسبب هذا النشاط نفسه أيضا، يتواجد اليوم ليعزف الكمان: *لقد كان شخصية رسمية ولكنه كان بارعا جدا. كان هذا الصديق يمارس تجارة النوارس. شيء مدهش؟ وليست نوارس في أقفاص، بل تلك التي كانت تعيش على*

الضفاف، وتصعد أحيانا مع الأنهار الكبيرة. كانت تجارته تسير جيدا، كان يبيع هذه الطيور الكفّية الأقدام بالآلاف، وليس بالواحدة أبدا.

– لا بيع بالتفصيل في تجارة النوارس! هذا ما كان يعلّمه لكل أفراد مجموعتنا. كان يقول إنه ورثها من عمّ موسر، كان كثير السفر في شبابه. وقد اغتنى، وجمع الملايين من النوارس. وعلى فراش الموت، أورث هذا العم الذي أرسلته العناية الإلهية، حفيده المحظوظ. ومنذ ذلك الحين، أصبح صديقي المالك السعيد لكل هذه الطيور البيضاء ذات المنقار الأسود. كان يعرضها على الأصدقاء بأثمان، يجب الاعتراف بذلك، مغرية جدا. والأفضل من ذلك، أنه كلما كانت الكميات معتبرة، تكون العائدات أكثر أهمية.

– يجب أن نفيد الأصدقاء الحميمين جيدا عندما تكون الفرص سانحة. هذا ما كان يقوله لنا بائع النوارس بالتخفيض.

كانت علاقتنا الثرية تقودنا إلى المروج ليقدم لنا النوارس. كانت هناك، في جماعات بالآلاف، تطير وتطوف. كانت تنعش السماء بموجاتها المتوالية وبأجسامها الصغيرة ذات الريش الأملس والحلّيي. كانت صيحاتها تملأ الهواء البحري الذي ساطه الرذاذ. أما هو فقد كان مسرورا تماما وهو يرينا إياها، نوارسه اللطيفة.

– إن نوارسه جميلة. لقد تحصّل على ميراث جميل، إنه محظوظ!

قلنا ذلك بتحسّر ونحن ننظر إليها ببلاهة. كانت هذه الطيور تحوم فوق رؤوسنا؛ وكان صديقنا، مالك النوارس يبتسم بسعادة وهو يتابعها بنظرة مزرقّة. يجب أيضا الاعتراف أنه كان يهتم بعصافيره البحرية، كان يقدم لها السمك تأكله، ولا يشحّ عليها. كان يضع تحت تصرفها كل أسماك البحر.

وكان الأصدقاء يرددون: إنه مربّ جيّد وكريم.

- انظروا إني أغذيها بالأسماك والرخويات إلى غاية الشبع، كل يوم. كان يتبجّح وهو يرينا الامتدادات الكبرى لمعلفها.

كان يبدو أنه يعرف طيوره البحرية جيدا، كان يدعوها كلها بأسمائها. لقد كنا مشدوهين بكفاءته في التمييز بينها.

- ماذا يفعل للتعرف عليها عن كل هذا البعد، وتسميتها واحدا واحدا؟

- إنها العادة، العادة يا أصدقائي، ليس من السهل تسييرها كتجارة، ليس سهلا... إن الأهلية وراثية في هذا الميدان، وأنا ورثتها عن عمّي العزيز. قال ذلك وهو يزهو نافخا صدره.

كان يحكي لنا أيضا بأن دوابه الطائرة مدجّنة جيّدا، "أفضل من بعض الحيوانات التي تمشي على أرجلها" كان يستمتع بتأكيد ذلك.

غالبا ما كانت النوارس تبتعد عن الضفاف لتذهب بعيدا جدا نحو بلدان أخرى وبحار أخرى، ولكنها كانت تنتهي دائما بالرجوع إلى مالكها ما هو، فلا يقلق أبدا، إنه ينتظرها بصبر.

- أنا الذي منحتها رخصة الذهاب بضعة أسابيع. ليس من السهل تسيير النوارس، يجب أن تعرف كيف تكافئها لتبيعها أفضل بعد ذلك.

كانت حجته الأساسية للبيع أن المشترين القادمين يمكنهم دائما احتساب كل صغار النوارس المولودة بعد إمضاء عقد البيع، لصالحهم.

- إن ذلك سيؤدي، حتما، إلى زيادة رأسمالهم دون أن يدفعوا نقدا. اسمعوني جيدا أيها الأصدقاء. إنها العملية التي يجب أن تقوموا بها إذا أردتم العمل من جديد. وبعد ألا يغريكم هذا؟ كم تريد أنت؟ ألف، وأنت؟ وأنت؟

– هذا جميل! إنها مضاربة ممتازة تقترحها علينا. شكرا، صديقي بائع النوارس، شكرا جزيلا! ألفان لي أنا، هكذا كان المشترون الجدد يشكرون بائع النوارس الحرة في الهواء الطلق.

هكذا أصبح بائع الطيور البحرية أكثر ثراء مما كان. لقد تنازل عن بعض الآلاف من دوابه ذات الريش، المدجّنة جيدا والمتغذية بكفاية، لفائدة علاقات ثريّة ومتعطشة لوضع أموالها في مضاربات ذات مردودية. أما أنا، فمع الأسف كنت مفلسا وبدون ميراث.

– إنه لمؤسف بالنسبة لك، ولكنّي لا أستطيع أن أبيعك بالدين، إن الأعمال كما تعلم قاسية، هكذا كان يعزيني عندما يراني مهموما أمام الأصدقاء الآخرين الذين استفادوا من تجارته.

كان ذلك محزنا بالنسبة لي، خاصة أن المالكين الجدد للنوارس كانوا يتركوني أحيانا أذهب معهم لأتأمل بإعجاب أملاكهم الطائرة. أما أصحابي فقد أصبحوا رجال أعمال، وأصبحوا يتكلمون لغة لم أكن أفهمها.

– إنه لمحزن أن تكون فقيرا. إننا نحبك جيدا ولكن لا ينبغي لك بعد الآن أن تأتي معنا، بسبب مستوانا الاجتماعي. ألا ترى... لسنا نحن، ولكنها الأعمال، إنها قاسية وبالأخص فهي تصفي العلاقات.

– آه، حسنا؟ وأنا، ألا أمر من خلال المصافي؟

– لا!

– حسنا إذن، بما أن السبب هو المستوى الاجتماعي، فأنا أتفهم. قلت ذلك وأنا مرتبك.

– المهم، إنك لن تبكي لسبب بسيط. وبعد، هاك، إننا سنقوم بخرق لقانون رجال الأعمال؛ يمكنك أن تأتي معنا، ولكن انظر من بعيد، واليوم فقط؛ مفهوم؟

وفي النهاية أضعت كل أصدقائي، واحدا واحدا، أصدقائي الذين غدوا أثرياء مرّيشين. أما أنا فلم أكن أملك شيئا. ووجدتني وحيدا أمشي على طول الأرصفة، مقلدا صيحات النوارس لأخدع نفسي، ولأحلم قليلا بدرجة من المستوى الاجتماعي، لم أكن قد بلغتها.

ذات يوم وأنا أقوم بتوضيب المخزن الذي كنت استخدمه أيضا كمسكن، وجدت في درج صوان قديم وثيقة، كانت هبة من طرف جد متوفّ، منذ زمن طويل جدا. لا أكاد أتذكره. كان يقال في العائلة أنه بحار كبير. فتحت لفافة الورق وأنا جالس على الأرض وقرأت ما يلي:

"أنا الموقّع أسفله... الصياد الكبير، أمام الله، أني، بعد وفاتي، أترك لآخر أحفادي كل أملاكي. إني لم أستطع أبدا القيام بجردها، ولكن بهذه الورقة، يقوم حفيدي بحيازة كل أسماك البحار والأنهار وحتى الأودية الصغيرة..."

إمضاء: الجد

أعدت قراءة الوصية مرات عديدة وأنا أعد الأشخاص المتوفين من عائلتي. لم يبق إلا أنا!

– جميل! لأول مرة أنا مسرور لكوني بدون أهل، وخاصة لكوني آخر فرد من العائلة!

– شكرا، شكرا جزيلا على كونكم جميعا أمواتا. لمرة واحدة، فعلتم حسنا بموتكم. هاكم، اعترافا مني، سأسمي أسماكي بأسمائكم. أعني الأكبر منها. شكرا مرة أخرى أعزائي: الأعمام، الخالات، أبناء العمومة، أبي، أمي و أختي الصغيرة، على موتكم من أجلي! جريت، وأنا مسرور ومجنون من الفرح، أعلن الخبر الجميل لصديقي بائع النوارس. أخيرا سأكون طرفا في النادي المغلق الخاص بالأثرياء وبمن هم دون رحمة. لقد

تحصلت على مكانة اجتماعية جديدة! وسيعلمني صديقي كيف أسيّر ميراثي الحديث جدا.

في الواقع، إن الصديق بائع النوارس كان قد قال بأن نوارسه كانت تأكل السمك.

لكن. هذه أسماكي!

– إذن، سمكة بعشر سنتيمات مضاعفة ب... و ب... كنت أحسب وأنا أجري لأرى زبائني الجدد، ولأطالبهم بمستحقاتي.

كم أن الأمر غريب! لقد تنبهت للتو بأني لم أعش أبدا هذه القصة... وربما كان ذلك بسبب الأقراص المهلوسة؟

عدت لأرى أين أنا. إن ساحة القرية صغيرة. قرية الخدع خالية دائما كما لو أنها لم تكن أبدا. كان الجو باردا، وبدأ المطر ينهمر؛ والليل حالك جدا يمنعني أن أتقدم أكثر. لقد تبخرت فيه الخرافات. وعلى شكل زناد بندقية، نمت على الأرض مباشرة: كرتان في حلقي لتصبّراني. يداي الاثنتان مدسوستان في جيبيّ، أضم في إحداهما بوصلتي التالفة، وفي الأخرى القوقعات التي جمعتها من الضفة الجافة. وعندما استيقظت، كنت أريد أن أجد نفسي بعيدا عن هذا المكان أو على الأقل أن لا أكون أبدا.

المدينة آكلة لحم البشر

المدينة التي نزلت بها، هذه المرة، كبيرة ومفترسة. تستقر طبقة كثيفة من التلوّث على مجمل شوارعها ودورها وأكواخها التي تحضّرت دون أن تتشاور، في الجلبة والفوضى، مانحة بذلك لهذا المكان تركيبة سوداوية، مهووسة، شبه مصابة بمرض قلبي، مفروضة بواسطة لا مبالاة مكدّرة يغطيها خمول سطحيّ، مثله مثل القذارة الوفيرة التي تلفها. عند مدخل الحي، وعلى جدار مشقوق وقذر، توجد لافتة مرحّبة بالأجانب، "المدينة الكبيرة التي تأكل سكانها تتمنى لكم..."

– رباه! لقد وقعت على تجمّع سكاني آكل للحم البشر! هذا ما تمتمت به.

وعلى الرصيف المقابل، عند مخرج محطة مترو لا يزال قيد الإنشاء، يوجد شخص مسكين يرتدي ثيابا رثة، يمرّ أمامه المتسكعون دون توقف. كان يحاول بيأس أن يبيعهم رايات. وكانت فوق رأسه لوحة تعلن بفخر "مشروع: مترو المدينة". "آجال الإنجاز: نهاية الأشغال!" لا تقول اللافتة متى بدأت هذه الأشغال، بالتأكيد منذ مدة طويلة جدا، بحكم مظهرها الخرب. كان بائع الرايات الأشعث، الحائر، المريض، يحرّك قطع قماشه. وكان ،وهو يحرك هذه الرايات، يدندن أغنية مهدهدة "نم، أيها الطفل نم... نم، أيها الطفل نم... " وعلى التو أخذتني رغبة مفاجئة في خنقه. نظر إليّ وابتسم. أما الناس فهم مستمرون في تجاهله. والذين يجتهدون في التمهل، كانوا يصقون على الأرض. اقتربت.

– لقد حدث أن ابتسم لي شخص ما هكذا... لكن من وأين؟

أنا هنا منذ ساعات عديدة، ومنذ وصولي إلى هذا الحي، بقي الجو رماديا. كان يبصق مطرا حزينا مليئا بالكآبة. مرة أخرى، انخدعت بالمكان، ومع ذلك قررت أن أقضي هنا بضعة أيام، على أمل أن ألتقي ربما أناسا أكثر بلادة مني، وهذا يرفع من معنوياتي، ومن يدري؟

– يوم سعيد، سيّدي... حاولت حوارا لأحدد موقعي في هذا المحيط الغريب.

– خمسة! أجاب بائع الرايات بسرعة.

هناك أجوبة تأكل جلدي، وهذه أكثر وأكثر. أكيد أنني التقيت سابقا بهذا الشخص الأشعث، أكيد!

– لا أعتقد أننا سنعود لنفس الحكاية! خمسة ماذا؟ إن هذا الرقم يذكرني ببعض ما عشت، وهو لا يضحكني أبدا!

– أنت لست من هنا أم ماذا؟

– كلا، ولكن كم أود أن تقول لي أين أنا؟

– إنها المدينة آكلة لحم البشر.

– آه! هذا ما كان يقوله جدار مدخل المدينة.

– نصيحة لك أيها الغريب: هنا، عندما لا تتكلم الجدران فإنها تنصت؛ فإذا نطقت، لسوء حظك، بكلمة زائدة أو مخالفة، فإنك ستطلق مباشرة آلية معقدة، بلغت قيمتها تقريبا ثلاثة أرباع د.و.خ[16] البلاد. إن بعض الكلمات المنطوقة هي أسماء رموز مفجّرة أو قواطع من شانها أن تجعل منك أنت... شبحا، هذا في أفضل الأحوال. نعم أفضل الأحوال.

---

[16] - د.و.خ: دخل وطني خام: هو مجمل ثروات البلاد يضاف إليها كل الخدمات المفروض تقديمها. لا يمكنني أن أقول أكثر من ذلك عدا كون ذلك لا يصلح لشيء عندما تريد أن تدفع لبائعك منه! ويعني دوخ في بعض الأمصار عوائد النفط (أو المخدرات) التي تسمح بالعربدة... على ظهور الآخرين.

– تجعل مني ماذا؟

ازدرد بائع الرايات ابتسامته التجارية، ونظر إليّ نظرة غريبة كما لو أنه رآني للتو.

– هل تشتري مني راية جميلة لوطننا العزيز؟ هيا سيدي، حركـة مـن أجل وطننا النبيل، كن مواطننا حسنا، سيكافئك الرب الطيب على هذا العمل! ثم يضيف: أنا بائع معتمد من الدولة، وراياتي مشهود لها بالأصالة. "نم أيها الطفل نم..."

هذه المرة كظمت غيظي واستأنفت طريقي، والمطر يهطل دائما. كنت أسير و شارع يقودني إلى آخر حتى ينتهي بي مباشرة إلى مفترق طرقات. أحيانا تنتهي في أزقة، وغالبا ما تقودني إلى نقطة انطلاقي؛ وبيأس أحاول مخرجا أخيرا. اندفعت في شويرع أكثر فقرا من تلك التي اجتزتها. كان الجو، فجأة، باردا هناك. وعلى الرصيف الضيق، يتواجد أفراد، هيئتهم هيئة مشنوق، يسندون أظهرهم إلى جدران البيوت المغلقة النوافذ، مثل جفون هؤلاء الأشخاص المشؤومين. هذا المشهد يبعث رهبة فارغة عمياء... انطوائية جعلتني أشعر بالخوف. كنت اعتقدت أني سمعت كلمة: شبح، منذ حين. أسرعت الخطى مذعورا، لأصل إلى قلب الحي الآكل للحم البشر. كانت الساحة الكبيرة مَفْرغة عمومية مقامة في حفرة كبيرة. وكانت الرائحة المنبعثة منها، تنفّر أكثر من جرذ. ولكنها لا تنفّر سكان المدينة: فكل سكان هذا الحي يبدون منكسرين. حركاتهم بطيئة وغير دقيقة. كانوا يتنقلون مثل المسرنمين، وكانت نظراتهم منطفئة. هل هم عمي أو أنهم يتعمدون المشي مغمضي العينين؟ أتفحّص وجوههم باحثا عن آثار الخوف أو الرعب أو على الأقل عن ذرة من حياة. لا أرى فيها شيئا غير الاستسلام. أحيانا تتلبّد بعض الظلال بسرعة عند اقترابي لتختفي في الزوايا المظلمة. ربما هي أشباح؟

أجلس، وأنا مرهق مذعور، على الرصيف المبلل، أمام اللامبالاة المطلقة تماما للمارة. رأسي بين يدي، وأنا أبكي مع الجو. لن يتأخر الليل في الهبوط.

لقد تسكعت طيلة ساعات، في هذه المتاهة، دون أن أدري ما سيصادف طريقي. لم أجرؤ حتى على استشارة البوصلة التي غشني بها مقدّم الخدع. إنها غير مجدية، كيف أعرف أين أنا؟ كل ما أعرفه أنه كلما دلت الإبرة على الشمال، عليّ أن أتجه نحو الجهة المقابلة، على أساس السير ضد اتجاه الكذب. وبعد فان هذه المدينة معقدة إلى درجة يصعب عليّ الخروج منها حتى ببوصلة تقول الحقيقة. بقيت جالسا، مغتما بمحاولات الهروب الفاشلة، مفضلا استعادة نفسي وفكري.

إن الدهماء التي تعيش هنا تبدو يائسة؛ ولكن، وحسب بائع الرايات، لابد أن هناك عفاريت؛ وإلا فلم تتمتع الجدران بآذان فضولية؟

على الطريق، أشاهد أشخاصا يمرون وهم يدفعون، ببطء عربات صغيرة. نظرتهم ميتة، زائغة في تأمل عرباتهم الفارغة. إنهم يظهرون وكأنهم يعيشون حياة مد وجزر، نتاج زواج مقرف يراوح بين السخرية والكارثة. إن يوميات هؤلاء الناس يطبعها اللون الأخضر المزرقّ الناصل، والذي لا أمل فيه. إن الحياة في هذا الحي الآكل للحم البشر تكتسي سخرية مخيّبة. وسط الحشد، كانت هناك امرأة عجوز مكسوّة بالسواد، تبحث في يأس، تحت الأقدام المسرعة لدافعي السلات ذات العجلات، عن بعض النقود لتقدم لنفسها، احتمالا، إحدى هذه الخبزات السوداء المعروضة على بسطة الدكان المقابل، حيث تتدافع مجموعة من المتسولين عند المدخل. وعلى الواجهة، كانت هناك لافتة متخلخلة تشير إلى وجود مخبزة. كان الدكان شحيح التموين. ويظهر على بعض المتسكعين أنهم كانوا هنا منذ زمن طويل. ربما ينتظرون أن يطعمهم الخباز بالمجان! أسمع

امرأة شابة تصرخ قرب الصناديق، لاعنة وصل تغذية الحكومة الذي لم يعد صالحا منذ ساعتين.

– لماذا أنجبتنا أمتنا الجميلة؟ أي بلد قـــ...، أريد تأشيرة لأذهب للأكل في مكان آخر! وطز في الحياة إذا كانت تشبه هذا! أريد تأشيرتي! لقد سئمت هذه النقطة اللعينة ب114! قالت ذلك من أعماق رئتيها ببراءة مرعبه.

وعلى إثر ذلك، أخرجت من جيبي أنبوب أقراصي المزّة. أما أنا سيّدتي، فإني أريد النوم بسرعة.

وبعيدا قليلا عن هذه المصورات، ألمح شخصا، هو أنا. كان يجلس جانبا. كان هذا الرجل يبكي، وهو ينظر إلى السماء. وكان بكاؤه مقطوعا بعبارات: كان يحكي أن الربّ ظالم، وأن الحياة أكثر جورا، وأنه لن يتمالك نفسه للبصق عليهما معا. سكت الرجل فجأة، ورأسه بين يديه كما لو أن شتائمه أخجلته. كان يحدّق، وعيناه مليئتان بالدموع، في نعليه المبللتين بالمياه المبتذلة التي خرجت من فتحة بالوعة وسالت على طول الشارع. إن هذا الحي البائس يتجشأ أحشاءه ويذكّره بقصته. هذا الرجل لم يعد شيئا، ولم يعد شخصا رغم أنه كان أحدا ما... كائنا بشريا. إن المدينة آكلة لحم البشر لم تترك له الاختيار. والكلمة السيدة هنا هي "اعتمد على نفسك". هذا ما هو مكتوب أيضا على لوحة الترحيب عند مدخل المدينة.

– امسح حذاءك سيدي![17] امسح حذاءك سيدي! كان يصيح وهو يدق بفرشاته على صندوقه الخشبي. كانت البراءة تتناقض مع القذارة التي تكسو الجسم والأسمال. أما الجسد، فعليه علامات من ثقل

---

[17] - امسح حذاءك سيدي!: عبارة مستعملة عادة من طرف صغار وكبار المساحين لجلب الزبائن.

السنين وأهوال أمراض عديدة لم تعالج بسبب انعدام الوسائل على ما يبدو. أما العينان الزائغتان فهما تعكسان حزنا عميقا متجذرا في ماض بعيد، من المحتمل أنه لن يراه أبدا. كان الرجل يبدو أعزل أمام تعسف حياة لم يكن يتمناها أبدا.

– امسح حذاءك سيدي!

لم تعد رئتاه قادرتين على مده بالطاقة الكافية ليصيح. لم يكن لنداءاته من صدى غير لا مبالاة المارة المستعجلين جدا، فلا يلاحظونه. ثم يغرق في تفكير عميق؛ كان نظره يتابع سيلان الماء القذر الذي يجري بين قدميه السيئة الانتعال؛ تملل وجهه ولامست بسمة شفتيه الجافتين. وأخذ يناجي نفسه وفق أفكاري:

– هل تأتي، عزيزي لتشرب قهوتك؟

– سأصل، فقط دع لي وقتا، أنهي فيه نظافتي. أجاب نفسه.

كانت الشمس مشعة في الخارج، والموسم يبدو جيدا. لقد تفتّحت الورود في الحديقة. و الأطفال قد ذهبوا إلى المدرسة. ولم يبق غيره هو ورفيقته في بيتهما المبنيّ في أعالي المدينة. كان المنظر رائعا من مسكنه. اليوم أراد أن يأخذ ما يكفيه من الوقت قبل الالتحاق بعمله: قال لنفسه وهو يتناول فطور الصباح بأنه كان محظوظا في حياته: دراسات عليا، عمل محترم، أصدقاء ظرفاء ومخلصون، سكن فخم، أطفال حسان وامرأة يحبها، ماذا يطلب أكثر؟ لا شيء إلا أن يستمرّ ذلك. وعلى هذه النوطة المتفائلة التي أمدته بقوة، نهض.

على عتبة البيت، وحين كان يهم بمغادرة زوجته، قطب جبينه؛ غريب... لقد لاحظ أن المساء بدأ يهبط. وباستغراب، ألقى بنظرة مستفهمة نحو رفيقته. كانت قد أغلقت الباب... و... كان البرد شديدا على الرصيف...

رفع الرجل الجالس بجانبي رأسه، ولاحظ بأن المطر مازال يهطل على هذا الحي الشعبي الذي لا يسكن البؤس في شوارعه فقط، بل وبالأخص في الأرواح. واليوم لم يكن أبدا يوما حسنا، زوجان من الأحذية فقط، للمسح، لا تكفي لدفع ثمن غداء هزيل. قرر البقاء قليلا.

- امسح سيدي!

أخفض صوته وهمس كما لو أنه أراد أن يصحّح نفسه "امسحوا، سادتي، من فضلكم، امسحوا حتى أتمكن من الأكل." إن الرجل المسكين مجبر، في الواقع، على تشويه لغة يتقنها تماما لسببين: الأول أنه لابد من التحدث بلهجة مناسبة للوضع المكره على عيشه؛ الثاني أنه يخشى اجترارات ماض محترم، قبل سقوطه، عندما كان ينادى سيدي. أما الآن، فهذه الكلمة تسكب الدموع في عينيه. إنه يريد أن يأكل، لذلك لابد أن يمسح أكبر عدد من الأحذية. لا وقت للبكاء، فالسماء تتكفل بذلك من أجله. وبعد...

-"امسحوا سادتي! من فضلكم، امسحوا..."

وإلا، فإنه سيجد نفسه، هذا المساء أيضا، في كوخه العفن صحبة رفيـــــــق وحيد هو الجوع. وككل مرة، سيتأخر النوم في القدوم. وستطفو الذكريات على السطح لترافقه إلى غاية الفجر.

- امسحوا! لقد جُنّ الليل، وصار المارون أكثر ندرة. لن يأكل هذا المساء أيضا. حينئذ، وببطء جمع أغراضه في صندوقه الخشبيّ الصغير. انتصب بصعوبة، ورفع عينيه المبللتين نحو السماء. لم يستطيع أبدا أن يتذكر كيف وصل به الأمر إلى هذا الحد.

"اصرخوا، سادتي، أصغوا لبؤسي، اشعروا بغضبي! من فضلكم، سادتي، أصغوا للشارع يتكلم!"

غادرت م.م.م[18] مرورا بالقرية. وهنا أيضا، تنتهي كل الشوارع بأزقة، ولا أجد حتى الآن مخرج المدينة آكلة لحم البشر. أظل أدور في التفاف كما في أروقة المرايا، وفي كل مرة أقابل صورتي المنعكسة في المرآة المغيّرة للشكل، أرتعد من الخوف. غالبا مالا تكون صورتي هي المنعكسة، إنها صورة النسوة اللائي يختفين خلف مصاريع المنازل المغلقة. هؤلاء محبوسات. إنهن ينظرن من خلال مغالق الشبابيك، ويرصدن صور مثيلاتهن اللائي يتسكعن على أرصفة الخدمة. لذلك، وانتقاما، لابد أنهن يحلمن بالكعوب الإبرية يغرسنها في قلوب عشاقهن العابرين. أما النظرة المنطفئة و التي يلقينها على الرجال المسندين أظهرهم للجدران، فهي مليئة بحقد القرون. وفي الأسفل، كان الرجال ينتظرون دورهم للدخول والخروج بعد ربع الساعة، وفتحة السروال مغلقة غلقا سيئا والمبلغ الصغير مقبوض، هؤلاء الرجال الذين يقيسون عظمتهم بطول ذيلهم، يعيدون، مباشرة بعد ذلك، تشكيل طابور الانتظار الطويل بالتموضع في مؤخرة الصف. لذا، وعلى سبيل الاطمئنان، فإن السيدات، المختفيات وراء مغالق النوافذ التي لا تزال موصدة، يقلن في أنفسهن، من المحتمل في النهاية، أن تكون هذه الفحول مجرد أحصنة مخصية مشبعة بادعاءات مضحكة. ثم يكين... بهدوء وبطء، على مثال لن يكون أبدا.

مشيت في تشابك الشوارع ذات الحواجز العاكسة للخوف. كنت أسير بمحاذاة الحيطان، متفاديا النظر لنفسي في الانعكاسات التي تلقيها إليّ واجهات العمارات القبيحة. في إحدى زوايا العمارات، خاطبتني امرأة، طلبت مني أن أتبعها. دخلنا إلى دار ذات نوافذ عمياء.

---

[18] - م م م: مركز المدينة المفترسة (للحم البشر) تسمية مشهود لها ومراقبة من طرف كل مفترسي المدينة.

تركتها تسبقني ونحن نستقل السلم الخشبي. كانت إليتها تهتزّ على وقع الدرجات التي كانت تصرّ تحت ثقل جسدها السمين المستور أو يكاد بوشاح فستانها الشفاف. هكذا صعدنا الدرج حتى الطابق الأخير. فتحت بابا على غرفة صغيرة، ليس فيها من الأثاث إلا: فراش غير مرتب، مغسل صغير مشقوق و مزيّن بمرآة لا لون لها معلقة على جدار وسخ. كان الديكور شحيحا، فالناس في هذه القرية فقراء جدا. لم تعد امرأة شابة، ولكنها دائما جميلة. أخذت يدي برقة لقراءتها: روت لها الخطوط المرسومة على كفي كل حياتي.

– إني أسعى للتعرف على ماضيّ، لأني إنسان تائه في الزمان. قلت لها ذلك، ثم أضفت بخجل: وكل الرجال يعيشون وفقا لمستقبلهم... لذلك يجب أن أعرف من أين أتيت! حوّلت نظرها و لم تجبني؛ أعتقد أني رأيت دمعة تسيل على وجهها. تقاطعت يداي حولها، وأغمضت عيناها. تجرّأت وطبعت قبلة على خدها.

في الصباح الباكر، استيقظت ومعي مجهولة في هذه الغرفة من الماخور. انكمشت في الأغطية، ورأسي راقد على ثدييها. أحسست، وأنا ملتف حول جسمها، بالأمان في حضورها. أغمضت عينيّ لأبعث في نفسي اللقاء الذي حصل لي مساء أمس:

كان الشخص غريبا نوعا ما، لم يكن سيئا ولكنه متصنّع بغرابة؛ التقيته في حانة. كان قد سكر منذ زجاجة الجعة الأولى.

– قدم له زُزازة زعة! زأزأ بصوت رقيق عندما رآني داخلا.

– لا، شكرا. قلت رافضا، لأني لا أملك نقودا لأقدم لك مثلها.

– أعرف، بما أنك تشرب الماء!

– إذن، شكرا.

قرّب الشخص مقعده وجلس بجانبي. أسر لي وهو يرفع كأسه:

– إن أختي تقرأ البخت، زأزأ جار المائدة الكريم في أذني.

– ماذا؟

– نعم إن أختي "قارئة" كف. وربما لهذا أشعر أني محمي من العين السيئة و المصائر المشؤومة. أنا محشو بالقري قري[19] من الرأس حتى القدمين، إن لدي تعويذات أحتمي بها ضد الأشخاص سيئي النية. لقد ورثت هذه الموهبة من جدة جدتي. فعلى فراش الموت، قبل أن تهلك بالضبط، نقلت جدتي الثانية هذه المهارة في الرؤيا وفي إلقاء السحر إلى أختي. إنها هي، أختي الكبيرة، التي تقول ذلك! وإذا كانت تقوله، فذلك لأنه صحيح.

وهكذا توصلت إلى إعالتنا جيدا، جميعا كما نحن، إن عائلتنا البائسة تقطن كوخا يرثى له، مصنوعا من الأخشاب والصفائح الصدئة، في منعزل هذا الحي الفاسد. لكن يجب أن تعلم! إذا كنا نملك الهوائي الفضائي فإنما كان ذلك بفضلها! لذا، ومنذ ذلك الحين، وكل العشيرة موصولة "بالساتل". نحن لا نقلق أبدا خاصة وأننا نحن، بقية أفراد العائلة، لا نملك عملا، بكل تأكيد. يجب أن تكون لكم مؤهلات، هذا ما كانوا يقولونه لنا عندما نخرج من حي الأكواخ للاسترزاق... إذن نبقى جميعا هنا في بيتنا، ننتقل من قناة إلى أخرى أمام جهاز التلفزة الذي اشترته أيضا أختي الكريمة. إخوتي السبعة، أخواتي الست، أمي، أبي، أنا وجدي! الكل جالسون، طيلة اليوم وجزء كبير من الليل لمعاينة البرامج الجميلة لقنوات العالم بأسره. لا أدري، لماذا لا تمر هذه الأيام؟ يبدو أنه وقعت مشادات بسبب ذلك. لا ، يجب أن لا نلعب مع الهوائي المقعر، سيدي، إنه يسكّن الآلام. ألا تعلم ذلك، آه؟

---

[19] - قري قري: لفظ إفريقي يعني التمائم والتعاويذ (المترجم).

"سيعود" طمأنتنا أختنا قارئة البخت فأجبناها بصوت واحد "سيعود".

كل الناس هنا، في حيّ الأكواخ، يغارون منا كثيرا! حقيقة، نحن الأكثر ثراء من كل محتلي مدن الصفيح. أعلم ذلك، لأني عندما أمر بسروالي الأبيض الجميل الضيق، ذلك الذي اشترته لي أختي اللطيفة بمناسبة عامي السابع والثلاثين، كان الأطفال الأوغاد في هذا الحيّ المتعفن يصيحون بي "هوو! هوو! هوو!" أما أنا فأمرّ متجاهلا إياهم إن أختي الكبرى هي التي نصحتني بذلك.

لقد كانت تردد علينا دائما: "يجب أن لا تصغوا أبدا لحكايات هؤلاء الغيورين"

كنا نتبع نصائحها بما أنها تقول دائما الصدق، أختي قارئة البخت. وأحيانا، عندما تكون غاضبة، تهدّدنا بأعمال سحرها السيئة. يجب عدم معاندتها، أختي، الساحرة. يجب على الأخص، الاعتراف بأنها جد لطيفة معنا. فعندما يكون اليوم حسنا، ويكون قد تلقت عددا أكبر من الزبائن، تعود مساءا، في وقت متأخر جدا حاملة هدايا كثيرة للجميع؛ ولكنها تعود مرهقة. لذا فنحن طيبو النيات معها، فأنا أحمل إليها الحساء لتأكله، إلى غاية فراشها، ولكنها غالبا ما تقول أنها تعشت مع زبون. وحتى تتركنا نحلم قليلا، كانت تقص لنا حكاية الوجبة، وتصف لنا ديكور المطعم الحقير الذي احتفلت فيه. إننا فرحون وسعداء من أجلها. وبالتالي فنحن نتركها تستريح. فغدا تعود للعمل من أجلنا جميعا. كانت أمي في جميع الأوقات تطلب من "ساحرتنا المحبوبة جدا" أن تأخذ معها واحدة من الصغيرات لتدرّبها على نشاطها المثمر فتساعدها ومن ثّم يمكنها أن تستريح قليلا.

– لا! هذا أبدا، إنه عمل قاس جدا بالنسبة إليها... و... ثم... أنا، هذه هبة تلقيتها من جدتي! قالت صارخة.

ولكنها مباشرة بعد ذلك، ستذهب عند أمي لتستسمحها، تتعانقان وتبكي أختي. وفي المساء، عند عودتها، تحمل معها حلويات بالعسل، ويكون الجميع قد نسوا غضبها. ذات يوم، منذ مدة طويلة جدا، قمت بتتبعها من باب الفضول فقط. وبالضبط عند زاوية الطريق؛ شاهدتها تركب سيارة كبيرة وجميلة، يقودها رجل يرتدي طقما أبيض ويحمل سلسلة ذهبية كبيرة حول رقبته، طويلة لدرجة أنها كانت تصل تقريبا إلى الخصر. كان يناقش بصخب ويقوم بحركات بيديه. من المحتمل أن يكون ربّ عملها. أنا لا أحبه لأنه يصرخ كثيرا على أختي. أحيانا، كنت أسمعها، في الليل، تبكي بهدوء حتى لا تسمعها العائلة النائمة. أنا لا أنام أبدا، وأقترب من فراشها، تضمّني إليها بقوة وتعدني، وعيونها مبللة من الحزن بأننا قريبا سنرحل جميعا من هنا، إلى المدينة، ليس للمدينة الصغيرة بل الكبيرة، حيث يوجد كثير من الأضواء والناس المتحضرين، لنسكن في دار حقيقية بعدة غرف، اثنين على الأقل! وقالت لي أنها ستتوقف عن العمل على الرصيف... لقراءة خطوط اليد. وقالت أنها ستعمل في "الحلاقة" نعم. ذاك ما كانت تحلم به كل مساء قبل أن تنام. كثيرا ما رأيت، في أحلامي الليلية، أختي الكبرى الكريمة تعمل في "الحلاقة". إنها تشبه، في ذهني، هؤلاء الممثلات الجميلات اللائي نشاهدهن يوميا في التلفزة بفضل الهوائي المقعر وآلة التحكم في كوخنا ذي الغرفة الوحيدة بما فيها مرحاضها. أما أبي فهو مقتنع بأن ابنته الكبر ى ستنجح في الحياة. إنه يثق فيها، ثم إنه لا خيار له، إذ أن كافة بقية أفراد العائلة كانوا غير محظوظين من طرف القدر بما فيهم هو نفسه. وهكذا، وكل يوم، عند الصباح الباكر الذي خلقه ربنا، تتوجه أختنا المحسنة إلى التفحّم. كانت تهتم بشخصها. كان طقمها دائما نظيفا وحذاؤها ذو الكعب دائما ملمعا جيدا على الدوام.

"إن المهنة تتطلب الزيّ" هذا ما تقوله لنا أختنا المهندمة جدا؛ وحتى لا نتعبها، فقد كنا نحن الذين نقوم،بالدور، بغسل وكيّ طقمها الرمادي ومسح نعليها الأحمرين الجميلين بكعبيهما الرقيقين. إننا مدينون لها بذلك، أليس كذلك؟ منذ عدة أيام، أصبحت تبدو لنا مرهقة جدا، وملامحها مجهدة، وفي الليل تحلم أحلاما مزعجة. كنا نسمعها تتخاصم مع أناس شريرين. وغالبا ما تنهض مفزوعة وباكية. حقا، إنها منذ مدة طويلة لم تأخذ عطلة، منذ كنت صغيرا حسبما أعتقد. تقول إن رب عملها هو الذي لا يريد تركها تستريح، وأنه لم يذكر العطلة في العقد، وأنه لا يمكن فسخ العقد في مهنتها لأن ذلك خطير جدا! وقد تكون العواقب مؤلمة لمن يخل بالعهد.

وذات يوم، وحتى ساعة متأخرة جدا من المساء، لم تلتحق أختي اللطيفة بكوخنا البائس. وقلقنا جميعا، من أجلها ومن أجلنا. وإلى اليوم، مازالت لم تعد إلى بيتنا. عسى أن لا يكون قد حصل لها أي مكروه!

نظرت إليه، إنه يبكي بهدوء. لم أجد ما أقوله له، حتى شكرا على القدح. نهضت عن المائدة برغبة واحدة وهي أن أبكي فرحتي في بؤس هذا العالم الآكل لحم البشر، وهذا ما لا أرغب أن يراه!

أيا... سيدي، إذا صادف و التقيت امرأة شابة، ذات سن ناضجة، تعمل على الرصيف... في قراءة خطوط اليد، قل لها بأننا لازلنا نحبها؛ هذا إذا رأيتها!

عندما غادرت حانة المجنونات، تذكرت الليلة الأخيرة التي قضيتها مع رفيقتي. لقد كلمتني عن الحب!

الستار! الستار!

هذا الصباح، لم ينهض كل المؤذنين بالمدينة في وقت واحد. فلكل صباحه، فأل سيء! نهضت المدينة آكلة لحوم البشر ملتحفة بالدكنة. كانت الشمس، والقمر في مقابلها، ينظران إلى هذا المعزل خلف ستار من السحب الرمادية، لون رمادي مثل لون الدور والجدران، لون الناس المساكين والجرذان: "رمادي بِائس" بينما كانت نظرات أخرى ممتقعة أيضا تترصد.

كانت عيون، متلبّدة خلف ستار النوافذ، تسبر وتقيس عجزي عن الخروج من هذه المدينة المتعفنة. كنت أحس بنظرات ساخرة خلف ظهري. لم ألتفت لمواجهتها، كنت أخاف أن يختطفني مغناطيسها المهلك وأن أنتهي إلى الذوبان فيها. كنت أعرف بان الوجوه المختفية في ظل الستائر كانت تعتقد بأنها، بهذه الطريقة، تحمي نفسها وتنعزل عن حياتها الذاتية، كما لو أن انغلاقها في الغموض سيؤدي أيضا إلى انطفاء عالمها القذر، فلا يعود لرؤيتها وهكذا يحفظها.

إني أتخيلها جميعا، كل وجه خلف ستاره:

"الستار! الستار!" يراهن رب هذه العائلة المفلس والمستعد ليراهن بحياته الهزيلة مقابل أي هدية "مفاجأة" موجودة خلف الستار الأحمر. إن هشاشة آفاقه تسمح له بعدم خسارة أي شيء عند التبادل. لذا. الستار!

"الستار! الستار!" يصرخ الشبان في هذيان حتى تتوقف هذه المسرحية التي لا يريد ستارها أن يسدل على ملهاة لا تنتهي أبدا! إنها على العكس، مأساة، يذكرهم فيها تكرار أدوار الممثلين برتابة حياتهم.

"الستار! الستار!" يقهقه الطفل الذي ينتظر العرائس التي تعد بحياة من الفرح والضحك. لا تسدلوا الستار أبدا على عرائس الطفل. لا أبدا! إن الطفل في حاجة إلى الحلم.

"الستار! الستار!" يئن المريض المحكوم عليه الذي سئم المعاناة والذي يريد أن ينتهي من هذا الوجود الهزلي، في المجتمع الذي لا يعطيه لا الحق في الحياة ولا الحق في الموت. وبين هذين الممنوعين، هناك أشخاص يموتون وهم يعيشون أو يعيشون وهم يحتضرون.

"الستار! الستار!" تنتحب المرأة التي ندسها مخنوقة، في حجج سوداء جراء المحظورات المبتدعة. تتهرّب من التحقيق ليس لكونها قبيحة. ولكن بسبب الكنوز التي يكتنزها جمالها. انتحبي أمي، رفيقتي، أختي وابنتي على الستار الذي لن يتوقف عن الانسدال عليك!

" الستار! الستار! " يندهش ويقلق العشيق المتمرغ في فراش جميلته، إذ يكتشف حذاء، ليس حذاءه، خلف ستار الزانية وحيث يختفي زوج مخدوع ومنتقم. إن الحب الممنوع المختفي وراء الستار، إنما يفضحه هذا الستار نفسه.

"الستار! الستار!" يصلي هذا الشيخ المفجوع بحياة لم تنته، وهو في انتظار أن يسدل الستار على نهايته. إنه لا يريد أن يتذكر شيئا من حياته، إنه مرهق لكونه لم يعد يستطيع التدخل في الأحداث، ولكنه يعاينها فقط. إن الرحيل بالنسبة إليه عود للحياة، لذا، ستار، من فضلك!

"الستار! الستار!" يتساءل ويشتم الحشد المؤلف من حلفاء مزوّرين يدركون ما هو موجود خلف الستار الأرجواني. أحمر كالدم الذي ينبع من رأس، اخترقتها رصاصات قاتلة، لسيّد وثق فيهم واختار أن يرفع كل الستائر.

"الستار! الستار!"

ستار مسدل أو ستار مرفوع، وتستمر الحياة بالنسبة لسكان المدينة آكلة لحم البشر، الذين لا خيار لهم سوى أن يعيشوا خلف ستار. ألا يدركّون بأن قدرهم موجود سلفا فيهم؟ إنه هو الذي يحكمهم الآن. وأنا أغادر هذا المكان الوضيع، أسدلت، أنا أيضا، كل الستائر بإغماض عينيّ. واستأنفت الطريق في غير راحة، تلفني نظرات طويلة زائغة. وشمس منحرفة ترسل أشعتها المتموجة على أفق غير ثابت. هذا أفضل، فأنا لا أريد أن أعرف إلى أين سأصل من جديد.

ستغيب الشمس بدوني، فأنا مغادر للمدينة آكلة لحم البشر.

إلى الجنة، سنذهب جميعا!

لقد مشيت طويلا... طويلا جدا، آكلا الخبز وحبّات التمر التي التقطتها من على بسطة عرض دكان بالمدينة آكلة الحياة. وعندما ينضب زادي، سأتحول إلى أقراصي المهدئة نفسيا. بعد بضع ساعات، لم تعد رجلاي تحملاني وكادت دماغي تنفجر...

"الحياة هي القبيح والمليح، الخير والشر..." هكذا يعبّر المفكرون الذين يعتقدون أنهم يحلون بذلك مشاكل الإنسانية. إن ذلك سيكون بالأحرى بـــ... يجب أن نعرف كيف نقدر كميته حتى يمكن تحمل رائحته! أما بالنسبة لي، وباعتبار انعدام كفاءتي في الحساب والتخطيط للمستقبل، فإني أطمح فقط إلى معرفة الأبعاد التقريبية لفراغ أيامي القادمة... إلى حين وفاتي على الأقل.

"والموت، ما هو؟ نهاية؟ بداية؟ خلاص أم سجن؟"

"الاثنان!" يجيب هؤلاء الفلاسفة.

ها أنا أتقدم جيدا!

أفرغت جيوبي، وأخرجت سكينا والبوصلة غير الممغنطة وبعض القطع النقدية إضافة إلى قوقعات وعشر حبات تمر محشوة بالبروتينات الحية، وقطعة خبز، وخمسة أنابيب مملوءة بالأقراص المزّة وأربعة أخرى داخل القماش المضاعف لسترتي. عجنت الخبز بتبليله بريقي، ثم أضفت له مضمون أنبوبين من الأقراص وواصلت خلط الكل حتى تحصلت على خبزة

صغيرة. بعد ذلك، قطعت العجين المحشوّ إلى قطع رقيقة. ابتسمت وأنا أفكر في كعكة الملوك. إني مندهش. لن أفرط في أي فولة؛ سأتوّج، لعدة مرات، ملكا للمخدرات! ابتلعت عدة قطع في لقمة واحدة. إن اللجوء إلى هذا الجبن لا يسرّني أبدا ولكني لا أملك حلا بديلا. وربما أحسست بصورة أقل، وأنا أحلّق في جرعة مميتة، بفلاس العالم وإفلاس حياتي.

كانت كل الأرواح الشريرة تصفر لسفري المُهلوس. وكانت عواصف من الرمل والحجارة ترافقني. كنت أحلق، وأنا أتفادى الرجوم الصغيرة. وعلى مرمى البصر أو الأقراص الملفوفة باللباب، كانت هناك تحويطة مكونة من جدار أبيض صغير. عند اقترابي منها، اكتشفت ميدانا قديما للراحة. كان يرتسم ببطء أمام ناظريّ المخدّرين دائما. كانت القبور تشبه قطع الدومينو المرمية كيفما اتفق على طاولة اللعب. وكان عقلي مغشّى بأبخرة متصاعدة من الداخل، كنت أحس بجسمي يسبح في فضاء لا أبعاد له. "وماذا لو كانت حياتي كلها مجرّد أكذوبة؟" وماذا لو كان ما أعيشه في هذه اللحظة مجرّد ثمرة لخيالي المريض، والأسوأ من ذلك، أن تكون مجرد مكيدة مدبرة من طرف "أرواح" مهيمنة تحاول أن تدرس وأن تؤثر وأن تقود تصرفاتي، رغباتي وأحاسيسي؟ سأكون إذن جزءا من مهزلة، لا أملك فيها، لا حياتي ولا مماتي أبدا. في هذه اللحظة عبرت خاطري فكرة جنائزية: "ماذا لو كنت ميتا، لو لم أعد من هذا العالم دون أن أدرك ذلك؟ مثل شبح يلاحق ذات فكره؟ ألا أكون سجينا في هذا المطهر، ينتظر خلاصا أخيرا؟ كيف سأعرف ذلك؟" هذا ما كنت أتأمله، وأنا أترك جفوني التي غدت ثقيلة جدا تهبط من جديد. انهرت عند حافة قبر مبنيّ حديثا. "وماذا لو كنت لا أنتمي أبدا لهذا العالم؟"

أظن أن الوسيلة الوحيدة للتحقق من ذلك هي أن أذهب لأنظر في هذه المقبرة، وسط القبور التي هي في طور البناء وخربة سلفا. أخرجتني

إرادة مبهمة من غيبوبتي، ووجدت نفسي أنقّب في هذه المقبرة. كل القبور مبعثرة في فوضى جنائزية، لدرجة الاعتقاد بأنه تم دفن الموتى باستعجال: إن الزمن لا ينتظر، وعلى الموت أن يقاوم بقوة في هذه الحقب الكارثية. وعلى الحفارين أن يفكروا في الموتى الذين ينتظرون دورهم. لذا، لم يعد هناك مجال للاهتمام بالتفاصيل. يتم الحفر أينما أمكن ثم: "إلى الموالي!"

كانت أشجار الصفصاف تبكي همّها، ونساء جالسات قبالة اللحود الصامتة، يتأوهن حزنهن لحد تمزيق أفئدتهن المحترقة وجعا. كانت إحداهن تئن: "إن الأحياء في هذه الأماكن، هم الذين يجدون أنفسهم في النار!" ثم التفتت إلي: ماذا جئت تفعل هنا، أيها الغريب؟

– لقد تنقلت بين المدن والقرى، أسأل الناس والعناصر والصخور عن ماضيّ ولم أجد حتى الآن الجواب، ولا حتى علامة! فقط أحلاما غامضة ومرهقة. وعند كل استيقاظ، أخرج ضعيفا، متعبا بسبب ليلة طويلة من الصراع مع مكابداتي.

– ونحن كذلك، إن مكابداتنا هي التي قادتنا إلى هنا.

– أرى أن هناك كثيرا من الموتى بالنسبة لبلدة صغيرة جدا.

امتلأت عينا المرأة دموعا ولكنها تماسكت بشجاعة و قالت:

– نعم، لقد كانت الحرب هنا طويلة وقاسية. حرب لا اسم لها ولا سبب، عذرها الوحيد: الربّ، وهدفها الوحيد: الجنة.

– ماذا يفعل الربّ في هذه المجزرة؟

– لقد تملكوه واستأثروا بمفاتيح الجنة تاركين لنا الجحيم على الأرض.

مازلت مخدّرا بالمهدئات، فلا أعلم إن كنت أعيش ذلك داخليا أو خارجيا. وعلى كل حال، فإن جفوني مازالت مغلقة.

– هل لك أحد مدفون هنا؟ سألتني هذه المرأة الشابة التي شيّبها الحداد قبل الأوان.

– أجبتها: أنا، على الأقل هذا ما أتمناه! ثم أدرت ظهري دون انتظار ردّ فعلها.

"هل أنا في الداخل أم في الخارج؟" لقد غاص شعوري في الرمل المتحرك للخيبة التي ينقلها مخي إلى عينيّ اللتين ظلتا مغمضتين. كنت أتعرّج بين القبور مهجّيا النقوش التي محاها النسيان، كنت أبحث عن اسم: اسمي أنا. كنت أبحث عنه في يأس؛ ولكن، كان ينبغي أن أعرفه حتى أجده، هذا الاسم العائلي؟ كم أريد أن أجد نفسي ميتا! سأكون على الأقل عارفا لمصيري الجنائزي. وعلى الشواهد المتآكلة بعوامل الزمن القاتل، أيقظت بعض الأسماء المسجلة ذكريات. كنت أتقدم متفاديا الحفر المفتوحة والفارغة، ليس لوقت طويل؛ كنت أمشي فوق القبور المبنية على عجل وغير المكتملة غالبا أو المعوّضة ببساطة بركام من التراب.

"إلى الموالي!" هنا يتم الدفن بالنداء والتأبين بالاختزال "إلى الموالي!"

قبالة جدار التحويطة تقريبا، وعلى عكس مستودع الحاجيات الجنائزية، تصطف خمسة قبور في تناظر تام على أرضية من أزهار الحقول! إنها تشكل نجمة، يتوّج مركزها شجيرة مزيّنة، رغم الفصل، بعناقيد مشكلة من كريات صغيرة من الذهب. وعلى جذعها نقشت مرثاة. على آثار الحروف المنقوشة تتحدث دموع من لؤلؤ: إن الميموزا تبكي نسغها. تقدمت نحو الشجرة الراوية، ووضعت نظارتي لأفك ما هو مكتوب على لحائها. وبعينين مغمضتين، قرأت: *السماء اللازوردية تنبئ بيوم صيفي جميل، خمسة مراهقين مملوئين حيوية، وكلهم ابتسام، رحلوا غير بعيد عن مقر إقامتهم. إنهم يحبون الذهاب لاكتشاف الأشياء الجديدة في الحياة: الطبيعة والأزهار، و أخيرا كل المتع الطفولية الساذجة.*

عصبة من الأصدقاء متّحدون كأصابع اليد الخمسة؛ كان بإمكانهم أن يتملوا، من أعالي المدينة، الأمواج المزرّقة التي تمتد على مدى الأفق. كانت المراكب تتموّج وترسم لوحة رائعة بألوان بالغة النعومة، تبدو فيها أيام الأطفال القادمة مدّبجة بالسعادة، و طهارتهم وبراءتهم فيها أفضل الإشارات.

إن المشهد جميل في هذه الحديقة الرائعة. هذه الحديقة التي يستعد فيها كل شيء للاسترخاء والراحة. إنه يوم مثل كثير من الأيام في هذا المصر الجميل. كانوا لا مبالين، كيّسين. كان التلاميذ الثانويون الخمسة، وهم في عطلة، يتسلون بالذهاب، في الظلام، لزيارة الكهوف الجميلة الموجودة في حديقة عجيبة، كانوا ينقبون فيها فقط من أجل المشاهدة. وفي الخارج كان المتسكعون يتلكؤون في هذه الغابة الخضراء، كل شيء هادئ جدا...

يمر الوقت، وتترل البرودة والليل. يبتعد الأطفال الخمسة في تعرجات كهف. كان رجع صدى ضحكاتهم يرنّ على الجنبات الصخرية. كانوا يثبون ويمرحون. وبعيدا تلتقي الألوان المائية المتغيرة للسماء والبحر.

كان الأطفال الخمسة يستمتعون بالتخبط في مياه الأحواض الأرضية، مثل أسماك حرّة، إنهم يطمحون إلى التواصل مع الطبيعة. ويلف الليل المفاجئ هذه الأروقة. كان الوحش القذر، ذو العينين القاسيتين، يترصد وينتظر وهو متربص في عرينه.

تأخرت هذه البراعم الحية في ألعابها داخل الكهف الذي أصبح الآن مظلما تماما. لم يسمعوا الخطوات الصماء وهي تقترب، إن العصابة البربرية تتأهب للضرب في الظلام. في هذه اللحظة، في الخارج، وفي المساكن، كانت قلوب الأمهات تنقبض عند هبوط الليل، توقفت المنابع عن الخرير وكفت العصافير عن الغناء. إن الذئاب الدموية تطاردهم

داخل الأروقة حيث تتردد المخاوف المرعبة. وفي الخارج تأخر الوقت، والصغار لن يعودوا.

لقد كانوا خمسة براعم شابة، في الماضي، وكان الجو مع ذلك جميلا في الخارج. لقد اكتشفهم الصباح الباكر، في مغارة، نائمين إلى الأبد. كانوا خمسة أطفال وهاهم أصبحوا خمسة ملائكة أطهار. وعلى القبور نبتت أزهار، لم تزل مغلقة، ومازالت بكماء أمام نحيب كل الأمهات.

منذ ذلك الحين لم تعد قلوبنا المرضرضة تستطيع أن تسكت عندما تنقلب السعادة الهادئة إلى رعب مفزع. فالحماقة الإنسانية، في نظر كل الأبرياء، تخيف دائما. فبخطأ من، وباسم من حدث هذا الجنون القاتل؟ لقد كانوا خمسة، لقد كانوا مئات، لقد كانوا آلافا. كانوا يدعون "فلان"، أو "فلانة."[20]

عند نهاية القراءة، فتحت ذهني وبكيت.

إن أولياء هؤلاء الشبان الأبرياء موجودون هنا، صامتون، وقورون ومستسلمون. إنهم يفوّضون أمرهم إلى الله. "هل هو موجود على الأقل؟" هذا ما فكرت فيه وأنا أتفادى نظراتهم. عند مخرج المقبرة، جلب انتباهي شيخ عجوز، إنه يشبه شخصا عزيزا عليّ جدا، مفقودا الآن. لقد هزّني التذكر الخاطف لشيخ جليل دُفن في سفح كثيب. أغرق الأسف عينيّ. هذا الشيخ الجليل الذي عشت طويلا معه، ولكننا تواصلنا قليلا جدا. "لماذا يجب أن يكون الوقت دائما متأخرا جدا للقيام به، أو مبكرا جدا للتجرؤ على القيام به؟" غالبا ما نقضي عمرا كاملا بجانب أشخاص نحبّهم

---

[20] - فلان أو فلانة: س أو ص مثل الكروموزومات أو مثل الحرفين 24 و 25 من الأبجدية (الفرنسية)... فلان أو علان مثلي ومثلك!

دون أن نبدي لهم عيّنة من حبنا. وبعد، ولما يفارقوننا، نبكي ونتأسف على ذكرياهم. قلت ذلك في نفسي والحسرات تملأ رأسي.

بكيت كطفل متخلّى عنه. حاولت أن أتمالك حتى لا أصدم الشاغلين للأماكن، ولكن بدون جدوى، مستحيل، كان الدمع يتدفق سيولا. كان الشيخ واقفا مستقيما جدا بالنسبة لسنه، في أعلى الدرب الموصل إلى الباب المشبّك للمقبرة. كان محاطا بخمسة مراهقين جالسين على حجارة القبور. لم يكونوا يتكلمون، بل يوجهون أعينهم نحو قبورهم. منذ متى وأنا هنا؟ منذ عدة أيام بالتأكيد. إنهم ينتظرون دورهم بكل صبر، هذه الطريقة في التعامل تسمح لهم بتفادي المصير القاسي والأكيد الذي ينتظرهم في الخارج. فلمغالطة الموت،يجعلون أنفسهم أمواتا إلى حد الموت. والمداح العجوز ينشد شكاة مؤلمة:

بسبب من وباسم من؟ تنتهي الأزهار دائما بالذبول بين أيدي الناس الطاهرين حتى ولو سقوها النحيب.

بسبب من وباسم من؟ تشرق الشمس متأخرة جدا على المهمّشين، ولا تدفئ أشعتها كل القلوب بعدالة.

بسبب من وباسم من؟ تتشابك أحيانا الطرق المتعرجة وتجد نفسها محجوزة في أزقة الممنوعات والشعوب.

بسبب من وباسم من؟ تتوقف الأمهات عن الغناء عندما يهبط الليل، ولّما يعد أبناؤهن. ويتحول غناؤهن إلى شحوب.

بسبب من وباسم من؟ تبكي الأمهات كائنات عزيزة ترقد في القبور البكماء؟ وعلى بكائهن يرد الصمت الأصم اللعوب.

بسبب من وباسم من؟ يذبح الجنون القاتل لدى البعض السعادة البسيطة للآخرين، ويحوّل الفرحة الهادئة لهول غضوب.

بسبب من وباسم من؟ ينتصب الشك وتختلط الأفكار. ويبهم تمييز الأشياء فلا يطاع سوى الاتفاق الرّعوب.

بسبب من وباسم من؟ يتحول جشع بعض الناس إلى فضيلة، وبمأساوية أكبر، يستولي هذا الطمع على أكاليل الشرف العذوب.

بسبب من وباسم من؟ يتزاوج الشر بسهولة مع الخير، وتنسى القيم أرقامها بمعناها الكذوب.

بسبب من وباسم من؟ يحتكر المغتصبون الإله بهدف تثمين تصرفاتهم المحتالة اللغوب.

وينهي شكاته بذكر اسم الله ورحمته؛ ويلتفت العجوز الزاهد نحوي:

- السلام عليكم.

- أجبت على استحياء، سلام.

- أمازلت تؤمن به؟

ترددت في الإجابة، لعدم الاطمئنان بسبب الظروف، ثم آثرت الصمت. هذا التبادل المختصر بين المارق الضال والمكره على المنفى الذي هو أنا، وبينه هو الورع المتشبع إيمانا وتسامحا، كان قد استفهمني "أمازلت تؤمن به؟" لم أكن أريد التلفظ بعبارة يمكن أن تكدر معتقدات هذا الشيخ الجليل. إني أحترم كثيرا المتعبّدين ولو أني أحيانا أنتهي إلى السخط من تسامحهم الساذج الذي يعكس في نظري تبرئة سهلة الحصول جدا بالنسبة للأشخاص القابلين للتجريم.

نظر إليّ الرجل العجوز برأفة، وأجاب على صمتي المنافق.

- بسبب من وباسم من؟ الله؟ هل هو مسؤول عن عالم بهذه الغرابة؟ ألا ترى يا بنيّ. إني أفضل أن أعتقد أنه مشغول بتفتيح الورود وتبسيم الأطفال وإشراق الشمس وإنزال الشفق ونفث النسائم وإشعال

النجوم في السماء العلياء وتحويل الصحاري وتثبيت البحار. نعم، ذلك ما أفضل الاعتقاد بأنه مشغول به، لكن لا أن يتحمّل على الأخص وعلى الدوام أعمالنا.

استأنفت الرحيل وأنا مطرق إلى لأرض.

وأنا أغادر هذا المكان السقيم الذي يأتي إليه الناس ليتأملوا مصيرهم بإحصاء موتاهم بدقة، ميّزت شبحا مريضا مقرفصا قرب مخرج المقبرة. كان يرتدي قميصا غليظا، طويلا ووسخا. لم يبق من جسمه سوى الهيكل، أصابعه المعقوفة أنهكها داء المفاصل. ووجه الرجل محفور بالتجاعيد. في داخل إحداها، تختبئ عينان صغيرتان سوداوان يعلوهما خطان أشعثان يقطعان جبيناً عريضا ومثقوبا في وسطه، وشعر شائب أشعث يكمل البنية التي يرثى لها. لقد عرفته مباشرة رغم خرفه السريع جدا. ولكن ماذا فعل حتى يشيخ بهذه السرعة؟ لقد ابيضت لحيته الشعثاء، و لم تعد شفتاه الرقيقتان تخفيان أسنانا. ولكني متأكد، إنه فعلا هو: "الرجل ذو القميص". هكذا كنا ندعوه، ولكن أين التقينا قبل؟ هذا مالا أذكره. كل ما أعرفه عنه هو أنه يجمع كل العيوب التي يمكن أن تخترعها حماقة الإنسان. لقد كان أحد مجاذيب الله المتحالفين مع الشيطان؛ أحد هؤلاء المأفونين الذين يؤججون نيران جهنم بعظامهم المرائية المحرقة. إن مظهره التائب المتندم الآن أبعد من أن يكون مقنعا.

وجدت أنه تغيّر بشكل غريب. لم تعد له أظافر في أصابعه، و لم يعد عنده سكاكين مشحوذة على الجنبين و لم يعد يحمل حقدا في نظرته. لم تعد له خصيتان ليقف مستقيما. لم يبق له سوى نداماته دون أي حظ في التكفير. إن هذا القدر من المهانة، مثل كل من يشبهه، إنما هو نتاج يمين حانثة لنظام وراثي ضار، هو نفس هذا النظام الذي يرفضني أنا أيضا!

بمجرد رؤيته. أصابتني روائح عفنة لقنب هندي، وإحساس غريب بالرهبة، بالدوار. كان جالسا على الأرض مباشرة، عند مدخل المقبرة. كان يتوسّل العفو من المارة. وكان زائرو الجثث يمرون دون أن ينظروا إليه؛ و تبقى يده الممدودة معلقة بشكل مخجل و فارغة، فلا مبالغ ولا مغفرة تأتي لتدفئة هذه اليد التي لا تزال ملطخة بالدم. ويتمتم العجوز التافه في لحيته الكثة عبارات اعتذار للأحياء ودعوات بالرحمة للأموات. وكان يقول أيضا لمن أراد أن يسمعه أنه مستعد للموت على أن يتم العفو عنه. ولكن "من هم على قيد الحياة" لا يجيبونه، إنهم مستعجلون للدخول لزيارة من "لا حياة لهم" أما الهالكون فهم أكثر علما. لقد أجابوه: "إن الموت لا يمحو أعمال الأشخاص، إنه يوقفها فقط!" لذا، فإن "الرجل ذا القميص" الذي أصبح عجوزا يواصل بدون تعب توسلاته من أجل غفران أخير.

ولكنه أصبح أكثر غباء من ذي قبل. إنه لا يسمع الأموات أبدا إذن! إنه لا يدري أنه عندما تنتهي التأنيبات من معاقبته، يبدأ عندئذ عذابه الحقيقي. هذا ما فكرت فيه. كنت أرغب في أن أقوله له، ولكني لا أفعل. فأنا ربما لست هالكا مادمت أعيش حياتي القـــ. حياة المعذب. إني أسال الله الغفور شيئا واحدا: هو أن لا أعود للقائه، حتى في الجنة!

اقتربت منه، لأن التشدد، في النهاية، لا يعطي مظهرا جميلا. لاحظت أنه أصبح تقريبا أعمى، باهت السحنة؛ ونحالته المذهلة جعلت منه شخصا ميتا-حيّا.

سألته وأنا أنظر إليه نظرة باردة: ولكنك متَّ؟

– من أنت؟ ناح تقريبا من الخوف.

– أنا، لم أعد أدري، ولكن أنت، الآن تذكرت أين كنت قبلُ... في النقطة ب114، في مقهى الانترنيت.

– ... ب114، نعم... ومع ذلك، فأنا مازلت هناك. إنه اسم هذه المقبرة.

لم يصدر مني أي ردّ. لا أريد أن أردّ. وفي كل الأحوال، ماذا كان ينفع أن أرد؟ لم يبال الرجل ذو القميص تماما بشخصي، والتفت. وكان إلى جانبه، شخص ممدد على الأرض لا أرى منه غير رجليه، في حين اختفى أعلى جسده خلف القبر الذي يجلس عليه الأشعث. استأنف مناقشة كانت بالتأكيد انقطعت بتدخلي.

– لم أكن أفكر أن أسبب لك كل هذا الشر، ولكن سلوكي كان مملى عليّ، لقد كان مكتوبا، وهذه المكاتيب لا تقبل المحو. إنه القدر، في النهاية. يجب أن تفهم ذلك؛ وأن لا مفر لأحد من القدر!هذا ما قاله الأشعث للرجل الجالس، بنبرة في حدود الاعتذار.

لم يصدر أي ردّ فعل من رفيقه، رفيق القبور، ولكنني أفترض أنه كان يفكر: "مهرب جميل هو هذا المكتوب البغيض. كل حسناتنا وسيئاتنا مبررة به. والضمير، أين هو؟ ألا مكان له في هذا المقدور الإلهي؟"

يواصل الرجل ذو القميص مرافعته المريبة.

– وبعد، إذا كان حقا شرا ما فعلته لك، ما كنا لنجلس معا، ننتظر دورنا لتقديم الحساب عن ماضينا، على أبواب الجنة، أليس كذلك؟

انطلق الأشعث، مدفوعا بشعوره بالذنب، في أدعية كان يريدها مقنعة. وأخذ يشرح للشخص الجالس بجانبه بأن قناعته هي التي دفعته للتصرف بتلك الطريقة، وبأنه لم يعد يحتمل رؤية عالم أصبح فجأة مختلفا بالنسبة إليه! رغم أن هذا العالم كان عالمه قبل! وقال إن أنظمة مستخفة جدا وانتقائية كانت قد لفظته هو وكل عشيرته. ووجد نفسه مهمّشا، في معزل مظلم ومبلط لا شق فيه حتى لإمكانية دخول الشمس. وأن أناسا جاؤوا يعرضون عليه نورهم. وكان يدعي بأنه عندما يكون طعامنا

الحقد والتخلي، كيف يمكن أن نفرق بين الحامض والحلو؟ ويكرر أيضا بأنه ليس هو الذي بذر الحقد، وأنه ليس سوى حصاد وثمرة مرّة لثورة. وكان يروي أيضا أن أناسا منوّرين، كانوا قد وعدوه بأيام أفضل في مكان آخر، في جنان الخلد، إذا اتبع طريقهم المتمرّد الذي آمن به كالأعمى في النهاية. فأمام انعدام البديل الذي كانت تقترحه عليه الحياة، انتهى إلى الالتحاق بمبشّريه في معاقل الجهل حيث كان يتم، سرا، تحضير الأهوال والعار لمستقبل مضن ومحبط...

لم أكن لأبالي بخطابه المعقد. ولم أفهم منه سوى المضمون: الظلامية. وقد ظللت منغلقا تماما مثل محاوره الأخرس دائما. وبعد لحظات، أوقف الرجل مبرراته، ليس لأخذ نفسه، ولكن ليرصد أيّ رد فعل. ومرة أخرى يجيبه صمت محزن. وأمام الصمت المزعج والمحنق لرفيقه، صعّد من نبرته ليقول:

– قل أي شيء على الأقل! قل لي ما هي فكرتك عنّي، عنّا، عن كل ذلك؟ لا يمكن أن أتركك هكذا قبل أن أذهب إلى الجنة!

لم يكن بإمكان ضحيته، الجالسة بجانبه، أن تجيبه. لقد كانت مقطوعة الرأس... وهمس المرشّح للتوبة لعنة، في لغة أسيء فك رموزها.

إني أبغض هذه الشخصية وأحتقرها بكل ما تبقّى لي من شجاعة وذكاء. رباه! لماذا خلقتنا أحيانا مختلفين جدا، وأحيانا جد متشابهين. لنقل أنه كان يمكن أن أكون هو. لا أريد أن أوقف سفري هنا. وبالأخص، أن لا أجاور هذا الشخص؛ ومن جديد، قطعة، اثنتان، ثلاث قطع من خليطي المحشو بالمخدّر، وها أنا أتهيأ لاستئناف طيراني: *"سنذهب جميعا إلى الجنة، سنذهب، مع القديسين والمجرمين، مع نساء المجتمع والعاهرات. إلى الجنة سنذهب؟"*

أخذت أدندن وأنا أتمنى أن أخطئ في كلمات الأغنية. وانغلقت عيناي.

اطمئنوا، هناك الأسوأ!

استيقظت من غيبوبتي على يوم فرضت فيه الشمس الصيف، في موسم خاطئ تماما؛ فالجو حار وبارد في الوقت نفسه. والمحرار يلعب لعبة يو-يو مع الزئبق في كل مرة تحجب فيها سحابة وجه الكوكب. مرة أخرى تتغير الديكورات؛ غابت المدينة آكلة لحم البشر، والقبور...إن ما يستقبلني الآن هي حديقة ريفية. إنه بستان كبير، يبدو مهجورا. كل الأشجار فيه مقطوعة من الجذور، بعض الشجيرات الشوكية معلقة هنا وهناك فوق عشب غدا بدون معنى وبدون نظام. كأن زوجا من العواصف قد تزوّجا في هذا الحقل. فلا شيء بقي في مكانه، وعلى كل الأحوال فإنه لم يبق أي شيء. وحتى باب الدخول الحديدي المصنّع تم اقتلاعه. يبدو، في هذا المكان، كأن الطبيعة أنجبت أدواقا الذاتية للتهديم: الزمن والعناصر.

نظرا لتعبي من مشواري[21] الذي لا ينتهي، والذي لا طائل منه حتى الآن، بحثت عن مكان أستريح فيه. ضمّني مقعد متقلقل كمضجع؛ ومن ثمّ، وأنا مضطجع، رحت أتأمل بعيدا أطفالا يلعبون في جلبة، وضحكاهم الرنانة تتردد في هذا الحقل المذعور. لقد فعل فيّ حضورهم فعل فقعة هواء منعنعة تحيي الأماكن. "بسلام، يتلاعب الأطفال

---

[21] - مشوار: سفر على " الخطوط الجوية المحطمة "، شركة لا تضمن العودة أبدا!

اللامبالون هناك، بسلام..." هذا ما فكرت فيه وأنا أشاهدهم يثبون وسط الأعشاب المجنونة والشائكة. وفوق رؤوسهم الصغيرة، خلف ستائر الغمامات المتنقلة، تظل الشمس دائما هناك.

وغير بعيد، يبدو الأولياء أقل حبورا. كانوا مستسلمين. يشاهدون، في سلبية، أبناءهم وهم يلعبون بسذاجة، سائلين السماء أن تحفظهم من نفس القدر الذي لا يتوقف عن إرهاقهم.- هي حياة تشبه محطة بحرية دون بحر: بدون جوهر أساسي — وعلى الجادات العريضة للحديقة، ترى فتية بعيون متعبة وفكر مجهد، يقتلعون بأيديهم العارية ثمار الصبّار ليزدردوها بشراهة بقشرتها الشوكية. يبدو أنهم يستمرئون هذه الشعيرة الماسوشية بتلذذ مقرف. وطالما لم يُتخموا منه، فإنهم يشعرون بحرمانهم، لذلك فإنهم يُتخمون به، فتملأ الأشواك أفواههم وأنوفهم وأيديهم؛ ثم يشمئزون فينهارون على الأرض، باسطين أيديهم نحو أشجار الصبار البري.

لا زلت أتابع، وأنا متمدد على المقعد العمومي، هذه المشاهد دون أن أتحرك.

هل هي ارتدادات الأقراص "المزّة" التي قذفتني مرة أخرى، على ضفاف افتراضية حقيقية؟

في هذه الحياة، هناك أحداث معيشة قديمة إلى درجة التساؤل دائما عما إذا كانت موجودة حقا، وفرضيات تبدو لنا واضحة إلى درجة الاعتقاد بوجودها. ربما على هذه الحدود الدقيقة التي لا تفصل الخيال عن الواقع، والفوضى عن الانسجام، والسخرية عن الاحترام، يجري تاريخ الإنسانية. عند الحد الذي وصلت إليه، لا يمكنني، بصراحة أن أحدد الفرق، لذا أعود إلى النوم:

عندما تستولي علينا عوامل الزمن مثل أوراق الوردة الذابلة يتحتّت وجودنا قطعا كاملة، ويتركنا عراة وبدون حماية، تحت رحمة الجارسات التي تمتص رحيقنا وتضع قدرنا مكانه. وهكذا يتعرى كل واحد منا كما تتجرد زهرة اللؤلؤ تحت صدمات الوجود.

"أبدا" قال الرجل الشاب الغاضب وهو ينزع الورقة الأولى للزهرة الهشة. "أبدا" غير راض بكل ما هو سيء في حياته الكئيبة. "أبدا"، ردّدها، وهو غير مسرور من القطار الذي يمر دون أن يتوقف ليأخذه نحو آفاق جديدة تلوّح له بها أحلامه. هذا القطار الصباحي السريع يتركه مسمرا على الرصيف مثل آلاف الشباب الآخرين الذين لا آفاق لهم. سيعود في الغد، بدون حقيبة، للمرة الأخيرة، وإذا لم يتوقف الرتل فسيرمي بنفسه على سكة اللامبالاة.

"قدر قليل جدا" من الحب والحنان، تتحسر المرأة لعشيقها وهي تعري الزهرة من ورقتها الثانية البيضاء كاللبن. "قدر قليل جدا" من الاعتراف والعطف، تتوسل إلى والدها الذي شاهد مولدها، والذي يفرّق بينها وبين الذكور الآخرين من عشيرته. "قدر قليل جدا" من الاستقلالية والتفهم، تطلب من إخوتها الذين يرون فيها أقلية مزعجة! "قدر قليل جدا" من المساواة والاحترام، تتضرع السيدة.

"قليلا" يقدّر الشيخ وهو يحذف النصل الثالث الذابل مسبقا. "قليلا" من الشفقة وأقلّ من اللامبالاة، يطالب هذا الشيخ ذو الشيخوخة المتقدمة لدرجة أنه يزعم الدفاع ضد هذه الحياة التي ألقته كما نلقي شيئا لم يعد صالحا أو أصابه التلف. "قليلا" أكثر من الوقت، يدعو وهو مهجور على الطريق.

"كثيرا" يتمنّى، دون قناعة كبيرة، رب العائلة وهو ينزع عن الزهرة ظفيرها الرابع الصقيل. "كثيرا" يطلب هذا الكادح المنهك براتب

بؤس. إنه. يطالب بأكثر "كثيرا" جدا من الصدقة لكشف راتبه البائس الذي لا يمكنه حتى أن يميته، من العار أكثر من الجوع.

"بشغف" يتأجج هذان الزوجان الشابان المرتبطان حديثا واللذان لا تزال براءتهما بكرا. "بشغف" تتحمّس هذه البنت الشابة وهذا الشاب وهما يخلّصان زهرة الربيع الجميلة، من الورقة الخامسة البيضاء. "بشغف" ينطلق الاثنان في وجود مشترك، بعزم وحب، غير مباليين بنظرات الآخرين، وبمودة بالغة تجاه بعضهما. "بشغف" يرغبان أن يعيشا حبهما البريء الحديث الولادة.

"إلى الجنون" يصرخ هذا المعتوه الذي يتسكع في شوارع المدينة، وهو يقتلع آخر ورقة من زهرة اللؤلؤ. لقد أسقطته الحياة من ذاكرتها وأسقطته من ذاكرته. "إلى الجنون" يصيح داخل رأسه، وهو سجين هذا العالم المجنون. "إلى الجنون" يقهقه، وهو يرى المتسكعين يشيرون إليه بالبنان ويسخرون منه.

كنت. وأنا جالس على مقعدي، مغمض العينين، أحس بقدوم المساء. فكل يوم ينقضي، يقضم أكثر قليلا من أمل العثور على ذاتي، وعلى العكس، يدفعني أن أذهب للبحث دائما في أبعد مكان. إني أبحث عن كل شيء رافضا فتح عينيّ بقوة، ربما الخوف من الفشل هو الذي يمنعني من التقدم بعزم؛ عزم يؤازره خبزي المحشو بالأقراص. ويمرّ الوقت، غير قابل للحساب، تارة مضغوطا وتارة ممدّدا. لقد طلع النهار، ربما توصلت، حتى بعد عدة ليال، إلى مغادرة الحديقة المخرّبة لمواصلة ترحالي. بملاصقة الحديقة، كانت تنتصب قرية، قرية أخرى. عبرتها عبر الشارع الوحيد الذي يقسمها إلى نصفين. إنه فارغ. كان مهجورا إلا من الأشجار المسكينة التي تحدد معالم هذا الممر الأغبر. وعلى أغصان أشجار السنط، تتدلى حبال تنتهي بعقدة متحركة. "ما أغربها من ثمار في

هذا الفصل!" قلت ذلك في نفسي قبل أن ألحظ دكانا قديما خربا محصورا بين بيتين صغيرين منهارين. إنه الدكان الوحيد المفتوح. جازفت بالدخول في حانة تعج بالشبّان ذوي الوجوه الزغباء. في الداخل، يسيطر صمت يدعو لربط الرقبة بإحدى هذه الثمار البشعة التي نمت على هذه الأشجار المشؤومة. كان المراهقون، الجالسون حول موائد مخلخلة، والفارغو النظر، يغرقون بطونهم بالجعة الحارة. وعند أقدامهم، تستقر نرجيلات، على الأرض الرملية، تطلق دخان النسيان، ورائحة قنبّ هندي تملأ جو المكان الخانق حزنا. بدت لي القاعة كبيرة بإفراط؛ وفي العمق، لفت انتباهي فوج آخر من الشبان. تقدمت نحو هذا الجزء المظلم من المكان المتعفن. كانوا وهم جالسون حول طاولة، يبدون يلعبون، ولكن مظهرهم ينم عن وقار مقلق، تقدمت وسألت: ماذا تلعبون؟

لعبة من "يخسر يربح"... أجابوني جماعيا ودون اكتراث.

– هذه لعبة سهلة يكفي أن أخسر. قلت متعجبا وأنا ألاحظهم بطرف عيني. إن هؤلاء الشبان يحيّرونني، لقد سبق لي أن رأيت هذه النظرة... الحزينة، الفارغة... اليائسة.

ليس بديهيا أن تخسر. قالت كل الأصوات في وقت واحد.

– حسنا ولماذا؟ ربما توجّب العمل قليلا فقط لإذكاء النحس وتخسر، أليس كذلك؟

– ليس بديهيا، وعلى كل حال سنكون دائما خاسرين.

تتصور أنك في جوق، إنهم يجيبون دائما معا وبنفس النغمة أحادية الوتر.

– إذن أنتم تربحون فحسب؟

– إذا أمكن تسمية ذلك بالربح، إذن، نعم. المهم، أننا نربح في من"يخسر يربح" إذن نحن نخسر!

– إذن، إن فهمت جيدا، فإن لعبتكم تتمثل في أن تخسر لتربح، وفي أن تربح لتخسر؟

– تبّا لك، لا تهمنا فلسفتك، نرجو فقط أن نخسر لنربح! أجابوا جميعا بصوت واحد.

بعد ذلك، سكتت الأصوات في آن معا. وحل صمت محزن في القاعة. انحنى الأكبر سنا من هؤلاء الشبان ليأخذ شيئا أسود من المحفظة الموجودة عند قدميه، ويضعه على الطاولة، إنه مسدس. وغريزيا، رجعت خطوة إلى الخلف، ولكن المراهقين طمأنوني بابتسامة مغيظة، وأعلنوا جميعا: إننا نلعب لعبة العجلة الروسية.

ورأيتهم، كل بدوره، يجربون حظهم. هذا الحظ الذي لا يريدون تضييعه. فبوضع الأصبع على الزناد، وإسناد الماسورة جيدا على الصدغ، يقومون بهدوء وبطء بإغماض العينين عندما تتشنج السبابة ثم تنكمش على الزناد. فإذا لم تخرج الطلقة ويفرقع الكلب في الفراغ، يسلّم السلاح للموالي. وبدون ملل، يمرّ المسدس المعبّأ برصاصة واحدة من يد إلى أخرى. وعلى مدى متابعة اللعبة المميتة، تتغيّر الوجوه على إيقاع فشل الانفجارات. إن هؤلاء الشبان يحاولون الانتحار، مناشدين ضربة حظ. ولكن يبدو أن هذه البركة القاتلة تفرّ منهم باستمرار... بل ليس من الجميع؛ فأحيانا تسمع انفجارا، وتصيح أصواتهم الكئيبة في تناغم "محظوظ! لن يبقى إلا الكلاب"

عبرت ذهني فكرة سوداء؛ وماذا لو جلست إلى طاولتهم؟ باعتبار أنه لم يبق لي ما أخسره أبدا. أنا أيضا أريد كسب حظي. طبعا لقد خسرت في لعبة من "يخسر يربح"[22] لا حظ لي. اللهم إلا إذا كان

[22] - ملاحظة: تفادوا خاصة اللعب، قد يكون حظكم أوفر مني.

الانتصار في هذه الحياة القـــ. يستلزم عدم اللعب؟ فالحياة غالبا ما تتقبل الخسارة على مضض!

في مقمرة اليائسين هذه، تهبط الليالي بسرعة أكبر. وهي أقل عددا من الأشقياء اللاعبين لعبة من"يخسر يربح". عند الخروج من خمّارة الفاشلين المعاندين، قررت التوقف قليلا. فأنا منهك وخائب بسبب فشلي المتتابع. فحتى هذه اللعبة المميتة للعجلة الروسية، خرجت منها حيا! إن فكرة قضاء عقابي المؤبد تمنحني الرغبة في الموت، ولكي أساعد نفسي على التغلب عليها، أخرجت من جيب سروالي كمشة أقراص مهدئة ومحنقة، مزّة وحلوة. بعد ذلك ببضع دقائق، ها أنا أترنح وأتثاقل في وسط الشارع الكبير. كنت أمشي منحرفا، متنقلا من شجرة إلى أخرى، محاولا إمساك الحبال المتدلية لألفها حول رقبتي. حاولت بيأس،على مدى مائة متر قطعتها متعرجا، أن أقطف هذه الثمار الكئيبة والمنقذة. أتعبني هذا التمرين وانتهيت بالانهيار على الغبار، مادا أطرافي الأربعة، وأنا أحاول استعادة نفسي. كان كل شيء يدور حولي: البيوت الخربة، الأشجار ذات الحمضيات الشانقة، الشارع، الغبار، وأنا في عين إعصار. إن هذه الأقراص الملعونة تضعف ردود أفعالي، حتى أني لا أستطيع الوقوف من جديد.

بعيدا، عند طرف الطريق، سمعت مذياعا يذيع بصوت عال خطابا مطوّلا، يصيح بقوة على سكان هذه القرية. كان من شأن هذا الخطاب المضخّم بمكبرات الصوت، أن يقلل من شأن حياة العراة ولاعبي العجلة الروسية. وحتى أسمع جيدا ما يقوله هذا المعتوه، تقدمت وأنا أزحف نحو مجموعة من الأشخاص. كانوا جالسين تحت شجرة

العُقد المتحرّكة؛ وكان معلقا بأحد أغصانها الرقيقة مكبّر صوتي ينفث الإرشادات الخناء:

لقد خسرتم الآن "كسب قُتاتكم"[23] إنكم مفلسون مثل جيب متسوّل. لم يبق لأطفالكم ما يقتاتون به. ورب عملكم يجبركم على الحمية، لا يهمه إذا كانت الحاجة تترصدكم. غادروا باب مصنعه الخاص بصنع الخرق، مطأطئي الرؤوس، والمستقبل في مهب الريح، ولكن...اطمئنوا، هناك أسوأ! هناك أشخاص لم يكن لهم الحظ أبدا في الحصول على عمل، ولسوء الحظ بتضييعه بعد ذلك، هذا مرعب لهم. إنهم لا يعرفون ماذا يضيّعون: أنتم على العكس، تعرفون ماذا انتزع منكم. وهكذا فعندكم على الأقل، سبب للغضب.

إن الداء اللازب الجلدي يأكلكم. والأطباء لم يعودوا قادرين على عمل شيء كثير لكم، ثم إنه لابد من المال لتغذية هؤلاء الأطباء وشراء الأدوية... لذا، فإن معالجيكم يكتبون على الوصفات المقدمة لكم: اطمئنوا، هناك ما هو أسوأ! هناك جُرب، عُمي، لاحسو قصعة يعيشون على جزر ضائعة. ومع ذلك، فهؤلاء الأشقياء مسرورون لأنهم يعلمون بأن هناك، في جزيرة مجاورة جدا، عميانا، لاحسي قصعة، وفوق ذلك ألم أسنان، إذن، أنتم! كونوا عقلاء، انظروا حولكم، واطمئنوا، هناك الأسوأ!

إن كوخكم الخشبيّ حصدتــه الآليات! وسيبــني أناس المديــنة الكبيرة قاعة سينما مكانه؛ سيأتي إليها أشخاص مثلكم لمشاهدة أحلامهم مسقطة على شاشة بيضاء. إنكم وعائلتكم تحت المطر، والسحب الداكنة هي سقفكم الوحيد. إن الممثلين الذين يلعبون في الفيلم المعروض على القماش الأبيض ينادونكم ليعلنوا لكم: اطمئنوا، هناك الأسوأ! لقد

---

[23] ـ كسب فتاتكم: عمل قليل المدخول يسمح لكم بالعيش على فتات الحياة.

لعبنا في سيناريوهات أكثر كارثية من هذه، كان فيها الأبطال مغمورين بالبحر أو مدفونين تحت أنقاض بيوتهم. أما أنتم، فإن لكم حظا كبيرا، لقد تمّ إخراجكم قبل الهدم.

إن نساءكم وأطفالكم قد تخلوا عنكم لأنكم أصبحتم بدون عمل، لم يعد لديكم سقف، ولم يعد لديكم مال. أنتم محكوم عليكم. لقد هجروكم وأنتم، بسبب الضيق، تحتضرون على الرصيف. ودون أدنى شفقة، ذهبوا للبحث عن شخص آخر أفضل موقعا. سيصبّركم المتسكعون العابرون قائلين لكم: "اطمئنوا، هناك الأسوأ!" هناك أناس لم يسبق لهم أن فرحوا بأن كان لهم أولاد مشاغبون فضلا عن النساء، بسبب عجزهم؛ نعم سيدي! إنهم عقيمون وقضيبهم مرتخ! إنكم محظوظون، مقارنة بهم. لقد كانت لكم عائلة طيلة زمن. والآن، إذا غادروكم فلسبب وجيه. الحساب جيدٌ! وبعد، اطمئنوا، هناك الأسوأ!

إن أصدقاءكم فارقوكم، إنكم تفوحون بؤسا ومرضا، لقد خافوا من العدوى، خاصة عدوى البؤس. لقد قالوا فيما بينهم: طبعا ليس لكم حظ، ولكنه قدركم الذي أراد ذلك. ثم إنه لا أحد يستطيع أن يفرّ أو يعدّل قدره، وأقل من ذلك أقدار الآخرين، إذن، إنهم لا يستطيعون فعل أي شيء لكم. وقبل أن يبتعدوا نحو لقاءات أخرى مثمرة أكثر، فإنهم ألقوا إليكم من الرصيف المقابل: "اطمئنوا، هناك ما هو أسوأ! كثيرون عاشوا دون أن يكون أحد إلى جانبهم، دون أصدقاء. كانوا يجدّفون وحدهم طيلة حياة محزنة مجردين من أي عشيرة، لا يرافقهم عند مماتهم سوى كليب يتبع آثار خطاهم. في حين أنكم أنتم، كنتم أغنياء بالأصدقاء. ما هـــذا، انظـــروا، لا تنتحبوا!"

اطمئنوا، هناك ما هو أسوأ...

تساءلت، وأنا مازلت مضطجعا في قلب الشارع، وفمي مملوء بالغبار، عيناي غارقتان في الخوف، وأذناي مملوءتان بالسفاهة، ماذا أفعل في هذا العالم؟ هناك لحظات كنت أفضل فيها الاستيقاظ وأنا في قبر. كنت أعتقد أني شاهدت كل شيء، وعاينت كل شيء، ولكني جد مستغرب لعلمي بأن "أسوأ وأكثر خطورة" يمكن أن يحصل لي! أيّ حياة...! ألا توجد حدود *للأسوأ؟* ففي الوضعيات المتطرفة، والميؤوس منها، حين تتدهور الأشياء أكثر فأكثر، نطمئن أنفسنا بالتفكير في أن هناك أسوأ، لماذا نرضى دائما بمجرد علمنا بأننا لم نبلغ بعد قاع الهاوية التي لا قاع لها؟

انطفأ النهار، وعاد الشارع خاليا من الإحساس مثلما كانت أصوات المكبرات.فتشت أصابعي في جيوبي: قطعة، اثنتان، ثلاث قطع من اللباب المحشو بالأقراص، ابتلعتها لقمة واحدة: كم من الزمن سيستمر سفري مع الأقراص؟ استأنفت الطريق، بالزحف أولا، ثم على أربع، وبعد ذلك على قدميّ.

وجدت نفسي في مخرج المدينة؛ لقد علّمني مُرسلوها، منذرو الشؤم، شيئا: إن بعض الأشخاص لا يكتفون إلا بالمز؛ أما الحلو فلا تفكر فيه أبدا. ربّما تم فطامهم عن كل أمل؟ وربّما لم يغرسوا فيهم إلاّ اليأس فقط؟ إن الحياة أحيانا مدرسة غرور! عبرت الجسر الذي يتخطى واديا جافا. أريد أن أغادر هذا المدفن حيا، في أسرع وقت ممكن، بعينين مغمضتين! وعندما تندثر الآثار سأفتحهما. ليس قبل! مشيت كالأعمى إلى حد أن تطهّر أنفي تماما. لا أريد أبدا أن أشم رائحة الشجيرات الشوكية، ولا أشجار الصبار، ولا رائحة أوراق أزهار اللؤلؤ، و أقلّ من ذلك أن أنظر داخل محافظ هؤلاء الشبان "خرق الأرض" شبان المقمرة.

برج بابل

وأنا أسلك طريقا معبدة تتجه نحو الجنوب، حسب بوصلتي التي لا تزال غير ممغنطة، لمحت بناء ضخما أمامي. كان عاليا لدرجة أنني كنت مجبرا على قلب رقبتي نحو الخلف. إنه حصن ضخم، ولكن لا نافذة .إنه يتموضع هنا، وسط الطبيعة كلعنة في يوم احتفال مقدس. إن الناس الذين أقاموه، كانوا يريدون بالتأكيد بلوغ الله. كانت الطوابق الأخيرة لهذا البرج تخترق السماء لتغيب بعد ذلك في تلبّداتها. وكان سرب من الطيور، سوداء الريش، يحلق على شكل دوائر حول هذا البناء العظيم. فجأة أمطرت السماء حجارة. اختبأت تحت رواق العمارة لتفادي الرجم بهذا الوابل من الحجارة، جلبت انتباهي كتابة على باب الدخول الكبير، وبحروف من دم: "مدينة العلم" كانت البناية قديمة جدا، وتبدو مهجورة منذ مدة طويلة. أصبت بغيبوبة، واستبد بذاكرتي الهيجان. وأخذت الأضواء الخاطفة تنير بالتناوب مقاطع تاريخ هذا البرج. لست في حاجة للدخول حتى أعلم، لأن مشهدا ناريا على الواجهة الدكناء تكفل بنقل حوليات ناطحة السحاب هذه التي لا نوافذ فيها: لقد مضى على ذلك زمن طويل، ففي 25 أفريل2050 أقيمت أول جمعية خارقة للعادة لعلماء الأمة. تشاور فيها كل الرؤوس المفكرة حول الجلسات الأولى للميثاق العلمي للبلاد. كان هدفهم: إيجاد حل للتواصل مع التجمعات الأجنبية. فعلا، فبسبب الأنظمة المختلفة المسيّرة، بقي هذا البلد، طيلة

جيلين، مسجونا ومنغلقا على نفسه. وكان لزاما على المسيّرين الجدد أن ينفتحوا على بقية العالم مع خطر الزوال. فقد كانت العولمة في كل مكان، عدا هذا البلد، وكانت تلك النتيجة الحتمية للتقدم!

بمناسبة هذا الاجتماع الأول و التاريخي، كانت كل العلوم ممثلة؛ وللعلم فإن كل الشخصيات الحاضرة كانت متخرجة من أفضل الجامعات والمدارس الكبرى، ومؤسسات أخرى في البلاد. كان هناك مشكل واحد صغير؛ كان يمكن أن يطرح من أجل السير الحسن لهذا الاجتماع: اللغة التي تستعمل ليفهم الجميع جيدا. فقد كان، منذ مدة، لكل علم تعبيره اللغوي الخاص، فالأطباء كانوا يشرّحون الفرنسية، والمحامون يترافعون بلغة عربية سريعة. أما القضاة فقد كانوا يحكمون في عربية مهذبة، بينما كان الفيزيائيون يشكلون معادلاتهم بالإنجليزية، في حين لم يكن علماء الآثار يفهمون إلا الهيروغليفية. وأما رجال الآداب، فلا يقرؤون ولا يسمعون إلا الأمازيغية، في سرّية، ورجال المعلوماتية إنما يتواصلون عبر مصطلح "جافا" و"C" أو ببساطة بالافتراض. ومنذ خمسين سنة وعلماء الرياضيات لا يحسبون إلا في الخمر، ولا يتكلمون إلا الإغريقية. وقد كانت هناك علوم جديدة لها المقام الأول وهي الأكثر طلبا. هذه الفروع لم تحظ بكرسيها إلا في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، عصابات التهريب ومشتقاته: وهو تشكيل من رجال المال ورجال البورصة والاقتصاديين ورجال الأعمال؛ هؤلاء المهربين يتفاوضون بالدولار بمساعدة هواتفهم النقالة. هذه "المجمعات العصرية لرجال الأعمال"، نوع من التجار الذهبيين للمخدرات؛ قبل أن يُمنحوا ألقاب النبالة، كانوا يُدعون مروجي المخدرات. هؤلاء كانوا يتاجرون بالإشارات تفاديا للتجسس عليهم؛ القرادات الملساء، تزاوج بين لاحسي أحذية

و دبلوماسيين ماهرين في الحساب. هؤلاء كانوا يتكلمون كثيرا ولا يقولون شيئا. و... ليحدث ما يحدث: كان من الواجب أن يجد كل هذا العالم الجميل لغة مفهومة لكل ممثلي العشيرة العلمية... لكن، لكن ... : لقد بدأ الاجتمـــاع بتنافر كبير وعام للأصوات. كان كل ناطق يريد عولمة لغته الخاصة. لم يكن أحد يفهم أحدا. وحميت الأفكار في النهاية، وحلت الشتائم والإشارات القبيحة محل الخطاب والمنهجية... التي يتوجب إتباعها للخروج من هذا المأزق. كان لغطا لا مثيل له، انتهى به هذا الاجتماع غير العادي. وكما كان متوقعا، فقد تحالف "الترابنديست" و"مجمع الأعمال العصري" و"القرادات الملساء" بهدف ترجيح الكفة لصالحهم. لقد كانوا متميزين بقوتهم الظاهرة، في هذا النوع من التمارين الماكرة، وتوصلوا إلى فرض سيطرتهم على بقية المجتمع العلمي. لقد كانت النهاية بدون مفاجآت باعتبار أن التخصصات الجديدة المنتصرة في الاقتراع، كانت مثمنة جدا سلفا، وكان لها تأثير كبير على البلد. لقد كانت وسائلهم وآثارهم حاسمة. "لا توجد صورة!" كان هذا عنوان كل الصحف في الغد. حقيقة أن قياصرة العلم الجديد هؤلاء، كانوا قد ثوّروا العلوم. فعلا، فإن الشهادات المتحصّل عليها في نهاية المسار، كانت تتحول من الأب إلى الابن على شكل ميراث. وهذا ما كان سببا لميلاد سلالة كبيرة من الجامعيين مثل: "عرش التوبات" " قبيلة طوطو" و "عائلة كوزا نوسترا". ثم إن المؤلفات الوحيدة المطروحة في السوق، منذ أكثر من ثلاثين سنة، كانت كلها إنتاجا لهذه التخصصات، وأكثرها ذيوعا هي: "تكوّن الترابandو" لصاحبه ن توبات - الابن الأصغر لأحد رواد هذا العلم دكتور حاج توبات(1946-2010) هذه الشخصية المرموقة دشنت أول كرسي "ترابandو" بالجامعة الكبيرة

بالطوطو -، "سوق البيرة" لصاحبه ر عطيله - زعيم موضوع نزاع لعائلة (هونز) الذين كانت عملتهم: "عندما يمر عطيله من هنا تتدفق البيرة" -، "القيمة المضافة للكوكايين والشيرة[24] " لصاحبه ح كولا، المسؤول الأعلى للدفاع عن مصالحه، حتى لا نذكر إلا هؤلاء. هذه الكتب كانت الأحسن رواجا، طبعت بمئات الآلاف من النسخ. كانت محلّ تخاطف... في المبولات العامة بالمدينة التي تحوّلت إلى أماكن للمطالعة منذ تم تحويل متاجر الكتب والمكتبات إلى محلات للأكل السريع، وإلى محششات.

في نهاية هذا المؤتمر التاريخي، قرّر الفائزون، تفاديا لأي إشكال في المستقبل "حذف" التخصّصات الخاسرة. وللوصول إلى ذلك، تمكنوا من افتكاك موضوع التراع، اللغة، من المنافسين العلميين الآخرين، وبالتالي تسوية مشكل التواصل بصورة نهائية. منذ هذا اليوم المشهود دخل كل شيء في الفوضى: فقد اضطر البحاثتين المهزومون إلى مغادرة كراسيهم ووضع الطباشير تحت المكتب، وتعليق مآزرهم في سقف قاعات المحاضرات، ناسين نزعها! وامتلك الفائزون مقدّرات العلم في البلاد... وسار كل شيء في أسوأ العوالم.

بعد ذلك، تمّ فتح أبواب وسقف البناية الضخمة على مصاريعها. واكتسحت العقبان السماوات ذات الألوان المبهمة، واستمتعت بلحوم المهزومين المساكين، المعلقة بستراهم النقية.

إن المشهد الرمزي الذي شاهدته لتوّي، قطع لديّ رغبة مواصلة طريقي. إذا صدقنا تاريخ هذا البرج، فإننا سنرمي بالمستقبل في أعمق أعماق الهاوية، لذا و قبل استئناف الطريق،

---

[24] - كوبيدون : إله الحب في أساطير الإغريق. إذا أصاب سهمه قلبا أوقعه في الحب على الفور.

تحققت من أن باب الحصن قد أغلق إلى الأبد، من يدري؟ فقد يحدث في بعض المرات أن تعود ديناصورات السلطة هذه إلى التشكّل. استدرت حول البناء الضخم محاذيا جدرانه الرمادية. في الخلف، تنتهي الطريق المعبدة إلى مفترق عدة طرق صغيرة أخرى. اخترت الأقل ظلمة و غرت فيها دون أن أنظر ورائي. إني أدرك أن الغربان لازالت هناك.

قواريـر العـلم

على يمين الزقاق، شدّ انتباهي دكان خرب، مضاء ببصيص شمعة تحتضر. عندما دفعت باب الدخول الثقيل، رنّ الجرس ببؤس. إذن، ها هنا تتم تجارة كتب العلم القديمة أو النادرة: آه يا صديقي، لا يوجد هنا حتى ما يوقظ خلية عصبية نائمة! إن الفراغ قد عفّن علم الأماكن كما تفعل الغنغرينة الجشعة. أيّ ماخور هو هذا المعرض! إنه مستودع حقيقي مزيّن بعفاريت هائجة: فالرفوف الخشبية ملبدة بالغبار؛ وفوقها تقرض جرذان عالمة بقايا مخطوط قديم. وعناكب كبيرة، كقبضة اليد، تحيك أنسجة متينة لتسجن صفحات مؤلفات، من المحتمل أن القوارض نسيتها. وعلى الطاولات المقلقلة، تتكدس كراسي مهشمة. وفئران ترقص وتتجشأ غذاءها من الأبيات العروضية. وصراصير طائرة تسرق قوافي الشعراء المخدّرين. إن القلامات تهطل على التاريخ الملتقم، كما يهطل النسيان من السقف المتشقق الذي يتيح فرجة لرؤية مستعمرات من الأرضات تفلح الأعمدة الخشبية. زمن قذر للعلم! بل زمن قذر لكل شيء!

كان المبسط المبقور يستخدم كحزام لتاجر الكتب العجوز الذي اختفى عندما لاحظ دخولي. كان يبدو مذعورا، مرفوع اليدين لحماية وجهه، تأتأ متوسّلا:

- أقسم أني لم أبع شيئا. ثم إنه لم يبق أي شيء. من فضلك، لا تضربني! لقد فعلت ما طلبت منّي القيام به، لقد قدّمت كل شيء للجرذان، من فضلك لا تضربني أبدا!

طمأنته على شخصي.

– لا تخف من أي شيء أيها العجوز، لن أضربك، أريد فقط أن أشتري منك كتابا، ولكن لم يبق لي مال؛ لذا إن شئت، يمكنني تنظيم متجرك مقابل الدفع لك.

ومن أعلى الرفوف، توقفت الجرذان عن الالتهام لالتقاط حوارنا. نظرت إليّ برهة كما ينظر رجل إلى جرذ ميّت، ثم استأنفت غذائها العلمي وهي تتسلى بالسخرية مني متجشئة بصخب. أما العجوز المعروق، فقد اغتنم هذا الفاصل الحيواني ليندسّ تحت طاولة العرض. وعندما جذبته من صندوقه النخر، كان شبه ميت من الخوف وكان سرواله مبللا. اجتهدت في طمأنته، فقد أثار الأبله المسكين فيّ الشفقة. ولما رأى أني لا أريد به شرا، انتهى به الأمر إلى الهدوء بعد لحظات. وفي صمت، نهض وهو يترنح فوق أكوام المؤلفات الممزقة والمرمية على الأرض، دفع صفا من الرفوف المثبتة على جدار خرب، وفتح ممرا سريّا يؤدي إلى خلفية الدكان، تبعته إلى الداخل. كان كل شيء هناك نظيفا ومرتبا جدا. فلا جرذ يرقص فوق الرفوف المليئة بالكتب الذهبية التجليد، ولا عناكب ناسجة، ولا قيء دودات نواخر للأعمدة؛ كان كل شيء نظيفا جدا. قبل أن يخرج، وضع التاجر العجوز شمعة مشتعلة ومخطوطا صغيرا على الأرض، وتركني وحيدا وسط هذه المؤلفات التي تنتظر الالتهام من دماغي الجائع. طيلة أيام أو شهور، كنت أقرأ كتب التاريخ لأعثر على تاريخي، ولكن عند القراءة، كانت الكلمات تّمحى قبل أن تبلغها عيناي أو قبل أن يترجمها ذهني. كلما أردت القراءة بسرعة، كلما تلاشت الحروف بسرعة في أعماق الصفحة! ولكن أين التاريخ؟ ماذا فعلوا بالعلم؟ كيف نجحوا في تشويههما بهذا الشكل؟ لماذا منحوهما للقوارض ولحائكات الأنسجة؟ عندما رتبت، على الرفوف،

هذه المؤلفات التي كنت أسترشدها، لاحظت الدفتر الموضوع على الأرض. كان مكتوبا باليد، بالتأكيد من طرف التاجر العجوز.

عند قراءته، قلت في نفسي، يمكن لإبليس أن يذهب لارتداء ملابسه. فإن بُدلاءه عملوا أفضل منه بكثير في عملية تدمير وتضبيع العقول:

فمنذ عدة أيام خلت، تداعى كافة الكَتبة: المفكرون، الروائيون، المؤرخون و الكتاب الآخرون، أرباب القلم والحاسوب، في كل نواحي المعمورة والصحاري المحيطة، إلى موعد في المعرض الكبير للعلم. سيتم ذلك في دوارنا الذي عوّضت فيه منذ مدة طويلة، لعبة الدومينو والطاغوت المذبوح، القراءة والكتابة. كان هذا يشبه، عند الكثير، تفكيك رموز الكتابات الهيروغليفية. لقد مر على ذلك أزمان، لم يكن الحشد المكون من الشعب الصغير ليجد فيها أبدا شيئا يضعه تحت عينيه وأقل من ذلك في رأسه. لقد تحولت كل المكتبات ومتاجر الكتب إلى مبولات عمومية، يأتي إليها الناس لتفريغ المثانات بدلا من ملء الدماغ. لذلك، قرّر مسؤولو الدوّار، إفعاما للعقول وإرضاء لأكثر المعدمين، إحداث هذه التظاهرة الثقافية العظيمة ليرتوي فيها الأشخاص ذوو الأمخاخ المكبلة، بفعل بطالة طويلة جدا، من كلّ ما يصبّ لهم، على سبيل حشو الرأس ببعض الاستبسالات الأدبية.

تهافت المتسكعون، المتعطشون للثقافة والقراءة، من النواحي الأربعة ومن زوايا الصحراء الثقافية ليرتووا من العلم، وكذلك ليروا أخر الحكايات المكتوبة. ومع قدوم التكنولوجيات الحديثة، ولد نظام حديث للكتابة والنشر. فقد ظهر مزيج من المعلوماتية والكيمياء يسمح، في الوقت الحالي، بتقديم المؤلفات على شكل سائل، معبّأ في قارورة زجاجية أو من طين منضج، حسب ازدهار دار النشر. أما البزازات البلاستيكية فهي مخصصة للقصص للأصغر سنا. وأما المؤلفات الكبيرة فهي مسكوبة

في باطيات محمية القاع بالقش. وأما كتيبات الجيب فهي مميّعة في قناني رقيقة. إن أشكال ومواد هذه القوارير مختلفة، كأنها معروضة في معرض عطور فاخر؛ وإن القناني المصنوعة باهتمام كبير بالدقة والجمالية، تترك الانطباع بوجود مضمون واعد في وعاء خلاب. وأخيرا، ماذا تهم القارورة، طالما أنها تمنح النشوة!

هناك بطاقة تبيّن اسم الكتاب و اسم مؤلفه و ملخصا موجزا وبالطبع ثمن القارورة. أما فئة الكتاب فيحددها لون السائل المسكوب في القارورة.

كانت الخيمة التي تجري فيها طقوس الكلمة كبيرة جدا، أكبر حتى من قبو خمر. وكانت الحرارة مقنطة، وكانت روائح العرق تطمس عبق السوائل العلمية. كان المختنقون بالفكر يتجولون بمعزاتهم ودجاجاتهم ومشاغبيهم بين الرفوف التي تستريح عليها آلاف المؤلفات المعصورة، على شكل سائل، داخل قوارير جذابة الأشكال والألوان. لقد جاء كل الناس إلى حفلة العلم، ليعلموا بأن هذا العلم يجب أن يُعلم. إذن، اذهب واعلم كيف، وكم للحصول على هذا العلم الذي يعلو عن كل متناول!

كانت الكتابات "ممنوع اللمس من فضلك" المعلقة في أسفل الرفوف، تثير وتزيد في هيجان المتفرّغين للقراءة. وكانت إهداءات القوارير تتم من طرف الكاتب نفسه. "أي شرف وأي سرور، هاهو ذا! إنه هناك، بالضبط قرب مؤلفه الموضوع في قارورة" صاح رب عائلة يحمل في يده قفة خاوية أكثر من جيوبه. ومن أجل بضعة دراهم زائدة، يبصق الكاتب المرموق في القارورة كعلامة عن الشهادة. ومن الواضح أن لكل بصقة ثمنا مختلفا تبعا لمكانة رجل الأدب في سلم الرقيّ. غال هو الإمضاء، غال جدا! إن بعض المعجبين

يريدون تخليد هذه اللحظة المحمودة بتثبيتها على أشرطة أجهزتهم التصويرية. وهنا أيضا، لابد من المرور إلى الصندوق. غالية هي الصورة، غالية جدا حتى يتم سحبها! ومع ذلك، فإن أشخاصا يقبضون في كل مرة يتمّ تصويرهم، وأحيانا يقومون به مجانا حبا بالاشمئزاز أو خوفا من المتعة. ولكن أن تدفع من أجل أن تثبّت، يجب بصراحة أن تحب ذلك أو أن تكون ثريا بكل بساطة.

وهناك أيضا المضيعون للوقت عبثا، هؤلاء الذين يفكرون بأنه لا ضرر أبدا في أن نفكر في عطشنا للمعرفة، وأنه حتى إذا لم نسمح لأنفسنا بتذوّق الرحيق الموجود في القناني البسيطة للثقافة، فإننا سنتعلم على الأقل كيف نستغني عنها! و نكون، بعد ذلك على الأقل، قد شاهدنا بأعيننا المبللة بالرغبة غير المشبعة، كيف يمكن تزوير العلم. وهذه دائما فائدة! إن الحرمان غال، وغال جدا البكاء منه!

هناك هؤلاء الذين يشترون قوارير آداب وعلوم بالصناديق، فقط للتباهي ويعرضونها على رفوف مكتباتهم ليدهشوا بذلك ضيوفهم. وسيتفادون نقلها ليتركوها تتعتق مثل الخمرطّيب المنبع. ليس غاليا اللتر من العلم، عندما تشتريه بالصندوق. ليس غاليا عند البعض!

وهؤلاء الذين يقرؤون العناوين المسجلة على البطاقات ويتخيلون بقية الأحداث في رؤوسهم جراء عدم تمكنهم من اقتناء كنوز الثقافة. غالية هي القراءة، غالية جدا. من الأفضل إطلاق العنان للمكابدات، والإتيان بشيء ما يأكله الأطفال.

وهناك أيضا هؤلاء الذين ينتظرون، ويسيل لعابهم أمام قوارير الروايات- آه! هاهي الحكاية الجميلة مروية في إبريق جميل، تتعجب سيدة مسكينة متأثرة بلون سائل القصة. ولكنها غالية، غالية جدا قارورة الحماسة.

إذن، بدرهمين وكمية من الديون، يجد الناس أنفسهم يقومون بتأمل الواجهات، محاولين تخزين أكبر عدد من العناوين الجديدة والمؤلفين، في رؤوسهم، ليملؤوا فهرس تراجم، وخاصة ليدهشوا الأصدقاء، لتغذية المحاورات الفارغة والفقيرة حول قدح ماء لأن قدح الجعة غال، غال جدا! - و طز! لا يمكننا حتى أن نسكر لنملأ الرأس بالفقاقيع و ننسى أنّ قارورة العلم غالية جدا. أغلى من أن يتم الحصول عليها.

- الشفقة، إني متعطش للعلم، بأي ثمن، هاكم، هاهي حياتي! ارهنوها مقابل كتاب، وامنحوني الوقت لإتمامه. أطلب منكم أن تكونوا متسامحين، لا تغلقوا الأبواب، لا تشجعوا الديدان على احتلال الأدمغة! لتعطوني كتابا - أريد أن أقرأ! أريد أن أعلم! لا أستطيع البقاء أبدا في الشك والإبهام! اتركوا، اتركوا الشمس تدخل رأسي حتى أتمكن من الدفء، من الإنارة ومن تحرير فكري! أقسم أن أصبح تاجر كتب... أو كاتبا، ذات يوم، في حياة أخرى، أو في عالم مغاير!

فاجأني تاجر الكتبَ السابق وأنا في قمة الهذيان. عيناي مضطربتان، فمي مزبد، وأنا ملقى على الأرض وسط الكتب التي قمت بترتيبها. كنت غارقا في العرق، أرتجف من البرد ومن الخوف وخاصة من القمْه الدماغي. أعطاني التاجر العجوز قطعة خبز كبيرة وبضع تمرات وكأس ماء، نظر إليّ بحنان وأنا أبتلعها بشراهة، لم آكل منذ... في الواقع، منذ متى؟ حاولت النهوض ولكني عدت للسقوط.

- أنت. أنت، لا تحاول الذهاب من هنا قبل أن تتمكن قدماك من حملك. استرح أيها الرجل الطيب، نصحني العجوز المحنك.

بعد ساعات، تمكنت من النهوض. تهيأت للرحيل، شكرت وحييت حارس العلم الهالك. كان قد أعدّ كيسا مملوءا بالغذاء، قدّمه لي وهو يقول:

- اذهب الآن ما دمت تقف على رجليك، واصل طريقك، سيقودك في النهاية إلى حيث يجب عليك أن تذهب. لقد تعلمت على الأقل شيئا هنا. طالما هناك بصيص أمل صغير، يجب فحصه، هذا ما فعلته عندما رأيت، على الجانب الآخر من الطريق، ضوء الشمعة الصغيرة. إن الحقيقة في نهاية طريقك، وهذا الطريق موجود فيك.

الجرذان

مازال الجو رماديا في الخارج. كان شفق المساء ينشر بصيصا شاحبا مثل مخاوفي وتصوراتي. إن ما شاهدته على واجهات البرج العظيم، وما قرأته في المحل الكئيب لتاجر الكتب سمح لي أن أتنبأ بمستقبل استبداديّ مبنيّ على أسس فظة. لقد خرجت من هذا الدكان بدون روح، تاركا ورائي التاجر العجوز مختبئا تحت تصفيقات القوارض المحتلة، لا أدري أين أذهب. ودون أن أطرح على نفسي أسئلة، تمددت على الرصيف المبلل. واتخذت صيوان دكان العلم الطوباوي سقفا لأقضي الليل تحته، في انتظار الأنوار الأكثر جاذبية للنهار. ربما سأحلم بالرفاهية، بالشعر، بالمغامرات الجميلة والرفقة الحسنة؟ المهم أنه يمكنني أن أحلم بأني أحلم! رفعت رأسي: وإذا بلوحة على باب الدكان، ورقم منقوش عليها "متجر ب114" من ثم فكرت بأني سأعيش، بالأحرى، كابوسا! انطفأ العلم الشامل... تماما مثلما انطفأت رغبتي في أن أحلم أحلاما جميلة.

لقد أصابتني الرطوبة ببرد، واضطررت للنوم في وضع زناد بندقية. تهيّأت، وأنا متعب، لإغماض عيني، وإذا بجرذ كبير رمادي الجلد يخرج من جحره ليأتي ويسرق جيوبي. بقيت جامدا، على هيئة الميت. لقد كنت دائما أخاف من هذه الثدييات القارضة. كان،على ما يبدو، يبحث عن شيء محدّد. إنها ذكية هذه الحيوانات، وهي تدري ماذا تريد: تماما مثلنا نحن البشر، باستثناء أننا نعيش في الأعلى وهي تعيش في الأسفل. وقد يحدث لها أحيانا أن تأتي لتحتل فضاءنا ونغتنم نحن الفرصة لنأخذ مكانها. في النهاية،

وبعد أن نظر إليّ بعينيه الصغيرتين اللامعتين، وجدني هذا الجرذ لا أسمن من جوع. فضّل تجريب حظه في أكياس القمامة الممزقة سلفا. ولكن آخرين، قبله، كانوا قد جاؤوا يبحثون عن غذائهم. إنهم أناس من الشارع، مثلي تماما. ابتداء من الآن، الناس والجرذان يتقاسمون المدينة لنفس السبب: بقاء الجنس. بحثت في جيبي عن أقراصي ذات الطعم "المز" أخذت منها قبضة كاملة لأبعث بنفسي إلى المدار. على الأقل، أغادر هذا المكان الملعون، في غيبوبتي... مغتنمة نومي العميق: *غزت الجرذان المدينة. كانت تخرج من أعماق حياتنا لتحتل الأحياء الموسرة التي اهتممنا بتلويثها. أي حظ لترعاتنا التوسعية! وسرعان ما قمنا نحن أيضا باغتنام الفرصة لاحتلال البالوعات والدهاليز التي هجرتها الفأريات الغازية. كانت هذه الجرذان قد شربت ماء ينابيعنا الصافي؛ وللانتقام، سكرنا في البرك الآسنة للمياه القذرة والعكرة. كانت القوارض، في الأعلى، قد أفرغت براداتنا المملوءة بالمنتوجات الموسومة وغير المراقبة. وفي الأسفل، كنا نحن قد اتخمنا بنفاياتنا المسروقة والمخبأة من طرف الجرذان. لقد قامت هذه الثدييات الضارة، في المهود المهجورة، بتغذية الأطفال الذين تخلينا عنهم، ونحن نسارع بالخروج، بسائل لبني.وبتجرّدنا من غرائزنا الأبوية، قمنا بمطاردة الجرذان الصغيرة ثم بأكلها وسط أكوام من الزبالة. لم نكن غاضبين من هذا التغيير، إننا لم نترك لها شيئا جميلا في الأعلى، لا يهم، بئس ما نالت هذه الوندالية حاملة وباء الطاعون! في جميع الأحوال، لم يعد العيش طيبا تحت السحابة العظيمة البنفسجية التي تغطي السماء التي كانت، سابقا، زرقاء وصافية، في جزء كبير من الكوكب. لقد قام هذا الركام المكفهر ذو التورم البنفسجي، المشبع بتيارات هوائية ساخنة، بإعادة النفايات التي كانت تنفثها مداخن المصانع نحو السماء، إلينا على شكل مطر حمضي وجاف مكوّن من جزئيات من الرماد، سوداء وبنفسجية الألوان.*

لقد مرّت ساعات، شهور أو سنوات منذ هذا التلاحق المتطور للهجرة. كنا قد تعلمنا أن نعيش في الأسفل، بعيدا عن الجرذان التي كانت تسمم وجودها بالهواء الملوّث الذي صنعناه في الأعلى. لقد نظمنا أنفسنا كأشخاص متحضّرين وأذكياء، في تجمعات مهيكلة ومتدرجة بالطريقة نفسها التي كنا عليها في الأعلى: فالأقوياء، إذن الأغنياء بالضرورة، هم الذين كانوا يسيّرون الآخرين. كانت المعركة من أجل السلطة والمال قاسية، مثل قبل، عندما كنا نعيش في الأعلى، كانت الضربات التحتية تعمل عملها في هذه الأعماق السفلى. أما الجرذان فهي لم تتطور، فقد كان المسيطر دائما هو الذي يحمي بقية العائلة، وكان القائد دائما هو الذي يبحث عن الغذاء لذويه، وكان هو أول من يجرّب تسمّم الأغذية الموجودة؛ طبعا، قد يحدث أن تتقاتل ولكن ذلك في سبيل المحافظة على نوعها. أما نحن، أناس الأسفل، الأقل حبا للآخرين، والأكثر واقعية. فقد كنا نؤذي في معظم الأحيان لمتعة النجاح وتنفيذ أو إشباع الأهداف الأنانية. إن غريزة البقاء غريزة حيوانية! وكنا نحن، أهل الأسفل، بشرا! إنها بالأحرى، غريزة الانتصار التي كنا ننميها لنتطوّر.

لقد كان نوعنا الشريف والراقي يعيش محدّدا أهدافا يريد الوصول إليها. وقد كان لهذه الأهداف غالبا مرام ذات طابع فردي وغير جماعي. وكان اختيارنا ذا طابع مادي وليس ذا طابع عاطفي. لقد وضعنا أفكارنا الروحية جانبا منذ أزمنة، لنهتم أو لنركز اهتمامنا على إسقاطات يمكن تحديد كليتها ولمسها بفكرنا الذي أصبح شحيح التفكير ومعتما بجشع متقادم شبه أصلي...

بعد أن عفّنّا مظاهرنا، كنا نهتم اهتماما كبيرا بإفساد طويتنا! ومن أجل ذلك، فهل من حيلة أكثر من أن نقوم به في داخل أنفسنا؟ هل كنا مغفلين لدرجة عدم رؤية بؤر الفساد الأخلاقي أو الثقافي التي كنا نقيمها

كل يوم؟ والأغصان التي لم نكن نكف عن قطعها، والتي مع ذلك، نستخدمها للبقاء في حالة توازن بين السماء والأرض أو، ببساطة، على قيد الحياة، كانت مقاومتها تتناقص.

الغريب، أنه منذ أن كنا قد انتقلنا إلى الأسفل، ومنذ أن كانت هذه الدواب القذرة قد احتلت مدننا وأريافنا، صار الجو أفضل نوعية من ذي قبل. لقد كان هناك أقل قمامة أمام الأنظار، وحتى الغمامة الكبيرة النافثة للسواد كانت قد اختفت، تاركة المجال لظهور السماء الزرقاء الصافية التي كانت سالفا. بالأحرى، هذا ما كان يرويه، في الأسفل، بعض الأشخاص الوقحين الذين كانوا يريدون الظهور بمظهر المتنوّرين. وفي الأعماق التي قمنا باحتلالها، كان عجزنا عن إعادة تأهيل نفاياتنا، يضطرنا إلى إلقائها في أحواض المياه القذرة مسبقا لنجعلها أكثر عطنا وأكثر قرفا. إن الحقيقة الوحيدة كانت هي أن المجارير التي نتخبط فيها لم يعد بإمكانها أن تكذب علينا. ولم يعد بإمكان أي سر أن يخفى فيها. فكل عمل ينتهي بالصعود إلى السطح ليظهر على شكله النهائي!

بعد بضع مئات من السنين، ستقول الكتابات بأن الجرذان كانت قد طاردت الناس المضرّين، في الأسفل، الذين أصبحوا خطرين جدا على توازن النظام البيئي للثدييات القارضة... يا لهذه الجرذان، إن لها دائما غريزة البقاء!

نهضت مذعورا وأنا أشعر بشخص يهزني من كتفي، نظرت حولي، لا أحد، إلا إذا كان فأرا صغيرا فرّ من جيب معطفي ليذهب ويلتحق بعائلته في عالم الجرذان. فعقدت العزم على مغادرة هذه الأماكن، بأسرع ما يمكن.

درجة أكثر، درجة أقل

تتغير المشاهد والناس كذلك. منذ غادرت شويرع الشيطان، لم تكن هذه التغيرات لتعجبني. لقد كلمتني رفيقتي، قبل أن أغادرها، عن الحب، ولكني لم ألتق خلال رحلاتي غير الخشونة. وحتى القوت المزيل الذي قدمه إليّ التاجر العجوز لبقية سفري، سرعان ما نفد؛ وقد مضت عليّ عدة أيام لم أذق فيها شيئا. انعقدت معدتي من الألم، وأنا جائع بشكل فظيع. كنت أمشي برتابة كالمسرنم الذي يخشى الاستيقاظ داخل كابوس مظلم، وهو بين صعود ونزول: "إن الحقيقة في نهاية طريقك" كانت عبارات صاحب المتجر ب114، يرنّ صداها في رأسي الخشن مثل اللازمة. كانت تشدني في وضع آلي يسمح لي بالذهاب لمزيد من البعد. كانت المشاهد التي تزداد دكنة وشحّا أكثر فأكثر تعلمّ مساري وتقودني إلى مسلك قرويّ. وعلى الضوء المنتشر عقب غروب النهار، ارتسمت قرية صغيرة، بوقاحة، كأنها مرسومة بالفحم، على الجانب الأسفل من الطريق. قادتني قدماي إلى هناك بينما كان عقلي في مكان آخر، وأفكاري تطرق "إن الحقيقة في نهاية طريقي"

كانت القرية غارقة في ضباب كثيف مخضرّ. وتبدو مهجورة دون أرواح حية. كانت الأكواخ القليلة تبدو موضوعة سطحيا في دوائر حول ساحة صغيرة؛ تنتصب في وسطها سارية طويلة يرفرف في أعلاها، بدون اكتراث، علم ممزق إربا؛ وكانت كمشة من الأشجار المحروقة تكمّل الديكور البائس.

وعلى سطح كل واحدة من هذه الدور الصغيرة، يفتح حامل صوت خطما، صامتا الآن. إنه مكان آخر مفرّغ من مكوّناته. "ربّاه أي امتحـــــان تخبئ لي مرة أخرى؟" تقدمت بخطى قليلة الاطمئنان نحو مركز الساحة. وكانت عيناي تتفحصان التعاقب الجامد للدور الخربة. كنت أنتظر رؤية أحد ما، سماع صوت ما، ولكن لا شيء، فلا روحية ولا صوت. مرة أخرى، أجد نفسي منخدعا بغريزتي الشخصية. وجدت نفسي، وحلقي مختنق، زائغ النظر، عموديا بالضبط تحت العلم الرثّ... إن الأقراص "المزة" الموجودة في جيبي ستكون لي منجدا كبيرا. وحول الزانة الخشبية الطويلة، التففت لأنام. سيكون الغد في مكان آخر، هذا ما أتمناه. هبط الليل في جو ثقيل ومعتدل. أخذ المطر الخفيف يبكي بهدوء على نومي.

كانت المرأة الشابة تبدو جالسة على فراغ، وظهرها منحن قليلا، كانت ترتدي صدارا رماديا أو أبيض وسخا، واسع التقوّر لدرجة بروز النهدين اللذين لا تكاد سديرتهما تُستر بالقميص المفتوح الأزرار إلى المنتصف. كانت لها طريقة غريبة في الإمساك بحقيبتها بيديها المتزلقتين بين الفخذين. كانت بشرتها شاحبة جدا، داكنة تقريبا. أما الخدان فهما محفوران ومحمران كما لو كانا مصابين بالحمّى، والعينان محاطتان بدكنة، و شعرها غير مرتب. كل شيء في هذه المرأة يوحي بأنها مريضة. كانت تنظر إليّ، ورأسها موضوع بانحناء نحوي، كأنني أعجوبة أنجبها الليل؛ ويبدو أن الاستيقاظ من نومي المخدّر قد طمأنها قليلا: أنا إنسان. ابتسمت لها، حدّدت نظرتها بتقطيب حاجبيها، أكيد الآن: لست روحا سيئة نسيتها الظلمات. أخذت المرأة وضعا أحرجني: النظر تائه، متوجه بلطف نحوي، في تعبير عن إذعان أو دعوة. مستحيل أن تعرف ذلك. كانت زينتها تُبرز جفونا منتفخة؛ وكان الصدر وما بين الفخذين، في

حالة انفتاح دائما، معروضين؛ وكان الذراعان الساقطان بين الرجلين، يبدوان، في آن واحد، يؤكدان مدى سخرية التردد في الحماية وإرادة لفت الانتباه. كان الضباب الداكن حولي قد فقد كثافته، ولكنه ظل حاضرا وخائفا في الوقت ذاته. لاحظت أن المكان هو ذاته الذي كان بالأمس، والخرقة الوطنية ترفرف، فوق رأسي، تحت ريح كسولة دائما.

– صباح الخير. قلت ذلك وأنا أنهض مستندا على مرفق.

وكجواب شامل، تلقيت ابتسامة درداء. وانحنت الفتاة الشابة أكثر زيادة، وعرض عليّ صدرها المقعر زوجا من الأثداء مشدودين ورشيقين، يتناقضان مع نحافة الجسم. في هذه المرة، أعتقد أني فهمت تصرفها.

– إني لم آكل منذ أيام، من فضلك، أعطني شيئا أضعه في بطني.

بحركة خاطفة، أصلحت المرأة الشابة قميصها بيد؛ ووضعت، باليد الأخرى، حقيبتها الصغيرة السوداء حاجزا بين فخذيها اللذين عادا سلفا للانغلاق، كما لو أنها تسحب دعوتها. ثم وضعت سبابة على صدغها وقامت بتحريكها. ثم ابتعدت مستديرة على عقبيها، ماشية مثل إيمائي، منحنية بفخر ومتغطرسة. لاحظت أن خصرها مشدود بحزام غريب.

بعد ساعة، كنت دائما منطرحا، مسند الظهر إلى حامل الراية، مذهول العينين. كنت أنظر إلى ساحة القرية وهي تمتلئ ببطء بأشكال بشرية، مرتدية أسمالا، تختلط مع دكانة الجدران و البلاط والسماء. كانوا جميعا يتميزون بالسحنة الدكناء، المؤخرة الهابطة، الظهر المقوس، الشعر الأشعث، الوجوه الحائرة، الخدود المقوّرة، العيون المحاطة بهالة، الجفون المكوّرة و النظرات المنحرفة. كانوا هاربين، غير محدّدين؛ أشباحا جُربا لا يحملون إلا أطمارا على جلودهم الضعيفة، و الحزن المرهق يغرز عيونهم

الصغيرة في مدارها. كانوا جميعا يرتدون حزاما غريبا وعريضا حول خصرهم، الحزام نفسه الذي كان يشد العاهرة الشابة.

– يا إلهي! أين حططت من جديد؟ قلت في نفسي ذلك، وأنا أتمنى أن يكون ما أراه حولي إنما هو بسبب الأقراص.

– إلى مطهر البؤساء!

كان الصوت الذي أفزعني آتيا من الخلف. إنه صوت امرأة، سيدة مثلما لم ألتق أبدا منذ... منذ مدة طويلة على الأقل. انتصبت ورائي بكبرياء وهي ملتحـــفة بخمار نظيـــف لا يكشف غـــير خصلـــة شعـــر أحمـــر وعينيـــــن كبيرتين خضراوين. وكان حائكها الحريري الأبيض اللون يجعل قوامها أكثر نبلا وأكثر جمالا.

– من أين أتيت، أيها الغريب؟

– لقد أتيت من بعيد...من النقطة ب114.

انكمشت عيناها في ابتسامة. لقد مضى عليّ وقت طويل لم أر فيه وجها مشرقا بهذه الصورة. وبكبرياء جلست مسندة ظهرها على السارية الكبيرة لساحة القرية. لقد كنا جالسين ظهرا لظهر.

– من النقطة ب114؟

سألتني بصوت عذب ومنغّم. لا يبدو أنها تفاجأت من إجابتي، ولا من وجودي بهذه الأماكن. زد على ذلك أني حتى أنا أيضا، وهذا غريب، لم أقلق لظهورها المفاجئ... بل بالعكس.

– أخيرا، أعتقد. لو سمحت، أريد أن أعرف شيئين.

– أي قابلية فكرية!

تكهنت ضحكة عينيها من جوابها السريع. وكان نفس صوتها يداعب قفاي؛ كانت المرأة تستدير كل مرة توجه لي فيها الكلام.

- لا، واحد لبطني والآخر لفضولي.

- لنبدأ بتلبية الثاني، وسنرى إذا كان من الضروري إرضاء الأول، بعد ذلك.

- إذن، أين أنا؟ من هم هؤلاء المساكين، وماذا حدث لهم؟

- هنا، في قرية ب114، قبل بضع سنوات، كانوا آلافا ومئات. وبعد، كان الجوع قد بدأ يكبر، وكانت ألف ذراع جديدة قد نمت، في ظل البؤس الذي كان قد تحالف، بالتأكيد، مع الموت. كان الأطفال السريعو العطب والضامرون أول من انطفأ مثل الشعلات المتداعية المترنحة تحت الريح. كنا نجمعهم بالمئات في الصباح الباكر، وهم زرق، جامدون مثل الخشب بينما كان آخرون يأخذون في السعال ثم في بصق الدم. وبعد بضعة أيام، وليس أكثر، يهلكون. بعد ذلك، كانت أذرع أخرى تنبت بعدد متزايد، وكانت نساء يرقدن لكيلا يستيقظن أبدا في وقت واحد مع الكبار، أولئــــك الذين تجاوزوا حد الأربعين. واليوم لم يبق سوى بضع عشرات ينتظرون حتما دورهم.

- قرية حزينة، ضائعة بين سماء وبؤس. تمنّيت أن أجد فيها أنفسا كريمة تمنحني بعض الأغذية لإسكات شهيتي، أمام العجز عن إرضاء كافة شهواتي. ولسوء الحظ، فقد وقعت في قرية بؤساء، ليس لديهم ما يؤكل، وكل ما فيها أطلال.

- في هذه القرية، قتل الجوع الأمل، وانتصر عار الوجود على الرغبة المتشبثة بالبقاء. لم تعد هذه "البطون الفارغة" تعرف إلى أي وليّ تتوجّه بالدعاء والنذر. أغلب السكان لم يعودوا حتى يأملون، إنهم ينتظرون خلاصهم النهائي: المحرر الكاذب. كل هؤلاء البؤساء يشدّون الحزام... باستثناء بعض المتمرّدين.

- إلى ماذا تعود هذه اللعنة؟

– منذ مدة مضت، لم يكن هذا المكان صغيرا بهذا الحجم، كان مدينة كبيرة حيّة، مرحة وخاصة مزدهرة... وذات يوم جاؤوا للإقامة هنا، وليجعلوا منها مدينة رائدة، وليطبقوا ما يسمونه "برنامج ترشيد الموارد". لقد استعملوا كل الوسائل الديماغوجية الضرورية لتحسيس الساكنة بمخططهم. فطيلة أيام وليال، وكل الجرائد وكل الأغنيات الصاخبة لوسائل الإعلام لا تتوقف عن الإعلان عن العناوين الباكية نفسها:

"*أيها المواطنون، شدوا الحزام درجة، لقد عادت الأزمة. الأزمة قائمة! البرنامج يطلب من الجميع القيام بتضحية: درجة زائدة تضاف، ودرجة أقل لأحزمتكم، وتشعرون أنكم أكثر خفة!*" وفجأة حطّ الركود على هذه المدينة، الغنية مع ذلك. وقد قام انحطاط البؤس بالتهام كل السكان المقتدرين ليحوّلهم إلى فقراء معوزين، ويلقي بهم في غياهب الفاقة "*أيها المواطنون. شدوا الحزام مرة أخرى درجة. إن الأزمة مازالت قائمة! درجة أكثر، درجة أقل، وستضعفون أكثر!. هذا فقط*". هذا ما كانت تردده وتهتف به مكبرات الصوت المكدسة فوق السطوح. لقد كان المخطط معدًّا جيدا. كان قد قرّر بأنه عندما يشعر الأغنياء في هذه المدينة بأن الجوع أو العطش سيصيبهم، أو عندما يتوجّب عليهم دفع المزيد من الإتاوة لفائدة البرنامج، فإن هؤلاء المعلنين، نذيري الشؤم، بطبيعة الحال، لن يتعرضوا للأزمة! بل إنهم يسيّرونها، يقيسونها، يقدّرون كميتها لينقلوها بضربات قوية من الخطب المطولة، والعناوين الكاذبة، من خلال وسائل الاتصال. وكانت أيام الحمية تتوالى، دون هدنة و بلا نهاية. كانوا ينظمون ندوات واجتماعات في قصور فخمة ليخطبوا حول الموضوع، مهملين العمل على إشراك ضحايا هذا الوحش الذي كان يتغذى من مجاعة هؤلاء الناس المساكين.

- وسكان هذه المدينة، ألم تكن لهم كلمة يقولونها؟

- هناك بعض السذّج، أرادوا إقامة اجتماعاتهم الشخصية لتأسيس مطالبهم.

- وبعد؟

- يجب أن لا نبالغ! إنهم أصبحوا من الفقر بحيث لم يعد بإمكانهم تنظيم أي شيء. وفوق ذلك، فقد تم استدعاؤهم وتحييدهم من طرف السلطات التي كانت تواصل تسيير هذه المحنة. كانوا يفصّلونها ويشرّحونها على طاولات ولائم الأكل الكبيرة، ويتجشؤون تشخيصاتهم على الوجوه الشاحبة والبطون الجائعة للشعب. كان الأكثر رحمة فيهم يتفلسف حول الظروف المخففة التي ينسبونها لهذا القدر المبرمج، وهم يشيرون إلى المجرمين: إنهم الدهماء. فقد كانوا في أغلب الأوقات، يعنفونهم ويتهمونهم بأنهم السبب ذاته لهذا الغلاء: *"إن الأزمة قائمة لأنكم أنتم الذين أيقظتموها"* أو *"إن البؤس صنيعة الرجال مثلما الموت صنيعة الله! وأنتم رجال هذا البؤس"* وكان محولو الشهيات يفتعلون كيفيات للتعايش أفضل مع الأزمة: ما العمل لابتلاع قرص البؤس بطريقة أفضل، وتعلّم الاستغناء عن الأساسي. *"أيها المواطنون، شدّوا الحزام درجة إضافية، إن الأزمة قائمة فعلا!"* درجة أكثر، درجة أقل بالنسبة لسكان هذه المدينة المنهارة الذين كانوا قد أضاعوا كل أمل من فرط إكراههم على الإذعان.

في الساحة، انفجرت مشاهد عراكات هنا وهناك، بسبب قطعة خبز أو حبة بطاطا عفنة؛ لازلنا جالسين ظهرا لظهر. كنت أحس جلدها الدافئ يحتك بجلدي عندما تتحرّك. وواصلت المرأة المتحجّبة قصة هذه القرية الحزينة.

– غالبا ما تسبق الإشاعات المحزنة المتناقلة أزمة جديدة. كان هدفها تهيئة الناس المساكين لما سيقع لهم. كان هذا الإجراء يسمح بقياس حجم استيعابهم، بالضبط مثل الإسفنجة التي نغطسها في حوض مملوء ماء ونعصرها بعد ذلك بهدف معرفة كمية السائل الذي يمكن أن تختزنه. هذه الأهلية في التأقلم مع كل وضعيات الأزمة، يتوجب تحديد كميتها من طرف هؤلاء المسؤولين المهتمين باستباق كل ردود الأفعال. كانوا يُسمّون ذلك سبر آراء. كانت حيوانات التجارب تفضل الاستغناء عنه!

– أنا لا افهم: كيف كانوا يتوصّلون إلى استعباد مدينة كاملة بسكانها، وتحويلهم إلى حالة من الذل ومن الحرمان الإجباري؟

– لقد فكروا في كل شيء. فقد تم ابتكار نظام خارق بهدف تكييف أفضل لهؤلاء الأفراد مع هذه الكارثة المقدّرة. إن الأمر يتعلق بحزام كان يتوجّب حمله من طرف كل السكان الأصليين. كان هذا الحزام المحشو بالإلكترونيك مبرمجا لشد آلي تبعا لارتفاع نسبة الغلاء. *"هذا جميل، نعم! هكذا لن يتوجب عليكم أن تنفعلوا! فبمجرد وجود مضاعفة للوضعية الاقتصادية، يصدر أمر لكل الأحزمة العفيفة المأكل لتتقدم درجة، أمر للجميع، و في آن واحد، أليس هذا عبقريا؟"* هذا ما كان يقوله الإعلان. منذ ذلك الحين، حتى البؤس أصبح مسيّرا عن بعد، عن طريق القمر الصناعي، دون أي جهد من طرف مواطن هذه المدينة! إنها ثورة حقيقية للتكنولوجيا في خدمة الإفلاس. درجة أكثر، درجة أقل، والمعوزون سيهلكون بمجرد الضغط على الأزرار!

– لقد حدثتني عن المتمردين، ماذا فعلوا؟

– كانوا يدعونهم أيضا الشجعان. كما في كل الثورات، هناك مقاومون. أولئك الذين يرفضون الرضوخ لاستعباد المسيطرين. إن متمرّدي هذه المدينة المنهوبة رفضوا حمل الحزام الملعون، خانق الشهيات

والرغبات. ولكن سرعان ما تم تحديد هؤلاء العصاة المساكين لأن ذلك ما كان ليمنعهم من معاناة أهوال هذا الوحش، وأن ينْحلوا مثل الآخرين. فلكثرة ما عادت سراويلهم لا تستقر، وعادت تسقط لانعدام الحزام، وجدوا أنفسهم يتسكّعون وهم عراة كالدود النحيل.

"*هذا* واحد منهم! *هذا واحد منهم*!" كانت الوشاية تصرخ عند رؤية معارض عاري الجسم، معروق، بسبب مجاعة لا نهاية لها، باحث في المزابل عن بقايا الأكل. وفي الحين، يتم كشفه وعزله. "*يجب عدم المبالغة. إن الإخلال بالحياء يعاقب عليه أكثر من أي اعتداء مهما كان! قليلا من الكرامة، سيّداتي وسادتي المواطنين، عليكم ألا تعرضوا عريكم في الطريق العام، تعلموا أن تظلوا محترمين في بؤسكم*!" هذا ما اجتهدت في قوله الوشاية لتتقوّى. درجة أكثر، درجة أقل. كانت كل المدينة التي غدت قرية، تهذي بدون اتجاه، وهي تتخبط في البؤس، في حين كان شجعان آخرون قد التحقوا بطائفة الـ"حبال في اليد". كان هؤلاء يفضلون ركوب الشجاعة للانتهاء من الهم بأسرع مما هو محدد في برنامج ترشيد الموارد. كان مسموحا بهذه الانتحارات السياسية بل إنها تلقى التشجيع حتى من طرف المسؤولين عن البرنامج "هذا يؤدي دائما إلى أحزمة أقل للوضع أو لمتمرّدين عراة أنقص للمطاردة". هذه الطائفة مشكلة من أشخاص متكبّرين جدا لا يستطيعون مواصلة العيش في فقر الجسم والروح. "*اليوم، أعلنوا لنا مائة واثنين وعشرين انتحارا في القطاع ب، كلها بواسطة الشنق، أما القطاعات الأخرى فهي حتى الآن لم تقدم تقاريرها. رحم الله أرواحهم المعذبة، ولكن كان مكتوبا عليهم هكذا! أوف! هذا ما أعلنه المقدّم الشحيم، تاركا مباشرة المكان للإعلان الإشهاري يمدح مزايا وقوة حبال من نوعية "أوف!" المبيعه بالدزينة مقابل ثمن رمزي! والجاهزة للاستعمال، مع عقدة متحركة مضمونة*.

"درجة أكثر، درجة أقل. إن البؤس يقتل بالذل أكثر مما يقتل بالجوع." هذا ما كان يُسمع في الأكواخ. وإلى حد اليوم، اشتغل البرنامج بطريقة عجيبة باستثناء طبعا ما حصل للمتمردين العراة."

– لكن هذا مرعب، كيف يمكن إخضاع الأشخاص الشرفاء بالطريقة نفسها؟

– "درجة أكثر تضاف، درجة أقل لحزامكم، وستشعرون أنكم أكثر خفة" أجابتني في تناغم تام كل مكبرات الصوت بالقرية، التي غدت فجأة أكثر فصاحة.

وخلفي، كانت المرأة صاحبة الحائك قد اختفت مثلما كانت قد ظهرت. وخلت الشوارع ببطء، ولم تبق إلا الدكنة ملتصقة بجدران البيوت. وفوقنا، كانت السحابة المخضرة تستأنف نزولها للجحيم. قبل هبوط الليل، خرجت من هذه المتاهة المكونة من بيوت قديمة، من كوابيس، من أطلال، من وحل ودم. لم تعد لي شهية للأكل، وأنا أحس فجأة أني خجلان أمام هذه الأنقاض البالية، خجلان من الاعتقاد بمستقبل أفضل بينما هناك أناس لا أمل لهم حتى في الحاضر. التفت لأرى، للمرة الأخيرة، الراية البئيسة ولكن شامخة: كانت ترفرف وحدها في انتظار الريح.

سأذهب للبحث عن مكان بعيد عن هذه الكارثة لأقذف بنفسي في الهواء. إني عازم على عدم الاستسلام لعذابات حياتي، مثل كل متمردي القرية ب114. أريد مغادرة القرية المضروبة بالمجاعة لأغوص، بمساعدة الطعم المزّ لأقراصي، في حلم بمجاديف أثمناها شبقية. إن الأقراص ستمنحني المساعدة لإيجاد حل في حياة، افتراضيّة إذا تحتم.

نحبك يا دولي!

فوق التضاريس، التحفت سماء غضوب بضبابية شاملة ملتفة بركامات مكفهرة ومنتفخة غيظا. كانت الومضات التي تخترق الظلمة، تسبق وابلا كبيرا سقى كل الوادي بدلو واحد. هذا المطر والبرد جعلاني أجري. كنت أركض متعرجا لأتفادى همرات المطر اللاذعة التي تهطل على شكل عصفات. وبعيدا، وعلى ربوة صغيرة، كان هناك بصيص صادر عن كوخ يضيء نوعا ما ممرّا، أرشدني في هذه الليلة التي لا قمر فيها ولا نجوم. ورغم مراوغاتي واجتناباتي لتفادي المطر، فقد وصلت إلى الكوخ الخشبي، وأنا مبلل حتى العظام وجلدي مرضرض جراء حبات البرد ذات الحواف الحادة. دفعت الباب: إنه إسطبل، ولكن لا خراف فيه ولا نعاج. المهم أن لا تكون قد تاهت في مثل هذا الجو!... قررت أن أقضي الليلة في موضع ناشف لأن ذلك سيريحني قليلا.سأتخذ من عرمة التبن فراشا وغطاء. وفي الوقت الذي استلقيت فيه على هذا الكلأ الطري، شدّ انتباهي شكل: إنه طفل صغير، أبيض اللباس تماما، جالس في زاوية المخبأ. كان يلاحظني بانتباه. كان جميلا، هذا الملاك ذو الخصلات الذهبية. كانت عيناه الزرقاوان تحدقان فيّ بفضول متوجس. وحتى لا أخيفه، ابتسمت له بلطف. لا يمكن أن يكون هذا هو الراعي الذي ينتظر عودة قطيعه؛ إن الطفل جد صغير ليقوم بهذا العمل. اقتربت منه، لا يبدو أن حضوري قد أزعجه، كان يمسك بيده

كتابا قديما، واحدا من هذه الكتب التي تحكي حكايات، تبدأ كلها بعبارة "كان يا ما كان..." مع كثير من الصور للتلوين. وكانت أقلام تلوين مكسرة الألسن مرميّة عند قدميه؛ أخذ واحدا منها أحمر اللون وحاول بريه بأسنانه الصغيرة البيضاء. وفي لحظة، امتلأ فمه دما. أزعجني هذا المشهد وآلمني في آن واحد. وحتى أحطم حاجز الحرج الذي بدأ يقف بيني وبين ضيفي الشاب الصغير، طلبت منه، وأنا أبتسم دائما، أن يحكي لي حكاية من هذه الحكايات الجميلة التي توجد في الكتاب. نظر إليّ طويلا، نظرة بريئة، رادا عليّ ابتسامتي، ثم... أخذ يثغو! وحلّت خصلات من صوف على رأس الطفل محل خصلات النور. أحسست بأنه سيغمى عليّ فوق التبن، ولكني بذلت جهدا لأتماسك حتى لا أتخاذل أمام هذا المتحوّل. وبدأ الصوت الأحادي اللحن قراءة قصة حزينة وشاغلة للفكر: *كان يا ما كان، منذ عدة مئات من السنين، مباشرة بعد المرور إلى القرن الحادي والعشرين؛ كان أجدادنا القدامى قد اخترعوا الحياة الجميلة التي كان فيها بعض الناس يأكلون حتى الشبع: لقد عرفوا كيف يكبّرون الخضروات ويضاعفون اللحوم، بينما كانت الحياة الجميلة بالنسبة للآخرين، تبدأ مع موتهم. لقد تمتّعت الشعوب إلى حد الموت: أما الحرب، فإنهم لم يقوموا بها إلا على سبيل دفع الملل، الملل من رؤية جار أكثر ضعفا أو أكثر فقرا أو مختلفا بكل بساطة. كانت المساواة والأخوة قد دعّمت روابط ومصالح البعض؛ في حين ألقى الإقصاء بالآخرين الأكثر عوزا في غياهب التهميش. كانت الحداثة قد غزت وحسّنت اليوميات السعيدة للمحظوظين في هذا الكوكب السعيد، بينما استقر الفقر والبؤس في جلود وأنفس المنبوذين. كان العلماء*

يتسلون، وهم يلعبون بانتقائية التطور بكل بساطة، ولكن دائما لفائدة التجمعات نفسها. لقد كانت التطورات زاهرة، وكان كل يوم يحمل نصيبه من الاكتشافات:لقد توصّلوا إلى النجاح في إبراز أسنان للدجاجات حتى تتمكن من أن تنقر حتى الحجارة، ويكون بالتالي إنتاجها عالي المردودية. وكانت الأبقار آكلة لحم البشر تأكل عجولها. وعلى النقيض، كانت السوائم القاسية تأكل أهلها حتى "تتغذى ذاتيا"، وتنتهي في الأخير إلى بطون باحثينا القدماء. كانت الأسماك تتغذى على التقيؤات اللزجة والمقرفة لناقلات البترول الضخمة. لقد كانت تلقي بنفسها، في أسراب، على الضفاف الملوثة، فلا حاجة للذهاب لصيدها. لقد فضلت هذه الفقريات المائية، المتشحة بالحداد أن تنتحر، بالضبط، قبل موتها الأكيد، إما استباقا وإما شجاعة. وكانت الخضروات قد تطورت في المخابر بإدخال موروث آخر مغتصب ومسروق، على هيئة باكورات خالدة مشوهة الشكل وعديمة الطعم. إن مضاعفة العناصر انطلاقا من نموذج وحيد قد أفسحت المجال لظهور سلالات حيوانية و نباتية جديدة؛ وكان هذا، بالطبع، قد أفاد أجدادنا العلماء. فقد أصبح الغذاء وفيرا بالنسبة للبعض؛ في حين كان على الآخرين أن ينظفوا بالفرشاة كروشهم! كانت السماء قد أضاعت الشريط الرقيق الذي كان يقوم مقام الحجاب بين لسعات نجم النهار و سكان هذا الكوكب العبقري. لم يجد أجدادنا أفضل من أن يوجّهوا ضبيباتهم ومداخنهم نحو الغلاف الواقي، راشين السماوات كما لو أنهم يشكرونها على تساقطات المياه الصافية والمنعّمة التي كانت تسخو بها عليهم. ومنذ ذلك الحين، والمطر يترل في كل الأوقات سخاما حمضيا. كنا نندس في المغاور تفاديا

من أن نحترق بهذا الطوفان القاتل. وفوق ذلك، فإن أجدادنا المظفّرين لم يجدوا أفضل من دفن نفايات مصانعهم المنتجة للمال والطاقة في بطن الأرض. "إذا كان الحوض تالفا، فإن كل ما يُصبّ فيه يغدو ساما." كما يقول المثل الشعبي، ولكن ذلك لم يكن مكتوبا في كتاب العادات الذي يقول بالأحرى: "إن كل ما هو غير مكتوب في الكتاب خاطئ!" ومنذ ذلك العهد والأرض ترجعه لنا كما ينبغي، إنها تتجشأ من أحشائها المتعفنة بمضادات الطفيليات والإهانات عشبا متحللا. والثمار على الأشجار فقدت، منذ مدة طويلة، لذاذاتها التي عوّضتها حموضة معدية. أما نحن، خَلَفهم الصالح، فإننا جميعا سليمو الجسم والعقل. يجب علينا بالخصوص ألا نفزع: إن الطفيليات التي تنمو على جلودنا ليست سوى نتيجة انهيار جزء من كرياتنا البيضاء. إن الحالة المَرضية التي نحن عليها ليست إلا نتيجة لتكاثر غير طبيعي لخلايانا، والحياكة الفوضوية لأنسجتنا. وإن الاهتزازات وفقدان الذاكرة والتقيؤ المستمر والزغب الذي ينبت على ألسنتنا، الخ... إنما هي علامات ودلائل على وراثة سليمة؛ المهم أن هذا ما يقوله دائما كتاب العادات: هذه الكتابات المقدسة التي تنقل تاريخنا وتوجّه مستقبلنا. هناك أسطورة قديمة تروي أنه في مكان ما، في غابات بعيدة وكثيفة، كانت تعيش قبائل تفلح حقولها وتحرثها بحيوانات نخشاها نحن اليوم، ولكنهم كانوا ينعتونها بالأليفة. إنه تاريخ مضحك! وما من أحد، هنا في المغارة، يصدق هذه الخرافة... أعتقد أني سأضطر للتوقف عن حفر مكابداتي على جنبات هذه المغارة،إنه الوقت المناسب لدفن أنفسنا حتى نختفي عن النعاج. قريبا ستخرج من جحرها لتقوم بمطاردتنا. إن هذه الدواب الخطيرة التي أصبحت،

منذ ذلك، آكلة للحوم، غدت شديدة الوحشية والقسوة الباطنيّة تجاهنا. بفضل أولئك الذين يسقطون بين أنيابها التي لا ترحم. لم أدرك أبدا لماذا تشاء العادة أنه كلما تم إمساك واحد منا، من طرف إحدى هذه المستنسخات، ليتمّ حتما أكله، وفي اللحظة التي تشرع فيها في شرب دمه، يصيح الناجون الآخرون المؤجلون مغنين: - نحبك، يا دولي!

نام الخروف الصغير مباشرة بعد قراءته... أما أنا فلم أعد نعسانا. كانت العاصفة غاضبة في الخارج. التحقت بحزمة تبني. واغتنمت الفرصة لأقرأ قطعة جريدة كانت مرمية على الأرض.

لم تكن العناوين أكثر طمأنة من الحكاية التي قام الطفل الصغير بحكايتها: *باب أحداث متنوعة:*

- إن ثقب طبقة الأوزون لا يتوقف عن التوسع: عن قريب، لن تنفع المراهم الواقية في شيء.

- الفصول أصبحت متطرفة أكثر فأكثر، أصبح الشتاء منتقما وجليديا: اقل من 51 درجة مئوية في كندا، الثلوج تسقط في الصحراء.

- الأنهار غدت متحولة: لقد غادرت مجراها، وهي تداعب الضفاف على أسطح المنازل.

- تزيّن الصيف بقساوة محرقة: هوليود تلتهب تحت نيران... المنحدر.

- الجبال الجليدية ترشح حرارة. خمسة عشر ألف متوفّ بباريس.

- خلال الأيام العشرة الأخيرة، آلاف من الأشخاص هلكوا متجمدين، محترقين، غرقى أو مختنقين. هناك فعلا ما يدعو للقلق...

باب المستجدات: *"أي جرأة، لقد أصبح الآن للدجاج أسنان!"*

ابتسمت، وأنا أفكر فيما كنت قد علمته من كتاب الحكايات،

وواصلت قراءتي... *إن مخادعة عبقرية هي التي سمحت بهذه "المعجز".* معجزة! معجزة! إن للدجاج أسنانا! لقد أدرك التطور المثلَ. لم تعد المعجزات كما كانت من قبل، هاهي أصبحت حقائق عبقرية! شكرا أيها الأصدقاء! شكرا!

باب الأموات: *"لقد بلغتنا ببالغ الحزن وفاة النعجة الشهيرة المستنسخة: دولي"* على هذا، أكلت ورقة الكرنب راجيا أن تكون هي الأخرى مغشوشة جينيا، كم أتمنى أن أتحول إلى لا شيء، إلى نؤوم أو إلى هالك أفضل. سيكون ذلك دائما مفيدا بالنسبة لهذه الليلة!

البحث العميق

إن الإنسان سخيف بما يروم، عظيم بما يكتشف.

بول فاليري

"لا تتوقف؛ تعال، ادخل!"

عند استيقاظي، لم يكن في رأسي سوى فكرة واحدة: مغادرة هذا المكان بأقصى سرعة. لازلت مبلبلا جراء الرؤية الشبحيّة التي عشتها البارحة في الزريبة. وقع نظري على الطفل الصغير الذي كان نائما، ملتفا بالقش، يمصّ إبهامه، كان يبتسم بهدوء في أحلامه. ومثل كل الصبية في سنه، كانت خصلات شعره تضفي عليه مظهرا ملائكيا. "لا شك في أني قد قمت بمشوار سيء. مرة أخرى، هي هذه الأقراص الملعونة." نهضت مطمئنا، التقطت أغراضي القليلة وتأهبت للرحيل.

توقف المطر عن الهطول في الخارج. هممت بإغلاق الباب عندما تناهى إلى سمعي ثغاء مشوب بالنعاس آت من عمق الملجأ. تملكني دوار جعلني أتصبّب عرقا. ودون أن أنظر ورائي، نزلت مهرولا من الربوة ذات الأهوال المستنسخة. كنت أسارع، ورجلاي في عنقي، للابتعاد عن كوخ الرعب. كنت أجري دون أن أدري إلى أين أتجه، كنت فارّا بسرعة لدرجة أني ارتطمت بشجرة برّية[25] ضخمة كانت، في الواقع تخفي غابة برّية كاملة. انهرت على الأرض واغتنمت الفرصة لابتلاع كمشة من الأقراص. كنت في حاجة للخيال، إذا كانت تلك هي حقيقة العالم؛ وإذا كنت لأزال أهذي، فسأطمع حينئذ في النقيض! لا أتمنى إلا شيئا واحدا: أن

[25] - أنا في قمة الهذيان، غريب في تعليلاتي. ها، لقد حاولت سابقا أن تكون عقلانيا وأريبا تحت 45 درجة وبدون ظل؟ أما أنا فلا، إذن هيا!

أستريح في محيط سليم منذ ولادته،طبيعي ودون أي تدليس. أنشق الهواء النقي والطري الذي ينبعث من الصنوبريات الكبيرة وأشم العطر اللذيذ للأرض التي تنتظر بذرها... التي تنتظرني... والتي تمتصني...

كانت أشجارا جامحة، عازمة على النمو ولو في حالة هزال، تبدو كأنها تسخر من هموم الزمن؛ كانت جذوعا على شكل أعمدة تتطاول نحو سماء زاخرة بالنجوم؛ وأغصانا معروقة تحاول أن تمسك بي عند المرور؛ اعترضتني ممّرات شائكة، مقترحة عليّ عوسجها؛ وروائح بذور منعظة رطبة منحتني رغبة في إخصاب حياة أخرى. "لا تتوقف؛ تعال، ادخل!" سمعت كما لو أن نهيجا يأتي من أعماق الغابة، "لا تتوقف؛ نعم؛ تعال، ادخل!" تمددت ببطء في درب متعرّج. وتقدمت متلذذا على أرض، وأنا أتشرب كلّ روائحها؛ فهناك رائحة تربة عضوية، رائحة الماء، رائحة خبز التوابل، رائحة العرق، المسك، القرفة؛ القرنفل، الورد، الزبد الرطب وشيء ما بين السمك والليلك، وسائل حلو خفيف، المسكَن والسماط، المحيط، الجنة، البداية... والنهاية. وكلما توغلت في هذه الغابة، كلما أعدت التفكير فيما دفعني إلى المغامرة فيها: إنها رحم واقية، مغذية وخصبة حتى وإن جازفت بسلخ نفسي حيا عن شوكها المتمرد. إن الرحلة تستحق الانعطاف. كان قمر عال في تمامه ينير الغابة بضوء برتقالي غريب. وصلت إلى منتهى عمقها: في وسط فرجة، تتربع شجرة عملاقة الأبعاد. وهناك شيء ما أو أحد ما ينتظرني. تخلصت بصعوبة من المجسات الشائكة والذابلة للأحراش، حدّثتني وداعبت جسمي في إحساس ممتع. "لا تتوقف؛ تعال، ادخل!" إن اللهاث إذن يأتي من هنا. كان يجلس عند جذع الشجرة، أبيض اللحية واللباس، متعمما بعمامة خضراء، طويل الوجه، دقيق الملامح، مقوّس الأنف بعض الشيء ما. لقد أحس العجوز بحضوري حتى وإن كان في قمة تأمله. كان ينظر بهدوء إلى القمم وهي تنثني تحت عبء أوراقها وثمارها، ويستمع

إلى زقزقة أسراب العصافير المختبئة في الظلال الكثيفة للأشجار العالية؛ وببطء، تنازل وأنهى تقصّيه البصري حول شخصي النحيل ثم أسدل جفونه. كانت ابتسامته البشوشة تدعوني. تقدمت نحو وسط الفرجة، وأنا خائف، لأن الحياة غالبا ما غالطتني. ولكن هذا العجوز، كانت عليه هالة من القداسة؛ ومنحني هدوؤه شيئا من الاطمئنان.

"كنت أدرك دائما أن صانعي المعجزات والسحَرة الآخرين المطببين إنما يختبئون في الغابات. أما أنا فإني كتيم عن السحر، سواء تم باليد اليسرى أم بيد بيضاء كالثلج، لم أؤمن بذلك أبدا ولن أؤمن به أبدا. ها أنا أجد نفسي وحيدا في الأعماق الغابية في مواجهة ساحر، ولكن من يدري؟ ربما يعطيني دواء لتلطيف حياتي؟ وفي أسوإ الحالات، أعلم أني سأستيقظ في وقت متأخر أو في مكان آخر!" تلك كانت أفكاري وأنا أضع قدمي على التربة العضوية لهذا الحرم العالي. رفعت عيني، لا يزال القمر الكبير موجودا، يصب لبن عصارته على الدائرة العارية. "يا إلهي، اجعلني لا أفيق أبدا، إني أشعر بالراحة بشكل موجع."

- يوم سعيد أيها الحكيم الفائق الاحترام، جئت أستشيرك لأعرف مرضي، وأنا مستعد لتقبله لأني أظل مقتنعا بأني لن أجد أسوأ من هذا القدر. لقد كذبت طبعا، لم أكن أعلم حتى بمجرد وجود هذا الزاهد، ثم إني لا أدري حتى كيف وصلت إلى هذه الغابات! لقد جازفت بالمبادرة في الكلام لأمنح نفسي مزيدا من الاطمئنان. وعلى كل حال، فإني مستعد لتصديقه حتى ولو حكى لي ترهات. إذا كانت حالتي ميؤوسا منها فإني سأستفيد، بالتأكيد، معرفة أني ضائع سلفا! لكن لا جواب. لقد بقيت عيناه مغمضتين، ولم يعرني حتى مجرد وزن!

– لقد قطعت الجبال والأودية للعثور عليك. وإن شهرتك قد تجاوزت هذه الغابات. يقال إنه بإمكانك معالجة كل العلل، وطرد كل الأرواح الشريرة و كثيرا من الآلام الأخرى أيضا... هكذا مدحته بارتباك.

أعتقد أنه ليس باستطاعتي أبدا أن أكذب، لقد أحس مباشرة بتملقي. فتح عينيه وسعل سعالا خفيفا مصحوبا بضحكة ساخرة. وبيده، دعاني للجلوس.

– كيف يمكنك أن تقول ذلك، أنت الذي لا تؤمن حتى بنفسك؟ كيف تؤمن بي أنا؟

تشقق صوته العجوز وغدت عيناه ضاحكتين.

– كيف هذا، أنا لا أؤمن! عندما كنت صغيرا، تغذيت على مسحوق حليب الدجالين، وتربيت بالعصا السحرية، ولعبت بقوائم الأرنب و بالجعران. وعندما بلغت سن الرشد، وشَمْتُ يد فاطمة على مؤخرتي لأحمي نفسي من القشاشين؛ و... بحركة عطوفة، ولكن حازمة، وضع حدا لمرجعياتي الكاذبة. هزّت الساحر العجوز ضحكة أكثر صراحة. أنا متأكد أنه لا يصدق أي حرف مما قلته، ولكن في هذه المرة، نجحت في إضحاكه، إنها إشارة حسنة!

– هيا يا كبيري، لا تكلف نفسك كل هذه الجهود. إني أحس بالصراحة في أكاذيبك. لقد أخبروني مكابداتك سلفا. ماذا تريد أن تعرف؟

– من طرف من؟

– إنك تعرف من طرف من، و لكن الآن لا يمكنك أن تقنع نفسك بتصديقه. قل لي بالأحرى ماذا تنتظر مني؟

– إني على الطرقات منذ... الأبد، أنا أفكر... أنا أبحث عن شيء لا أعرفه حتى مجرّد معرفة... لقد جعلني باب الصحراء أستشف أشياء جميلة، و لكن بعد ذلك عاد ليرمي بي على القار، نحو طرقات سيئة

أخرى لم أر فيها إلا خيبات و مصائب... أريد أن أعود إلى بيتي و لكني أضعت أصلي. لا أعرف حتى من أنا، سيدي هل تعلم أنني لا أعرف اسمي؟ إن الخوف من الأيام القادمة المستنسخة عن السهرات الحقيرة يجعلني من جديد أكثر ارتيابا مما ينتظرني... و لا أدري ماذا أفعل.

- أنت غير مستعد بعد، هذا كل شيء. اذهب! واصل طريقك، يجب عليك أن تكتشف كل واجهات الحياة و الناس، و أن تعيد النظر في وجهات إحساسك: تعلّم أن تحب، أن تضحّي و خاصة أن تفهم. هكذا تقبل نفسك، و ستستوعب الطعم المرّ. سأعطيك نصيحة أفضل من كل ترياق: ارجع إلى الصحراء، انظر إليها بعيون الشفقة، افتح لها قلبك ودعها تحدثك. و لكن قبل ذلك، يجب عليك أن تواجه الزمن، والبشر، وموتك الشخصي لتولد من جديد على الشكل الأكثر كمالا. في هذا اليوم يُرفع جهلك، ويحلّ الكشف محله.

سكت العجوز و استدار ليستغرق في تفكير عميق. أغمض عينيه. سحبت السماء أغطيتها السوداء المزينة بشذرات برق لامعة ، لقد استنفد نجم الليل بذاره.

أحيتني الأشعة الأولى للشمس المشرقة. استفقت مع اللذة الحلوة لتجربتي السابقة. كنت أنضح، وأنا متمدد على فراش من التربة العضوية، كنت بردانا، و لكن كان لدي شعور بأني قد اجتزت مرحلة هامة من البحث. لقد اختفت الغابة، لم أعد أبحث لمعرفة أين أنا! إني تقريبا سعيد.

قطرة من المتعة

إن النصيحة التي قدمها إلي حكيم الغابة لازالت تخبّ في رأسي الصغير- "ارجع إلى الصحراء... لكن قبل ذلك، يجب عليك أن تواجه الزمن، والناس و موتك الشخصي لتولد من جديد على الشكل الأكثر كمالا." ... لذا، وغريزيا، لم أنفك أهرب من هذه التوصية. جريت حتى فقدان الأنفاس... أريد أن ألتحق بشيء ما لم أكن أعرفه!

لم تعد الطريق الكبيرة بعيدة، واصلت دائما الإسراع في الانسحاب، وقطرات العرق تغرق جبيني ثم كامل جسمي. وبعيدا ومع لمعان القار، لمحت، كما في سراب: أحذية رياضة، تبابين مقولبة، أقمصة من كل لون وقبعات مزركشة يرتديها سرب من الأشباح طويلة الأطراف، كانت تطأ الطريق بخطى إيقاعية. كان الحشد يتجه نحوي. وكان الطّرق الأصم للأقدام يهزّ الأرض، واللهاث المنتظم للصدور يتصاعد في الهواء على شكل بخار ساخن. كنت بعيدا جدا حتى أتبينه. كم كانوا؟ آلاف؟ مئات؟ كثيرين على كل حال. انتظرتهم بجمود وبدون سبب، على حافة الطريق. وصل الحشد المتعدد الألوان إلى مستواي. كان كل العدائين يحملون ظهارات مرقمة. مدّ إلي شبح واحدة منها تحمل الرقم 23730. أشار إليّ أن أتبع خطاه. كنت، وأنا بثيابي الرثة وهيئتي الغبراء، أشبه بغول أعجف يخب وسط هؤلاء النسوة وهؤلاء الرجال ذوي الأجسام الرياضية. كنت أركض، وأنا مرتبك، محركا الهواء بأطرافي العلوية وداكا الأرض بخطواتي غير

المنتظمة. كنت كالدمية المفككة المفاصل، أجهد نفسي في تقليد هؤلاء العدائين الذين برزوا من لامكان.

- لماذا تجرون كلكم هكذا؟ سألت، ونفسي مقطوع، بفضل من الجهد
جعلني أسعل.

كان الشخص الذي انتزعني من جمودي رائعا في زيّه الكاشف، كانت كل مفاتن جمال جسمه بارزة بتفصيل شاغل للبال. كان الشبح يبدو تقريبا خنثويا بأرجل لا تنتهي، تحمل أوراكا مموّهة تضيق باتجاه بطن مسطح ومشدود العضلات. هذا الغموض يفضحه نهدان سخيان مستديران مرفرفان ينظمان إيقاع الخطوات، وعنق طويل صلب، وشعر مرتب ووجه مشدود الملامح من الجهد، ولكنه يحتفظ بكل هدوئه في جمال غريب. التفتت دون أن توقف جريها، فارضة عليّ بذلك نسقها، لتقول لي بابتسامة، ابتسامة ذكرتني بأن الحياة يمكن أن تكون جميلة.

- إنه ماراتون الزمن.

هزتني صعقة من الأدرينالين.

- ماذا؟

- إننا نعود أدراج الزمن.

- و... و... كي... كيف... تفعلون ذلك؟

كان كل مقطع، وكل لفظ أجهد نفسي في النطق به، يرهقني ويضعفني. كنت أحس بخلية نحل تطن في رأسي.

- إننا نجري في الاتجاه المعاكس لدوران الأرض.

- لما... لماذا؟

أخذتْ يدي، كانت يدها دافئة ولطيفة، تسرب فيّ سائل سحري: عاد تنفسي ينتظم ببطء، وعاد قلبي أقل اضطرابا، وغاب الأزيز الذي كان يملأُ أذنيّ.

– حتى نتحداه. فالجري ثمّ الجري، والجري دائما ضد الزمن؛ ذلك هو ديدننا جميعا. إننا بهذه الطريقة، إنما نُديم الاستمتاع.

– إذن هي المتعة التي تدفعكم إلى القيام بكل هذه الخطوات؟

كنت مندهشا للسهولة التي توصلت للحديث بها الآن، كان شبحها يعدو دائما بجانبي، يدي في يدها، وسائلها يملأ كياني.

– لا يوجد نفع خاص بحركة الجري، ولكن المعنى الذي نعطيه لها هو المهم. إن أرجلنا وعقولنا هي التي تطلب إلينا ذلك، إن الأمر هكذا. إننا نشعر بأننا في انسجام مع ذواتنا رغما عن الزمن.

– وأنا الذي يظن أنكم إنما تجرون من أجل الهروب من الزمن الذي يمرّ فقط. نظرت إلي ثم ابتسمت مع هز كتفيها. يُحتمل أنها كانت تعني القول "إنك على هامش الموضوع!" وتتواصل النزهة، والآخرون لا يعيرون اهتماما لتطفلي. ان يبدو عليهم جميعا مظهر الغياب، مثل الإشعاعات المصورة.

– قولي لي، أمازال بعيدا المكان الذين تقصدون؟

– لم يبق لنا سوى اثنين وأربعين كيلومترا و 195 مترا.

جمّد جوابها جسدي، "42 معلما من الركض!"

– إن رأسك ليس على ما يرام! هل تعلمين ما معنى أن تجري 42 كيلومترا و 195 مترا.

سمّرني الهلع وسط كل هؤلاء العدائين الذين يواصلون سباقهم بدون هوادة. إني لا آنس في نفسي القدرة على جري 42 كيلومترا و

195 مترا مع هذه الموجة البشرية المصنوعة من العضلات والمواهب. على بعد بضع خطوات مني، كان الشبح يحاول أن يمد إلي يده ليجرّني معه، ولكني كنت قد ابتعدت، وابتلعتني آلاف الأقدام والأرجل والجذوع والقبعات. هل هو التعب الذي يجعلني أعتقد بأن أشكال الرياضيين المصابة بالإشعاع تخترقني من كل جانب لتتركني في الخلف، أم هل هو الغليان الذي استرجع مكانه في رأسي ليربك أحاسيسي؟ إني أراها تلتفت لتتبيّنني، إنها تشير إليّ أن ألتحق بها. كان فكري، وأنا مقطوع النفس، يرفض أن يعمل؛ ودون تفكير طويل، برمجته على النظام الآلي، وانطلقت أركض مثل المجنون. "لا يهم! عندما يتحتم الذهاب ينبغي أن نذهب!" اخترقت، دون مقاومة تذكر، هذه الكتلة البشرية الواسعة والمائعة في آن واحد. أسرعت نحوها. إني متخم بها. وعندما وصلت إلى مستوى "شبحي" كنت على شفا الإغماء.

– أين كنت؟ ألقت إليّ بالسؤال دون أن تكلف نفسها عناء النظر إليّ.

– ليس بعيدا جدا. لقد كنت خائفا... ولكن ليس الآن! هذا ما أجبت به وأنا أبصق أحشائي. وترسّخت في رأسي استراتيجية: الآن وقد عثرت على رفقاء طريق آخرين، فإني لن أفارقهم ولو تحتّم عليّ أن أنتهي إلى ما انتهى إليه الجندي الإغريقي الباسل، ولكني سأصل! كنت وأنا أركض، أشاهد عرض قصة هذا المبعوث الذي قطع جريا المسافة الفاصلة بين مدينة ماراتون ومدينة أثينا ليعلن انتصار ميلتياد على الفرس قبل أن يهلك رهقا. سمعت، وأنا غارق في هذه الأفكار القديمة، صوت العداءة يشجعني:

– تمسّك، واتبع إيقاعي.

انتظرت أن تعيد أخذ يدي، أن تمنحني مرة أخرى قليلا من قوتها، ولكن دون جدوى.

– أين نجري نحن هكذا؟

– لنلتحق بالهضاب العليا.

– لماذا... الهـــ... ضاب الـــ... عليا؟ وأنا ألهث في نفَس أخير.

كانت يدي تبحث، في الفراغ، عن ملمس يبعث الحياة، ولكن دون جدوى دائما.

– إنه أحد أبواب الصحراء.

– لطالما نصحوني بالعودة إلى الصحراء، ولكن الصحراء ليست داري. فماذا عساني أجد فيها غير ما تركته: مضايقات وخيبات أمل، هذيان واسترقاق، عطش وقيود في الأقدام؟

– هذه الصحراء هي صحراء الأحكام المسبقة وشراهة الرجال. أما الصحراء النائمة فيك، مثلما هي فينا جميعا، فهي توقظ التأمل والحكمة.

وحتى توقظها، يجب أن تكون صبورا وأن تتعرض لابتلاءات رهيبة، وستكون مرغما كذلك على أن تنسلخ عن أفضل ما فيك.

– وماذا تعرفين أنت عن ذلك، كيف يمكنك أن تفهمي معاناتي؟ إنك بعيدة جدا عن الوقائع بما أنك تزعمين أنك تجرين ضد تيار الأحداث، وضد الزمن و من أجل المتعة فقط.

– لقد جئت للقائك لأدلك على الطريق...

إثر ذلك، التفّ شبحها في صمت عميق من الخشوع، وهي رافعة الرأس، ناظرة لبعيد، منتظمة الأنفاس وموزونة الخطى. أما أنا فأحسست بحرقة شديدة تلتهم صدري. وبجهد لا يطاق، حافظت على وضع المرفق

للمرفق معها. كم قطعنا من ساعات أو من كيلومترات؟ يستحيل أن أعرف ذلك: بتوالي الأرياف والمدن، غدت المشاهد أكثر قروية، والمنازل أكثر تشتتا وأقل اتساعا، والدواب مجاورة البشر.

فهمت أخيرا أن الجمود يحبط الزمن. وعندما نتحداه بالاتجاه المضاد، ينتهي بالانثناء. وإني لم أشعر بذلك إلا في نهاية لست أدري كم من معلم.

كان شبحها يتقدم في العودة أدراج الزمن، خافضة الجفنين، مرفوعة الرأس، منتظمة الجهد بمعنويات لا تتزعزع، وهي تفرز من الداخل متعتها الشخصية. كانت كل خطوة تدفعها من جديد لخطوة أخرى أكثر سرعة. كانت تبدو بعيدة عن كل شيء؛ كانت قدماها، رجلاها، فخذاها، ردفاها، ظهرها، بطنها، صدرها، فمها، أنفها وعيناها تلتهم الكيلومترات لتحولها إلى جذل شهواني. كنت أنظر إلى هذا الجسد نصف العاري الذي يهيّج حواسي التي كنت أظنها مخدّرة، وكنت مندهشا وأنا أحس بانبعاث لذة كامنة. كنت مأخوذا بدوامة مداعبة. كانت هذه الدوامة الساخنة تتحرك وتكبر داخل كياني. فجأة انغرز هيكلي الهش واختنق، أحسست بأنه سيغمى عليّ. كانت ذراعاي تضربان الهواء بجنون ويأس. وفي اللحظة التي كنت سأنهار فيها، أدار الشبح نحوي رأسه بهدوء وابتسم. رأيتها تغطس يدها في الجهة الأمامية من تبّانها، وتخرج منه حبّة صغيرة بيضاء وتضعها بين شفتي: كانت حلوة ونديّة. لفّني غلاف من الهواء الرطب، واندفع الدم إلى صدغيّ، وكان قلبي يدق نوبة الاستسلام. ومع ذلك فقد بقيت في وعي مذهل. لاحظت بوضوح قطرة العرق الصغيرة معلقة، عند سقوطها، على خصلة رقيقة من الشعر، ثم ينتهي هذا النفَس السائل بالسقوط، كان يسيل ببطء على الجبين، يتسرّب في صمت بين العينين،

يلتحق بالجزء الأعلى من الأنف، يقترن بنتوئه المنحدر ويستدير بمرونة حول طرف المنخرين. القطرة تلمع فوق الشفاه الكبيرة والغليظة. في هذه اللحظة أمسك الشبح أنفاسه ليجعلها أكثر طولا، وأكثر حلاوة، ربما تفاديا لسقوط القطيرة. ولما وصلت إلى الحافة، داعبها طرف اللسان ثم ضايقها ليدفعها بهدوء على الذقن. لقد ظلت عيناها مغمضتين طيلة كل مسار القطرة، أما عيناي فلم تفارقاها. كان نفسي يتسارع أكثر إثر كل عقبة تلتف حولها، بشهوانية، قطرة العرق الصغيرة. وكنت أواصل رسم زخارف شبقيّة بعيني لمرافقة قطيرة الإفراز الساخن والمحتدم في سباقها. كانت تسيل على طول الحلق بفتور لتبلغ العنق، وبعده الوادي الذي يفصل بين انتفاخي الصدر تحت القميص المبلل الذي يمتصها ليقوم بإخفائها. وتواصل القطرة، وحيدة، ودون نظري، مسارها المثير للشبق. ينصدم نفسي، وأنضح، وتستيقظ كل أحاسيسي. إني أسمع وأتصور السائل الشفاف المالح الذي يهمس قشعريرة على الجلد الرطب للنهدين الممتلئين والمنتصبين جراء الارتعاش الخفيف الذي يسببه هذا العرق. ردّ الشبح على هذا التدخل اللطيف المتولد عن الاحتدام والمدفوع باللذة؛ لقد ردت على ذلك بمزيد من الإيقاع في سباقها وفي هيجها؛ وقد قمت بنفس الشيء. وكان نظري مركزا على أسفل القميص، كنت انتظر بفارغ الصبر عودة الظهور التي لم تتأخر. لقد ظهرت المداعبة، مضمّخة بالجهد العضلي للمرأة الشابة، قرب السرّة. استقرت في قعرها لحظة أو خلودا ثم استيقظت لتستأنف سيلانها البطيء على أسفل البطن الذي أخذ ينتفخ وينكمش الآن بسرعة أكبر. كانت التشنجات تتم بسرعة أكبر وبتباعد أقل، وكان دمي حارقا أكثر. أما القطرة المتصنعة الحياء والخبيثة في آن واحد، فقد انتهت إلى الانزلاق تحت غطاء القماش الرقيق للتبان القصير المقولب.

رافقتها في دربها الشهواني. وهناك شققنا ممرا وسط الشعر الكث الرطب لنغرق أنفسنا في اللذة... و ربما أيضا، نقطة ب114 أخرى! كان جسم الشبح يجمح في اندفاعات متأوهة؛ والوجه ينبسط في شدة هشة من الرغبات ومن الشهوات الجسدية. وكانت دوائر متلاشية، نافدة الصبر، من السعادة تلتف حول جسدينا، ودوامة من التشنجات والحشرجات تجرنا. كنا معا مغمورين من الداخل بموجات من المنومات التي كانت تبرّد، عن طريق الارتدادات، انفعالاتنا. كنت أراها وسط هذه الدوامة، تنضح من كل كيانها في إحساس من القوة والفخر. وبهذا التعرّق الشهواني، أنهينا نحن الاثنين، وبالاتفاق، وعلى نفس الإيقاع، في انبعاث اغتباطي.

لقد أدركت الآن لماذا لا يتوقف هذا الشبح أبدا عن العدو. مثلما كان الحق لهذه المداعبة التي جرتني في الانثناءات الرطبة للمنحوتات الدقيقة التي تغلف هذه العداءة! إنني لم أفق بعد من هذه الرحلة التدريبية. لست أدري إن كنت قد مت فيها أم تهت فقط في أبخرة الأحلام.

لقد غرقت في الهضاب العليا التي بلغناها للتو مع الإحساس ببرد وحر شديدين في البطن. *انفصل رأسي عن بقية جسدي. سمعت نفسي أهذي: إنها تجري، إنها تجري! في كل الأزمان: في المطر، في الثلج، في الريح وحتى في الجو الجميل، إنها تجري. منذ اليوم الذي أدركت فيه أن المتعة تفتك بالجهد، وهي تجري. إنها، بعقل، تجري دائما بسرعة أكبر وبمزيد من الابتعاد لتسترجع الزمن الضائع أو تنخرط في دروب منسية. إنها تجري بحثا عن قطعة من الحياة الجميلة أو أوقية من اللذة. إن هذه العداءة الخالدة تواصل سباقها دون أن تفقد نفسها، رغم كل الجهود. إنها تجري، في ركض أبدي، من أجل المجد، من أجل المال، من أجل الحب، من أجل الانتصار أو ببساطة*

لكي لا تتوقف عن الوجود. إنها تسخر من الزمن. إنها تجري حتى لا تمسك بها أبدا اللحظة الماضية وتنتقل إلى اللحظة اللاحقة. إنها تجري، والجهد كبير، والوقت المراد استرجاعه لا ينتهي والعملية عسيرة. إني أحبها، هذه المناضلة ضد الجمود، هذه الباحثة عن المتعة. الآن وقد عرفتها، فإني سأبحث دائما عن إخضاعها، أجد في نفسي ميلا كبيرا إليها، الحياة. اجر ي! اجري! اجري! أيتها الحياة، اجري بأكثر سرعة ضد الدورات! ولكن فقط تمهلي قليلا، فربما التحقت بك يوما وسرت معك شوط طريق... من أجل المتعة.

ها هو السهب يتربّع على حجارته المتغطرسة. بقيت متمددا، السماء مقلوبة فوق جسدي؛ وتحتي تتناثر الحجارة على أرض لا تتوقف عن التشقق؛ وقطعان من آكلات الأعشاب تنشد المستحيل على أرض معزوقة بالرتابة والتقشف الأبدي لصحراء دانية تقريبا. وعلى مئات الأمتار من هنا، تترنّح قرية صغيرة، مثل زيغ، تحت الريح والشمس الفصلية. كانت الدُّور الصغيرة بالمشيّ، في هذا الارتداد، ترتجف متعة وخوفا. فالارتياح بمقاومة قساوة الزمن اختلط مع الخوف من الإذعان لهذه القساوة ذاتها.

- هذا ليس حقيقيا. ها أنذا. لقد وصلت! أجد صعوبة في التحقق من كون "انتصاري" ليس إلا على بعد بضع خطوات من القرية. هذا يطمئنني. يمكنني إذن استخدام مخزوني لتخطي خط الوصول.

بصعوبة، حاولت النهوض، مستحيل. أنهيت بضعة الأمتار المتبقية على أربع قوائم ثم على المرفقين؛ كانت ركبتاي تدميان. ولكن جسمي ينضح غبطة. عند آخر متر، سقطت ببطء كورقة ميتة، وتلقاني قار الطريق بلطف. وفي سقوطي، أعدت مشاهدة كل مساري المجيد والعنيف. لقد أنجزت أفضل مما أنجز المبعوث الإغريقي، فأنا حي

ومسرور عند الوصول. انقلبت على ظهري، ويداي متشابكتان. كنت أضحك ملء حلقي، كنت أضحك وأبكي، والسماء شاهدة على إنجازي. رفعت رأسي لأشكر رفيقتي في هذا العدو، ولكني لم أرها. كانت الطريق غير مأهولة، خالية، شاغرة! إلا من طبقة رقيقة من الوميض المتعدد الألوان تغطي قارها. لقد اختفى الشبح؛ والعداؤون الآخرون أيضا، طاروا وتبخروا. بقيت وحيدا، ممددا على القار، أسترجع نفَسي. وقبل أن أبتلع جرعة قوية من أقراصي المخدرة، كانت لي مناشدة أخيرة سألتها: "اللهم، اجعل هذه هي النهاية، إني أريد أن أرحل على هذه القطرة من المتعة!"

إكسير الحياة

بين الأطلسين، يمتد منخفض طويل وعريض، تستقر فيه هضاب سهبية واسعة. لا أشجار ولا ديار؛ ها هنا ميدان الريح والبرد القارس في الشتاء، والقيظ والسرابات المختلطة دائما بالريح، في الصيف. الحصباء في كل مكان حاضرة ما عدا في أعماق الشطوط في الأرض المجزعة. في هذه الركامات من الحصباء تتشبث نبتة وحيدة بالحياة: إنها الحلفاء التي تركب رأسها وتعير أذنا صماء للمناخ النصف أجدب في الناحية. وبعض القطعان المتفرقة من الماعز والخرفان والحمير والجمال تعيش وترتعي هنا حرة شرسة مثل هذه الناحية التي تنتصب في كبرياء ضد كل سلطان للزمن، تكافح بشغف ضد انقراضها.– في هذا المكان، تقود الحيوانات والطبيعة نفس المعركة، معركة الوجود. إن وحدة الشكل، التقشف، بعض الفدادين من الكثبان وكمشة من النخلات حول القرية تفتح آفاقا لصحراء لا تزال بعيدة أو ربما قريبة جدا. لقد أفضى بي انتجاعي في البحث عن هويتي إلى الانتقال إلى أبواب مكان آخر. ولكن أي باب؟ ينبغي علي أن أجتازها لأعرفه. لقد وصلت منذ عدة أيام إلى هذه القرية الصغيرة الكائنة في الهضاب العليا. إن العواصف الرملية هي الزوار الوحيدون الذين يعبرون هذا الركن الضائع. إنها تعبره حسب المزاج الشاذ للفصول، و قد كانت هذه المرحلة من السنة شاذة فعلا. إن الناس هنا لا يمشون ولكنهم يفرون. لا ينظرون إلى بعضهم البعض ولكنهم يتجسسون على

بعضهم بعضا. لا يخاطبون بعضهم البعض ولكنهم يشتمون بعضهم بعضا: "إن سبب ذلك هو هذه الريح الرملية اللعينة التي لا تني تصفع هذه القرية وساكنيها" هذا ما يرويه سكان القرية.

أن وصلت إلى هنا، "على ذكر ذلك، منذ متى أنا هنا؟" لا أحد وجه إليّ الحديث، وعندما يقوم أحدهم بذلك فإنما يفعله خطأ بالأحرى. كنت، كل صباح، أنتصب وسط الساحة المركزية لأقوم بمدّ اليد مع لامبالاة تامة من طرف السكان. فمن فرط انشغالهم برصد بعضهم البعض أو بالتشاتم أو بالهروب، لا يملكون من الوقت ما يخصصونه لي. في بعض المرات، يتوقف أحد المارة ليرمي لي بقطعة خبز يابس، ظانا بذلك أنه يطعم كلبا. وإني لم أكن أسأل أكثر من ذلك. في هذا الصباح، كانت الساحة الصغيرة خالية. يكون الناس عادة، في مثل هذه الساعة من اليوم، قد بدؤوا خصوماتهم. ربما تكون الريح هي التي أجبرتهم على البقاء سجناء في بيوتهم. كان الهواء المحمّل بالحصى الصغيرة يصل أمواجا. وكنت عند كل عصفة أجعل وجهي بين يدي تفاديا لرجمة محتملة. وفجأة، وبالضبط بعد مرور عصفة كبيرة، وبعد ما انقشعت سحابة الغبار والحصى، تجسد أمامي شكل إنساني. كنت لا أزال أخفي وجهي، وكنت أراه من خلال أصابعي. اغتنمت الفرصة لفرك عينيّ وإعادة النظر إليه، إنه شخص موجود فعلا. إنه يبدو أكثر وضوحا: هذا الظاهر الغريب، ذو الهيئة الأميرية، ينتصب أمامي أنا. ما هي إلا خطوة واحدة حتى يدخل تماما في مجال بصري. كان جامدا... متحركا؟ كيف أدرك ذلك؟ إنه يتنقل بنفس سرعة نظري. خفضت عيني قليلاء وها هو الآن على بعد متر قبالتي. نظرة ثاقبة تستقر ببروز على وجه ذابل، سن مستحيلة التحديد تفضحها فقط بعض التجاعيد الرقيقة عند زوايا عينين كبيرتين سوداوين. إن الرجل جليل في برنسه

الأبيض. على رأسه عمامة خضراء، يرتدي عباءة طويلة وسروال قرصان واسع مشدودا بحزام جلدي أسود غليظ، يحمل في خصره زُوّادة صغيرة من جلد الجمال. وبحركة محترمة، سحب الرجل من حافظته شيئا صغيرا مستديرا أسود ورماه نحوي. تدحرجت الكريّة مغيّرة أشكالها وألوانها. وعندما توقفتْ على بعد سنتمترات من قدمي، تحولت إلى قوقعة صدفية.

"دجال آخر! هذه المرة لن أترك نفسي تنخدع!" هذا ما فكرت فيه وأنا آخذ الحيطة.

ابتسم الشخص الغريب، وهو يبدو كما لو أنه سمع تفكيري. إنه الآن على مقربة كبيرة مني. كان يبدو مطمئن المظهر بسحنة حسنة وابتسامة صريحة.

"قد يكون بالأحرى مشعوذا" قلت لنفسي مستدركا.

كانت العواصف قد سكنت فجأة مخلّفة وراءها ساحة القرية التي مازالت خالية دائما من سكانها. كنت أسمعهم يتهامسون خلف نوافذهم. ماذا ينتظرون حتى يخرجوا ليتخاصموا؟ لم تعد الريح عذرا، فقد تم امتصاصها بظهور الرجل صاحب البرنس.

- لماذا بقيت جالسا هنا؟

إنه صوت بطيء ولكنه خشن و متسلط، دوّى ثم تردّد صداه في كافة أرجاء القرية. اصطفقت مصارع النوافذ وكفت الهمهمات داخل البيوت. وحل صمت رهيب في كل المساكن.

كان الرجل قد توجه إلي مثلما يتوجه الأب لابنه. أجبته وأنا منهك، مرهق ومتبرم خاصة من كافة هؤلاء المرشدين الذين يتدخلون في كل ما أفعله: الرحمة! العفو، اتركوني أتسوّل بسلام.

- ولكن لا يوجد أي شخص ليمنحك الصدقة.

استدار على عقبيه بلطف وهو يقول ذلك، قام بدورة تامة وهو يتفحّص المساكن المغلقة المحيطة بالساحة.

- بلى، أنت!

انفجرت ضحكة صدى لإجابتي. انغلقت النوافذ الأخيرة المترددة وثقل الصمت أكثر فأكثر في المنازل. وغدت عيون هذا الشخص الذي ولد من تزاوج الريح والحصى أكثر عطفا رغم جرس الصوت. وصدر عنه بعض اللطف.

- انفعاليّ فوق ذلك! قال متعجبا.

- لا بل متسول ومسرور لكوني كذلك!

في هذه المرة اكتفى بالابتسام ردا على كلامي الجارح. كان يصدر عن هذا الكائن هدوء يقارب حدود اللامبالاة. وبغرابة شعرت بأمان أكبر. وإلى ذلك فإني وجدته، وهذا أمر مدهش، يشبه المطبب العجوز في الغابة، ولكن بشكل أكثر شبابا. ربما كان ابنه؟

- إن طريقك لا تتوقف هنا يا صديقي الطيب، وأنت تدرك ذلك.

هاهو واحد آخر يعرف كل شيء عني. على كل، وفي حدود ما وصلت إليه، لم يعد يدهشني أي شيء. أحيانا يكون لدي الانطباع بأن كل العالم يبدو وكأنه يتآمر ضدي، ويعرّي كل مشاريعي ليقوم بعد ذلك بإحباطها. نظرت إلى طرف حذائي المثقوب، فقد كان نظره من الشدة بحيث لم أستطع تحمله لمدة أطول. أحاطني هذا المتحلي الغريب بظله. إنه يقف الآن بجانبي تماما. ودون أن أرفع عيني، صرخت:

- مرهق، إني مرهق، إن كل هذا قاس جدا بالنسبة لي.

- أتكون قد توقفت عن الكفاح؟ إذا كان هذا هو الحال، لماذا استأصلت نفسك من موطنك؟

- لم أعد أدري... كنت أود تغيير الطعم... بالتأكيد.

- لماذا؟

- بسبب هذه الحياة التي لا ذاكرة لها. لا أدري من أنا، ولا من أين أتيت. حقا هناك بعض المعالم المترنحة ولكن ليس إلا. لا شيء ثابت، يا سيدي. ولا شيء أكثر صلابة.

في أوقات أخرى، كنت أبكي بالتأكيد، ولكن هنا لا. لم تعد لدي حتى القوة أو الرغبة في فعل ذلك. إن الصفراء قد حلت محل دمي على ما يبدو.

- ليس بقاؤك جالسا على الأرض البور هو الذي سيعيد بعثك، يا صديقي الطيب.

- وليس بقائي عاطلا عقيما هو الذي سيجعلني أبدع أي شيء. أجبته بجفاء. لم أعد أحتمل سماع مثل هذا الهراء.

- إني أشعر بالحقد في أحاديثك، رغم أنك حتما قضيت أوقاتا رائعة. في هذه اللحظة، عدت بالفكر إلى تلك الحبة من الرمل التي بقيت ملتصقة بيدي والتي مضى عليها عهد طويل، إلى تلك الرحلة القاسية داخل الغابة الغناء، وإلى تلك القطرة من المتعة التي تحصلت عليها بالجهد. أحلام جميلة، وسعادة زائلة. لكنه واصل: - نعم، هذه هي السعادة أيضا.

لم تعد بي حاجة للتعبير، إن هذا الرجل يقرأ أفكاري حتى قبل أن تجول بخاطري.

- نعم، ولكن ماذا بقي من اللحظات الرائعة؟ هل عشتها في الواقع أم عشتها في هذياني؟

- هل كنت تستطيع إدراك الفرق بينهما؟

– لا. وهذا ما يرعبني.

– في يوم ما، سيثور كل إنسان ضد نفسه، بدافع الكبرياء وبدافع الأنانية. إنه يظن أن باستطاعته تشكيل ذاته على هواه... ناسيا أنه يشكل جزءا من كل، أو متوهما أنه ملفوظ من الآخرين. سيثور بقوة هذه الفكرة. إن التدريب لا يتأتى بالقوة والخوف والحقد، ولكنه يتأتى بالاقتناع والحب والمثل.

خلف مصاريع نوافذ الدور المغلقة، استأنفت الوشوشات. سعل الرجل مباشرة فعاد الصمت ليستقر في الحال. ودون أن ينتظر رد فعلي، جلس بجانبي.

قلت في نفسي: "إنه بالتأكيد ساحر كبير. فلتحويل كريات إلى قوقعات، يجب أن تكون ساحرا!" أحسست فجأة بالحرج أمام هذه الشخصية. تنبّهت إلى أنه ليس لدي ما أقدمه له عدا فضاء تافه نتقاسمه رغم أني لم أكن أمتلكه. أبدى ابتسامة هادئة وحادة.

– هذا ليس خطيرا المهم هو ما يقدمه قلبك. قال ذلك وأخرج من أحد جيوبه كعكة من شيلم وبعض التمرات ليمدّها لي. قبلت بعفوية. نظر إليّ وأنا آكل خبزي بشراهة، وأبصق نواة التمر إثر ذلك تماما.

كنت، وأنا ألوك هذه الكسرات المفرحة، أفكر: "إنه بالتأكيد ساحر كبير." وبرأسه يفهمني بأني لم أخطئ كثيرا. إنه يدعي بأنه معلّم في التنجيم، وهو ما يسمح له بالسفر في مختلف عوالم النجوم وفي فضائنا الفيزيائي كذلك، وبملاقاة كائنات أخرى، من أدنى أدناها إلى أكثرها روعة. وهو يذكر أيضا أنه خيميائي، نوعا ما مثل المتسوّل، فهو يبحث بطريقة ما. وحسب رأيه، فإن بحثه لا يختلف كثيرا عن بحثي. فأنا وهو مضطران للبحث عن استغلال الخير في كل شيء أو في كل شخص. وهو يسمي ذلك "العمل العظيم". لم أكن مضطرا لأطلب منه تفسير ذلك، فقد شرحه لي: "إنه البحث عن السائل والصلب،عن

إكسير الحياة الطويلة وحجر الفلاسفة" إن الرجل صاحب البرنس يقول أن باستطاعته أن يقوم بتحويل الوجود والمادة. لقد حدثني طويلا عن التحكم في المعرفة وبصورة خاصة في الحكمة، وفي استخدامها لتفادي الإغراءات الشريرة ومشتقاها. وقد استمعت له بانتباه، لم أكن أفهم كل شيء، ولكني أدركت الأهم: "إننا جميعا نحمل في داخلنا الخير والشر، وما بقي علينا أن نقوم به إنما هو غرس الخير لإبعاد الشر. هذا هو عمل الخيميائي: فصل البذرة الحسنة عن الخبيثة. وهذا هو أيضا عمــل الحياة. "وقد أتــم تعليمه قائلا: - كل إنسان يخلص في جهوده يمكن أن يبلغ الكمال.

- أنا لا أبحث عن الكمال الأعلى، أنا أبحث عن نفسي، وهذا كل ما في الأمر! لقد سئمت فظاظة الناس وفظاظة الحياة التي يفرضوها عليّ.

- إذن أنت تحلم بالانتقام؟

- أجل!

- ممن تريد أن تنتقم؟ ألحّ عليّ الصوت العذب دائما.

- من الصحراء، من العناصر، من ساكني لياليّ... ومن كل شيء إجمالا.

- ومن نفسك أيضا؟

أدرت رأسي. تصورت، خلف كل مصراع، آذانا ملتصقة بأجنحة النوافذ، منتظرة جوابي، إنها لن تحصل عليه!

- لقد أخذ قلبك يقسو دون أن تدرك المعنى الحقيقي للخيروالشر.أنصت إليه بحكمة، وسيبعث إليك بالرسائل البديلة .

فكرت وقلت إن معي معلّما كبيرا؛ وإذا كان ولا بد، فإني أريد أن أغتنم معرفته، بما أن الحل الذي تبحث عنه الخيمياء هو نفسه الذي تطلبه الحياة.

– إذن، علّمْني عمل ذلك، أرني كيف أغيّر شقائي إلى سعادة، كيف أغيّر ساكني ليالّي إلى أشخاص خيّرين. أريد أن أعرف، بسرعة!

أجابني صمت طويل، ساحة القرية لا تزال خالية. أشمّ رائحة التهدئة. التفت إليّ الخيميائي، وأغطس عينيه في عينيّ. وعلى سبيل الجواب، قص عليّ حكاية، هي حكاية شاب هرمسيّ أرعن ومشتت في أشغاله: *كان ذلك منذ مدة طويلة جدا، كان هناك صبي خيميائي كنت دليله. كان طموحا ومستعجلا جدا للوصول إلى هدفه. بعد مرور بضعة أشهر قضيناها معا، أدركت أنه كان مستعجلا ومشتتا في تكوينه. كان يريد فعل كل شيء وبسرعة في الوقت ذاته، رغم نصائحي. كنت أعلم أنه لن يبلغ الهدف بهذه الطريقة: وهو أن يكون خيميائيا. لقد طلبت منه أن يفكر جيدا في تعليماتي، وأن يعود لرؤيتي عندما يأنس في نفسه الاستعداد لذلك. ومن ثمّ لم أعد أسمع حديثا عنه حتى اليوم الذي جاءتني فيه امرأة شابة، منهارة، تخبرني بأن تلميذي قد اختفى... "لقد أصابته إشعاعات نتائج بحثه. آه! يا سيدي، إنه خطئي! أن أصيب بالإشعاع، كما حدث! إنه خطئي الوحيد." كانت تردد ذلك وهي ترفع يديها تضرّعا للسماء. كانت هذه المرأة تبدو شخصا طبيعيا، لا تستطيع أن ترتكب جريمة. قمت بإجلاسها وتهدئتها، وطلبت منها أن تحكي لي ما حصل لتلميذي السابق. علمت أنها ذهبت ذات يوم لزيارته – كان تلميذي قد كوّن لنفسه شهرة في قريته بصناعة التمائم والطلاسم من كل نوع، وأشياء سحرية في متناول المشعوذين البسطاء. – لقد طلبتْ منه أن يحضر لها دواء ضد الناس الأشرار الذين كانوا ينغّصون يومها.*

– كأني أفهمك! كم من مرة تمنّيت أن أجد نفسي وحيدا، أنا أيضا عوض أن أكون محاطا بأغبياء من كل صنف ليسوا هنا إلا لتلويث

حياة الناس الطيبين، هكذا كانت إجابته. كانت المرأة جميلة وجذابة، ربما من أجل ذلك وافق بكل تفضّل على طلبها.

– المشكل أنني مستعجلة، أرجو تسوية ذلك في أقرب الآجال، قالت ذلك بإلحاح.

– نظرا لتمسكك! وفي غياب مواصلة أبحاثي، سأعكف على تحضير جرعتك السحرية، يا سيدتي العزيزة. كان ذاك جوابه المفخم.

– شكرا، إنك خيميائي طيب ولطيف... قالت ذلك مادحة إياه.

ثم تركته منكبّا على كتبه القديمة، وأرقامه السحرية وعتاده السحري لكيمياوي. وقبل حتى أن تغادر الكوخ، كان قد شرع في عمله السخي. وكان قد انهمك، وهو محاط بمقطّراته وقواريره، كساحر حول قدوره.

لم تكن بحاجة إلى أن تقول لي أكثر مما قالت عنه. إني كنت قد عرفته أفضل من أي كان، وكنت أتصور سلفا بقية الأحداث، ولكن وعلى سبيل المجاملة تركتها تتكلم:

بعد أسبوعين من ذلك، كانت السيدة العاقلة قد عادت عند الباحث الشاب. كان الدواء حاضرا. كان قد مزج خليطا محكما على أساس وصفة يحتفظ بسرها، بكل تأكيد.

– يوم سعيد، أيها المعلم، هل أعددت جرعتي؟ إن احتمالي للنماذج المحيطة بي يتناقص شيئا فشيئا، إني مستعجلة لتجريب وصفتك السحرية.

– لقد حضّرتها، يا صديقتي العزيزة، لقد كلّفني ذلك أياما وليالي من البحث على الطريقة القبالية، ولكني مسرور بالنتيجة وسعيد بالأخص بأن أقدم لك هذه الخدمة.

شرحت لي السيدة بأن المستحضر تم تقديمه على شكل مرشّة ملفوفة جيدا في أنبوب معدني محكم الغلق.

– بالضغط على سدادة من الفلين، نحدث ضغطا يفسح المجال لانطلاق غاز معطر، ولكن آه، كم هو فعال! فببضع ضغطات، يختفي إلى الأبد كل الأشخاص الذين يحملون أقل العيوب، هكذا شرح، بانفعال تام، اكتشافه الجديد. إن ذلك سيجعله أكثر شهرة بالتأكيد. لا بد أنه كان، في تلك اللحظة، يسخر من النصائح التي كان يقدمها له مرشده سابقا.

– كل الأشخاص الذين بهم عيوب؟ سألت المرأة وهي تمسك بالأنبوب المعدني.

– نعم، من أكبر المعيبين إلى أصغرهم. وهكذا لن يبقى حولك غير الأفراد الأصفياء السالمين عقلا وجسما.

– أكيد؟

– بكل تأكيد، سيدتي العزيزة، سيمّحي كل أولئك الذين يحملون في داخلهم أدق جزء من العيب بفضل جرعتي السحرية!

– كيف سأتعرّف على كل هؤلاء الناس السيئين؟

– اطمئني، إن جرعتي ستذهب لتبحث في أعماق كل فرد لتطرد منها العيوب؛ وكلما وجدت واحدا، مهما كان صغيرا، فإن هذا الدخيل سيختفي مباشرة.

– شكرا أيها المعلم، لقد اطمأننت بفضلك.

– انتبهي جيدا إلى احترام المقدار: ضغطة واحدة نحو الأعلى والأخرى نحو الأسفل قبل الخروج، وبعد ذلك اتركي السحر يفعل فعله. ضغطتان، ليس أكثر! هذا ما نصح به، في هدوء، تلميذي السابق الشقي.

شكرته بابتسامة جميلة - ولمعرفتي بمزاجه المندفع، أتصوّر أنه قد احمرّ وهو يعطيها المبيد "المضاد للأفراد المعيبين". وضعت المرشّة في حقيبتها وخرجت حالا من مترل الشاب الفتان.

بعد ذلك، أفترض أنه عاد إلى أشغال أخرى. من بين هذه الأشياء، يتوجب عليه إيجا د هذا الحجر المقدس الذي كان سيسمح له بتحويل المعادن الحقيرة إلى ذهب. سيكون هذا العمل تتويجا لحياة كاملة، وسينهمك في ذلك ليل نهار. سيجعل منه الحجرُ خيميائيا، ثريا، مشهورا ومحسودا من الجميع.

ذات يوم، في الصباح الباكر، عندما كان يتأهب، على وجه الاحتمال، لتجريب معادلة جديدة لحجره المذكور، عادت السيدة تطرق بابه. قام بإدخالها. كانت جد مضطربة وحزينة. أعلمته بأن المرشة قد فعلت معجزات، وأنه لم يعد أي شخص يأتي لينغّص عليها حياتها، ولكن كلما كانت الأيام تمر كلما كانت تستعمل القنبلة "المضادة للأشخاص المعيبين". وعليه غدت محاطة بأقل وأقل عدد من الناس. وأضافت بأنها في هذه الأيام الأخيرة، لم تلتق أي شخص، لا من بعيد ولا من قريب. لقد كانت وحيدة! أجل، وحيدة تماما في المدينة. هل كانوا كلهم إذن نماذج حقيرة؟ لا أحد تمكّن من مقاومة هذا التدخل الخيميائي. إنه بالأحرى قويّ جدا! قالت ذلك للمعلم وهي مترعجة.

سألها خيميائيّنا الشاب، وهو مرتاب نوعا ما، إذا كانت قد اتبعت جيدا نصائحه حول حسن استخدام المرشة.

- هل أنت متأكدة من كونك لم تقومي إلا بضغطتين لا أكثر يوميا؟

- بكل تأكيد! وعلى كل، فسأريك كيف قمت بالإجراء، ليس أكثر من ضغطتين، واحدة نحو الأعلى والأخرى نحو الأسفل، ومرة

واحدة في اليوم. وهي تقوم بذلك، أخرجت من حقيبتها المرشة و "بسش! بسش!" رشت باتجاه مقطرنا المسكين.

واستأنفت "في هذه اللحظة بالذات، يا سيدي الطّيب، ملأت الغرفة التي كان يشغلها تلميذكم رائحة أخاذة، لقد كان العطر مغلفا وحتى مسكرا. لم يكن الخيميائيّ يدرك ما كان يحدث، ولا أنا بالأحرى. رأيته كيف أصبح رخوا تماما، وضبابيا تماما. كان قد بدأ يختفي ويند ثر. كان جسمه ينعدم أجزاء حتى صار، شيئا فشيئا، عدما. لقد أصابني الذعر مما كان يحدث لهذا الرجل الشاب المتشبّع بالنوايا الطيبة والخدوم. لم أكن لأفهم أي شيء وبالأخص، لم أكن أعرف ماذا أفعل لمساعدته. وبالضبط قبل أن ينعدم تماما، همس باسمك. ذلك هو السبب الذي جعلني أصل إلى غاية عندك، يا سيدي الطيب. ماذا حدث؟ ماذا سأفعل؟"

- إن ما حدث لا يمكنك إدراكه، وأما هو فبلى. وأما ما يجب أن تفعليه فهو أن تلقي بهذا الاكتشاف اللعين في البحر. عودي إلى بيتك، وتعلّمي، من هنا فصاعدا، أن تعيشي بمزيد من التسامح مع الناس.

حدق فيّ الخيميائيّ وانتهى إلى التصريح:

- ستقول في نفسك حتما: لماذا هذه الحكمة؟ ما دخلها في قصتي أنا؟

- ليس هذا بالضبط، ولكني لا أفهم فيم ستنفعني تلك.

إن متمهّننا الشاب، وهو في استعجاله، لم يكن قد أدرك المغزى ممّا كنت قد علمته له في بداية تكوينه: أن يحسن التحكم في المنفاخ ليحسن إشعال موقده، وعلى الخيميائي، ليس فقط تحويل المعدن الحقير إلى ذهب، بل أن يتحوّل هو بذاته. لقد استعجل كثيرا في شغله. لقد قام بقتل كافة أهل مدينته بنظريته التطهيرية، وانتهى شخصيا إلى ما انتهوا إليه، لأنه كان أيضا مثلهم، رجلا بسيطا. كانت جرعته تتقصّى أدنى

عيب عند الناس وكانت تحطمهم. ولأننا متماثلون، فإننا جميعا نحمل الشر في داخلنا. لا يوجد شخص كامل... إن الطبيعة البغيضة للإنسان تسكن كل الكائنات.

– وماذا كان عليه أن يفعل؟ كيف كان له أن يسمع صوت العقل عندما كان مغشى بالهمس المادح لغطرسته؟

– إن العيوب والنقائص ليست أقدارا. إنها يمكن أن تصحّح أو أن تعدّل. إن ما هو صالح للخيمياء مقبول أيضا بالنسبة للحياة، فكل كائن يحمل في داخله الخير والشر؛ وما يتوجّب علينا عمله، هو أن نزرع ونستخلص الخير فقط. وأنت أيضا، فإنك تتصرف أحيانا مثل متربّصنا الكيميائي المسكين. إن كل ما رأيته من قبل، أدركته بطريقته نفها، مفكرا بسذاجة بأنه لم يكن هناك ما يشاهدُ عداه. لقد كان ينقصك التسامح وكنت نافد الصبر. لقد اختارتك العناية الإلهية، فاغتنم رحمتها. انظر الآن نظرة أخرى للناس، للأماكن، للمواد وللأشياء الخفية. غص في أعمق أعماقك، امض إلى أبعد. استعمل قواك في الخير، ألم يقولوا لك أبدا بأن لا تبحث إلا عن الحب عند الآخرين؟ ألم يعلنوا لك بأن ذلك سيكون طويلا ومضنيا بالنسبة إليك؟

– المرارة، ذلك ما احتفظت به. إن لقاءاتي النادرة واللذيذة تنتهي دائما بمرارة الفراق والهجران. لم يبق لي منها سوى ذكرى باهته، هي أكثر إيلاما، لأنها تذكرني بما لم أتذوقه إلا بالكاد.

– تعلّم أنه عندما تمتحن بصراحة، وعندما تكون قد قيّمت وزن مزاياك، يمكنك عندئذ القيام بثورتك الداخلية.

– لا أدري إذا كان بإمكاني أن أفعل ما تطلبه مني، يا سيدي، ولكني سأحاول. لن يكون ذلك سهلا، أنا أدرك هذا، ولكن وبالنظر لما

وصلت إليه أيها السيد، فإني ألتمس منك فضلا آخر، إني لم أستفد من الأول إلا بالمغزى. دربني على الأسفار في الزمن...

– إنك تلح دائما على شيئين في وقت واحد...

أحرجتني عباراته، فخفضت عينيّ وأنا مضطرب. لقد كان على علم بمروري في قرية الجياع، وبالمناقشة التي كانت لي مع المرأة ذات الشعر الوهاج والنظرات الزمردية.

– من فضلك أيها السيد، أريد تجربة شيء آخر عدا هذه الأقراص اللعينة المزّة، افطمني عنها. إنها تؤلمني وتثيرني كل الوقت. أرني كيف أنظر إلى ما كان ماضيّ، وكيف أعيش أخيرا حاضري، بهدوء وتواضع. فمع هذه الأقراص، سيدي، حتى الافتراضي خاطئ! خلّصني من كل ذلك! أرني الطريق وإذا لم تقدّر أني أستحق ذلك، فأشر عليّ عندئذ على الأقل بمنفذ آخر.

– سيكون لك الحق في سفرين، أما الأول فستقوم به رفقتي، وأما الثاني فوحدك. بعد ذلك ستأخذ حياتك مجراها. وإليك نصيحة، استعمل الرسوم الخيالية للخيمياء لاستخلاص الحلو من المزّ.

– شكرا.

هذا ما وجدته للإجابة. تقاطعت نظراتنا. قرأتني هذه الشخصية الفريدة، غاصت في عينيّ، لحقت روحي وبلغت فكري. كان نظرها شديدا جدا، أحسست أني أترنّح، لقد غمرتني هذه الحدة البصرية المنوّمة، وانغلق العالم عليّ؛ غابت الساحة والقرية كلها. بقينا أنا وهو في عالم من الصمت، وسمعت صوتا يعبّر من الداخل. ومع ذلك فإني أعلم بأنه هو الذي يكلمني، وإن كانت شفتاه لا تتحركان وفمه لا ينطق أي صوت:

"الروح... الإنسان الأرضي... العقل... غلاف الروح... الجسم الكوكبي... عديم المادة... زمن... فضاء... سفر نجمي... إنساني... إلهي..."

كلما بلّغني الرجل الكلمات، كلما أخذت هذه الأخيرة شكلها في داخلي؛ وكلما انكتبت في ذاكرتي، كلما أصبحت الظلمة ضياء. وبدأ تدريبي على سبر خبايا المجرد والسرمديّ. شرعت في القيام بتعميدي النجمي: دون إحساس لا بالألم ولا بالقطيعة، وبالضبط في الأعلى، كان جسدي الفيزيائي جامدا، غارقا في نوم هادئ. كنت معلقا في الهواء، على بعد متر تقريبا من هيكلي، منجذبا ببطء وتدرّج نحو الأعلى؛ وكان الجوهر الضبابي مرتبطا بجسمي بشريط رقيق من الضوء. كنت، مع معلّمي، أتنقل طواعية بسرعة خارقة، عابرا الزمن والفضاء. كنت خفيفا وسرمديا. كنت في الأسفل حتى وأنا في الأعلى: "هذه عداءة أمسكتني من يدي، سحبتني إلى غابة وتركتني مع عجوز يصنع المعجزات. هذا صبي صغير مع نعجته، ملاحقان بجياع مشدودي الحزام لحدّ الموت. وهذا سرب من الجرذان فار من متجر كتب قديم، يحمل "العلم" بين أسنانه. أرى آكلين لحم البشر يهجمون على برج رئيسي؛ ومدرّجا يعج بأشخاص متخاصمين؛ وطرقا ملتوية في تعرجات، وأنا أحلق، مرفوقا بنوارس وعقبان ناظرا إلى الأسفل: بؤساء، أناس مساكين، أبقار مسترخية في الحقول، متسولون، خضروات مفرغة من الحياة، زورق على بحر مجنون، باب يخفي خلفه صحراء مشكلة من نجوم لا تنتهي، صغيرة ومتعددة الوجيهات؛ أسمع نشيدا، ليس للفرح بل للبؤس، صادرا عن جرة محطمة ومهينة. كنت أطفو فوق سلالم تالفة بشارع الشيطان سابقا عند رقم 114، كانت هناك نسوة يحاولن جذبي نحوهن... لم يكنّ في الواقع سوى واحدة ووحيدة."

عندما أعدت فتح عيني للحياة من جديد، كان الكيميائي موجودا دائما. كم من وقت مضى على انطلاقنا؟ ثانية؟ سنة؟ لن أعرف ذلك أبدا.

ابتسم لي معلمي بلطف تقريبا، وقال:

– الآن ها أنت قد تعلمت قوة إرادة الإنسان. وما تبقّى، عليك أنت أن تكتشفه، ولكن لتعلم بأن المرّ والحلو إنما هما مذاقا الحياة ، اقبل أحدهما واغتنم وجود الآخر. كانت تلك كلماته الأخيرة. كانت الساحة حولي خالية، والنوافذ دائما مغلقة. التقطت القوقعة التي بقيت عند قدمي، ستكون قوقعة زائدة في الجيب. وفجأة ثارت زوبعة من الحجارة والريح أمامي... واختفى الخيميائي مختطفا من العاصفة.

لقد قررت، لم أعد أرغب في هذه الحياة، الحقيقية أو الافتراضية، ولو محشوّة بالمخدر! وبإسناد العواقب للحتمية، كنت أحس بأني أقل ذنبا في ضوء جهلي بالأحداث والناس، وجهلي بهذا الخير التافه وهذا الشر البغيض. إني بحاجة للانقطاع و الاتصال من أجل استيقاظ آخر ويقظة أخرى. – مثل الحاسوب الذي يختل والذي يتوجب إطفاؤه ثم إعادة تشغيله ليعمل أفضل. لقد توقفت الآلية من الداخل ويجب علي فك العطْل. الآن، أصبح عندي شعور عميق بأن تحوّلي إنما يأتي من الداخل. أعلم أني التقيت كل شياطين وسفلة الخارج، وأني سألتقي آخرين ربما أكثر غدرا، ولكني مستعد للامتحان! إن القطيعة مع واقعي المرّ أو هذه الافتراضية التهكمية ستسمح لي، وهو ما أتمناه، بتوسيع آفاقي وبتدشين أخرى. وهكذا ربما فتحت ثغرة لفك عقدة بحثي؟ لم أعد أرغب في نظرة إحادية للوجود. إني أرغب في جعل العالم جماعيا، مقدما آلاف الإمكانيات، وأن أفاجئه عاريا، مجنونا، مندفعا، حرا، عطوبا، وخاصة ممكن الأخذ، وأن أغرس فيه بذرة الشخصية الجديدة التي أعد نفسي لها. "يجب عليك أن تتحول إلى أفضل ما فيك، ومن أجل ذلك عليك أن توافق على آخر تضحية." هذا ما قاله، في خلاصة، ريح الصحراء، العجوز في الغابة، تاجر الكتب المذعور والعداءة المفرطة الحيوية وأخيرا معلمي، خيميائيّ الرمال والحجارة.

كان هذا الأخير قد قال: "أنت متعلّم، فلا تنصت إلا لقلبك ابتداء من الآن."

لقد أدّى لقائي بهذا الحكيم إلى نزع جزء من الحجاب الذي يفصل السماء عن الأرض، والخير عن الشر، والممكن عن المستحيل، وأخيرا الحامض عن الحلو. لا أدّعي أني فهمت كل شيء، ولكني أملك الآن عدة موارد ذهنية وجسمية للذهاب إلى نهاية طريقي.

بين الأطلسين، يمتد منخفض طويل وعريض ينفتح نحو آفاق جديدة...

حامض-حلو

وصلت إلى أبواب الصحراء، كنت أحلق على ارتفاع متوسط. أصبح الخيط الفضي الذي يربطني بجبهة غلافي الجسدي أكثر فأكثر طولا ودقة. إن رحلتي الثانية ممتعة تماما مثل رحلتي الأولى. بالضبط في الأسفل، تبدو مدينة متشبثة بالهضاب الصخرية الحتاتية: لقد قطعتها عوامل الزمن بطريقتين مختلفتين. إحداهما على شكل مجموعات متداخلة وغير منتظمة مشكلة وهادا مقبوضة؛ والأخرى على شكل طبقات واضحة ومنسجمة. هذه الأخاديد المثلّمة التي لا حصر لها، تحصر جزءا من المدينة في "سلّم" جعلها سجينة كما لو تم اصطيادها في شبك. أما الجزء الآخر منها فيمتد بحرية تامة، في هيئة عمرانية رائعة على نقيض المساكن المجتمعة بفظاظة والمرتبة في طوابق وسطوح منهارة. كانت النظرة من علوّ تعرض مرّة منظر أطلال هرم الإنكا، وتارة منظر زقرة ذات حدود صارمة وموضوعة بتوازن. وفي الداخل، كانت المدينة تتجمع حول نفسها كما لو كانت تحرس أسرارها بطريقة أفضل. ولحماية نفسها، كان حاجز غليظ يحيط بها. إنه مكان عبادة، أو عمارة هامة، تشرف على المدينة. وإلى أبعد من ذلك، في الأسفل، كان نهر يعبر البطحاء متأودا ببطء إلى غاية الاختفاء في الصخر. سقطتُ على المنحدر المتهدم لهذه القلعة مثل الورقة الميتة. لقد وصلت في تمام الليل: عبرت القصور والدور، قطعت ساحة ألسوق. كل المساكن في هذه المدينة مطلية باللونِ الأسود. الأرض مغطاة بطبقة من الرماد. والغسق يرفض ترك مكانه للنهار كما لو كان

يواصل الحداد. جلست على الأرض مسندا ظهري إلى جدار دكان خرب. ونمت إلى أن أصبحت أشعة الشمس المتأججة أكثر عدوانية فأيقظتني، كان الوقت قد قارب منتصف النهار. كان الجو يميل للحسن والحزن في آن واحد. رفعت رأسي إلى السماء: كان هناك قطيع من السحب الصغيرة ذات الانتفاخات القطنية تدفعه ريح كسولة؛ والركامات ترعى التيارات الساخنة الصاعدة من الأرض، في هذه المراعي السماوية، تحت العين المحدقة لكوكب النهار. كانت تكبر مع مرور اليوم. توقفت عن ملاحظتي الجوية لأرى في أي نوع من الأماكن حططت هذه المرة. كان الشارع الرئيسي خاليا، والدكاكين مفتوحة، ولكن شاغليها كانوا يبدون غائبين. كنت وحيدا في هذه الأماكن الحزينة. وفجأة، ملأ الفضاءَ طنين أصمّ، كان يأتي من زقاق ضيق مجاور، جازفت بنفسي في هذا الممر الضيق. شاهدت، في نهايته، مرور موكبين جنائزيين، كانا متوجهين نحو أسفل الربوة. كان الأول يبدو قادما من المنحدر الآخر للمدينة، يتكون من أعيان، أثرياء اللباس، مرافقين عربة جنائزية يجرها أربعة جياد بيض. أما الثاني، وهو صف نازل من زقاق أسود الجدران، فكان يتكون من أناس صغار يرتدون أسمالا ويتبعون عجلة يجرها أشخاص يبكون. إنهما مأتمان، مأتم الأغنياء ومأتم الفقراء حسبما أفترض. في النهاية يقترن الشارعان. ويلتقي الموكبان الجنائزيان، يمران بجانبي؛ الجمعان محزونان. وغريزيا أنخرط في حدادهم. كنت أمشي مطأطئ الرأس، عيناي في الأرض متسائلا عما أفعل هنا، و لمَ اخترت هذا المكان الحزين للتوقف.

اقتربت مني امرأة ترتدي حائكا أبيض. هي نفسها ثانية؟ يبدو لي أن حجابها كان أسود اللون، ولكن كان يجب أن يكون ذلك قبلا أو في مكان آخر؛ أو بالأحرى في حياة أخرى بكل تأكيد. إنني، على كل حال، سعيد لكونها قد أنهت حدادها. كان شعرها الأشقر يتواءم مع بشرتها البيضاء ويعطي مزيدا من البريق لزمرد عينيها. إنها طويلة وممتلئة الجسم. هذه المرأة، كنت قد

عرفتها سابقا، أنا متأكد من ذلك ... ولكن أين؟ في مختلف نقاط ب114؟ في شارع الشيطان سابقا؟ أم هل كان ذلك فقط في تعرجات كوابيسي؟

– "من المحزن أن ترى عاشقين شابين يموتان دون أن يكونا قد التقيا أبدا!" قالت ذلك وهي حزينة.

تمدّدت السحب في السماء لدرجة أنها أخفت الشمس تماما. كانت تشكل سلسلة من الجبال العائمة بين السماء والأرض. كانت قاعدتها الرمادية تلاصق السهل، وقمتها تخرق حدود الطبقة الجوية السفلى لتنتشر على شكل سندان ضخم من الندى الفضي. ومن حين لآخر تمزق السماءَ فرقعة مصمّة. لم تكن الزوبعة بعيدة.

كنت أريد الرد عليها، ولكن شد انتباهي مشهد غريب: ففوق رؤوسنا، كانت سحابة من النحل وطنين ناشز يتبعان الميتين الشابين في آخر خرجة ثنائية لهما. ازداد الطنين المستمر للحشرات قوة، وازداد شكوى.

وضعت المرأة ذات الأشكال التامة شفتيها النديتين على أذني، وفي قبلة، روت لي قصة العسل والملح: *في حديقة أميرية واسعة مليئة بالأشجار والخضرة، وعلى قمة شجرة أوكاليبتوس كبيرة، كان تعيش ملكة عاشقة لحد الوله، ولكنها كانت حزينة القلب. كان ذلك في خلية، وسط بعض المئات من اليعاسيب المزيفة وعدة عشرات الآلاف من العاملات؛ كانت ملكة النحل مصابة بالضنى منذ عدة أيام بسبب ذكرها المفضل. كان هذا اليعسوب، ذو الجسم الأشعر والبطن المحلق بالذهب والأبنوس، يعذبها دون أن ينتبه إلى ذلك، جراء حبّ غير مصرح به أبدا قبل ذلك اليوم.*

لقد ذهب هذا الأخير الذي تعب من المنافسة الشديدة للطامعين الآخرين، والذي كان يجهل الحب الذي كانت تكنه له ملكته، ذهب

ليعيش نهائيا في السباخ المالحة لينسى بذلك حبا كان يظنه مستحيلا؛ اليعسوب المسكين.

كانت هناك فتاة شابة، مسكينة و لا مبالية، تسكن كوخا في قرية فقراء، قريبا جدا من أحواض الملح؛ لم تكن هذه الفتاة لتشك لحظة في أنها سبب معاناة أمير شاب يسكن قصرا كبيرا، ينتصب وسط حديقة فاخرة.

فذات يوم، لمح من بعيد، وهو في عربته، الآنسة الفاتنة جالسة على ضفة السباخ. منذ تلك اللحظة، لم يتوقف عن التفكير فيها. وأصبحت الحياة بالنسبة إليه عديمة الطعم، بعيدا عن جميلة الملاحات

لم يكن بوسع الملكة ذات القلب المكلوم أن تبوح بحرقتها للخدم وللذكور الآخرين من حاشيتها لأنه ينبغي على الملكة أن تكون متحفظة. كانت تنتظر، في وحدتها، عودة اليعسوب القويّ. منذ ذهاب مفضلها، لم تعد تستمرئ أي شيء. كانت العاملات المخلصات، وهي ترى ملكتها اللطيفة حزينة، تتعجل لتغذيتها كل يوم بأشهى الصقعات الملكية المفرزة خصيصا لها. ولكن هذا السائل الأبيض المظهر، كانت به رائحة حامضة ومذاق حارق في فم.الملكة التي لا تستطيع، من شدة الكمد، أن تستلذ الرحيق المقدم إليها.

لم يكن بوسع الأمير الشاب أن يبوح بحرقته، فقدره موجّه بالخدمات التي تقتضيها مرتبته. ولكنه لا يستطيع إخفاء حزنه. وقد أمر أطباء القصر، الذين انزعجوا من حالة الانهيار التي وصل إليها سيدهم الشاب، بتغذيته حصريا بالعسل الصافي المجنيّ من الخلية المعلقة في أعلى الشجرة الكبيرة الموجودة في حديقة القصر.

ولنسيان حتى طعم العسل الذي يذكره بالخلية ذات المنافسين العديدين، أخذ اليعسوب المزيّف، الذي كان يعتقد أن ملكته تتجاهله، يجمع مؤونته من رحيق الأزهار القليلة المرشوشة بالرذاذ المالح الصادر عن

البرك المجاورة. كان هذا الذكر المعذب بحبّ مكنون يفضل إغراق همه في الطعم المر والمالح للأزهار التي تنبت في السباخ المالحة.

كانت الفتاة الشابة الجميلة، مثل كل السكان الآخرين بهذه البرك، تتغذى حصرا بالغذاء المغروس في أرض مشبعة بالماء والملح. لم تكن تعرف طعم السكّر. لقد تعودت هذه المخلوقة الحلوة، منذ نعومة أظفارها، على المذاقات النافرة واللاذعة. ومثل كل الشابات في سنها، كانت أيضا تحلم بالأمير الفاتن.

كانت الملكة كلما تغذت بالصّقعة الملكية، كلما ازداد فمها مرارة. وهو ما اضطر خدمها لتقديم أدق العلاجات لها؛ لقد ضاقت الملكة ذرعا في "قصرها الملكي الصغير".

كان الأمير كلما ارتوى من العسل المجني من الخلية، حيث تتربع الملكة صاحبة القلب المكلوم، كلما ازداد طنين الحب عنده. وكان طنين خدمه المترعجين من حالته يرهقه، فانعزل السيد في "خليته" الأميرية الشاسعة.

كان اليعسوب كلما امتص أزهار الحقول المالحة، كلما ازداد نسيانا لطعم العسل. أصبح فضاء الأراضي المالحة ضيقا، فصار يجرش المرار ويحلّق على ارتفاع أكثر فأكثر انخفاضا.

وكانت الفتاة الشابة كلما نعمت بالغذاء المالح، كلما ازدادت جهلا لطعم الحلو. كانت الجميلة اليائسة خائفة من أن تنهي حياتها وحيدة وسط أزهار البرك اللاذعة. كانت تحلم دائما بأميرها الفاتن الذي لا يتجسد.

ومع مرور الزمن، كان المغرمون المجهولون يتغذون من عسل حلو شديد المرارة عند المذاق. وكلما تكاسلت الأيام، كلما ازداد المجهولون المحبوبون تعودا على مذاقات مرارة الملح.

كان إحباط الأمير الشاب يزداد تصاعدا، فقرّر، ذات يوم سيء الحال، أن يقطع كافة أشجار الحديقة حتى لا يعود لتذوّق هذا العسل

الذي لا يعمل أي شيء لتخفيف مراراته. وعندما تحطمت شجرة الأوكاليبتوس الكبيرة، التي كانت تؤوي الخلية، على يد حطابي القصر، ماتت الملكة عند سقوطها. وحتى عندما جاءت عاملاتها، اللاتي أحست بالخطر، لنصحها بالمغادرة، لم تبد أي استجابة. ومنذ ذلك الحين، ترك السيد الشاب نفسه يموت حبا وكمدا، في الإقامة الأميرية ذات الحديقة العارية من الأشجار. كان يرفض عمدا أن يتغذى. وعلى بعد يسير، وفي الوقت ذاته، كان اليعسوب المزيف، في السباخ، الساخط بسبب عقم حياته، قد اشتاط غضبا مليئا باليأس، فانتحر بغرز إبرته في قلب الفتاة الجميلة العشبية و التي هوت دون حراك على أرض أزهار مالحة.

في النهاية همستُ: – "إنه لمأساوي أن يموت المحبون قبل أن يلتقوا"

حدقت بي المرأة بشدة، مباشرة في العينين، كما لو كانت تريد أن تقول لي شيئا ما ذا أهمية، ثم تنبهت فقالت فقط:

– نعم، إن الطعم المالح والحلو في الوقت نفسه، لهذا الحب العذري، هو ذاته طعم الحياة. ولكن المأساة تبدأ فقط عندما لا يكون بإمكاننا أن نفرق بين الحامض والحلو؛ عندئذ نشرع في خلط كل شيء.

ساد الصمت بيننا؛ وتوقف طنين النحلات واليعاسيب، وكذلك دموع الناس وصلواتهم؛ ثم استأنف صوت المرأة في همس لذيذ.

أسرّت لي: – ستقوم بما لم يقم به أي إنسي.

فسألتها، مترعجا: – ماذا تريدين أن تقولي؟

لم يأت الجواب. التفتُ فإذا بالمرأة قد اختفت، لقد ابتلعها الحشد الذي يواصل سيره نحو المقبرة. غرزت يدي الاثنتين في جيوب سروالي. شددت بواحدة على علبة مهدئات؛ في حين استقرت القوقعات في قعر الأخرى. تمزّق خيط الضوء، وسُحبتُ إلى الأعلى... أو بالأحرى نحو الأسفل؟ إن كل ما أعرفه أني قد أتممت الآن رحلتي النجومية الثانية والأخيرة!

وما دوره هو في كل هذا؟

إن ما رأيته في هذه المدينة الثنائية الرأس أحرجني إلى أعمق نفسي؛ وفي الوقت نفسه، كان ذلك كاشفا جدا بالنسبة لي. إن كل الفوارق تمّحي أمام الحب، وأيضا... أمام الموت. لا توجد سوى قوة رائعة بإمكانها أن تحدث مثل هذه الأعجوبة. سلطة لا يمكن أن يمتلكها إلا سيد كل الأسياد. إنه وحده الذي يملك الوسائل لذلك. ومع ذلك، ففي بعض الأيام، كان يبدو لي أنه كان هناك بعض الرياء في عمل ذلك الذي كان يراقب كل شيء. كان لدي إحساس شبه واضح بأن محني كانت تتمثل في زيارة عدد محدود من الطرق المسدودة، وفي اصطدامي بعدد لا يحصى من الأبواب المقفولة، وفي عدم انفصالي عن جاذبية ذاكرتي المنطفئة، وكل ذلك بمباركته. لم أكن أعرف إلى أي طرف أنتمي: أكنت مؤمنا، عن دناءة؟ أم ملحدا متأكدا بأنه ليس موجودا، وذلك عن أنانية؟ أم منكرا كان يرتاب ولا يصرح بذلك، توجسا؟ كنت أنتقل من موقف إلى آخر على هوى أمزجتي المتعاقبة. لقد صنعتْ منّي أوجاعي ومسبباتها شخصا غير مؤمن أو طفلا ذهبيا يراهن في بورصة الله من أجل جني بعض الأرباح في الآخرة. ولم لا، هاهنا في الدنيا! إن المبادئ المنافقة لأخلاق قُدّمت بالوكالة، كانت قد خنقت إيماني مثلما نخنق طفل زنى حديث الولادة. كانت هناك أيام، كنت أشعر فيها بأن الله غائب، غير مهتم بكل ما كان يحدث لي. في تلك الأيام، كنت في وحدة هائلة. لذلك كنت أهاجمه، محاولا تحريمه ليرد الفعل ويقوم بحركة أو يرسل لي إشارة، ليوجهني في هذه الصحراء التي لا تفتأ تلاحقني، حتى في الأحلام. وقولا للحقيقة، فقد

كانت لي اهتمامات أخرى أكثر شخصية. كنت أعاود البحث فقط عن موقفه بالنسبة لموقفي وليس العكس أبدا. تلكم هي العلاقات التي كانت تربطني به. إنها شراكة مشكلة استثناء من طعون وتوافقات ذاتية جدا.

أحيانا، عندما كنت أغازل العجز وخيبة الأمل، كنت أستنجد به من أجل مساعدة لم تكن لتأتي أبدا. كنت، وأنا ثائر، أفرغ غضبي في مهاترة:"وإذا لم تكن سوى لاعب زهر؟ إذا لم يكن كل شيء سوى بلبلة نتيجتها الوحيدة المصادفة، هذه المصادفة التي تجعل أقدار البشر تقبل بعضها بعضا، في التضحية ودون أي عصيان، طالما أنهم لم يكونوا قد التقوا هذه القوة الوهمية المنتجة للأحداث. في هذه الحالة، أنا في أزمة سيئة! فالحظ، حتى هذا اليوم، كان دائما يبصق عليّ! لقد فضل إلقائي بين يدي زوجة أبيه: المشؤومة!"

حقيقة أني كنت دائما أهجر معابده، وربما من أجل ذلك تخلى عني. ولعدم حصولي دائما على جواب، كنت أثور ضدّه، بحياء هذه المرة، لاقتناعي بعظمته:

على كل...، إني أجد ذلك وضيعا من طرف عظيم مثله! لماذا ينبغي علينا دائما الذهاب للبحث عنك في المصليات إذا كانت كل أشياء الكون تتحدث عنك؟ حقيقة، كنت أقول ذلك دون أن أنتظر استجابة، بل فقط بسبب العجز إزاء الأحداث المتعاقبة التي تواصل تكبيلي.

على كل، وفي جميع الأحوال، فإني لم أكن أريد أن أظهر بمظهر المتملق، حتى ولو كنت كثيرا ما صليت له، ربما بطريقة سيئة، وبأنانية أكيدة، لكني كنت دائما أخاطبه مخاطبة رجل لربه، بصراحة، بحماس وبدون تحفظ. العينان في العينين تقريبا!

يا إلهي يا سيدي، ارفع هذا الحجاب الأسود الذي يعتم طريقي! فعل ذلك، لم تعد عندي الشجاعة ولا القوة للتصرف. لقد أصبحت

أفشل في كل محاولاتي، أما أنت، فإنك قوي جدا، إذن ساعدني! وإلا، قل لي لِمَ تصلح! لا تقل لي خاصة بأنك لا تبالي وبأن التفاصيل لم يعد لها حساب عندك، وأنت تنظر إليها من أعلى! – ففي هذه الحالة، كيف ينبغي أن تفكر النملات الصغيرة؟ من يجب عليه أن يهتم بها؟ إلى من عليها أن تسلم أمرها، إذا لم يعد للتفاصيل اعتبار لدى عظمتك؟

ومع ذلك، فقد كنت أظن دائما بأنه إنما كانت تبنى الصحارى الشاسعة بالمساحات الصغيرة من الرمل، وأن هذه الحبات إنما كانت تعكس لمعان كل نجوم الكون. هذا ما كانت الريح تنفخه لي خلف باب الصحراء، وما أرتنيه حبة الرمل الدقيقة الملتصقة بكف يدي.

– قل إني، في المحصلة، جزء من الكل؛ تافه بالتأكيد، قطعة صغيرة، ولكني بحاجة إلى قليل من الاهتمام! باسم ال...! فأنا لست بالأحرى نملة، أنا، أنا أكبر من ذلك! كبير على الأقل مثل حبة الرمل التي تشكل جزءا من الصحراء، تماما مثلما تشكل الصحراء جزءا من البقية.

وأنا أقول ذلك، كنت أستمتع بالتفكير في أني إنما كنت موجودا بسبب هذه الكيمياء المجهولة التي دبرها والتي لم يكن يعرف سرها إلا هو وحده. كان هذا السحر يأمر الأشياء بأن تتعاقب في انسجام، بما في ذلك الفوضى الشاملة تماما.

وغالبا ما كنت أزايد:

– أنا جزء من المادة يسترجع بدون نهاية كما تسترجع كافة الأشياء – مثل الشمس التي تموت كل مساء لتستعيد سلطانها عند الشروق. إذن، عظيما أم حقيرا، لا ينبغي لأي شيء أن يبقى قابلا للإهمال لديك. وإلا، ماذا أنت فاعل في كل هذا؟ ذلك ما كنت أفكر فيه وكنت أكرره له بصراحة، وعيناي في الفضاء... كان هذا يسمح لي بسؤال نفسي بشجاعة عند كل واحد من إخفاقاتي، في كل المرات التي

كنت أشعر فيها بأني وحيد و متروك (أي طيلة كل حياتي القـــ...) لمصير سيء: "وهو ما دوره في كل هذا؟" وأنا متسلح بهذه العقيدة الشخصية، كنت أتشبع بها حتى الثمالة، في عبثية كانت تجعل مني العلة النهائية لكل ما يشكل الأكوان.

أما اليوم، فأنا أفكر تقريبا عكس ذلك. هل نضجت أم هل ببساطة، أصبحت مطيعا عن جهل أكثر مما هو عن خوف؟

على كل حال، فإن كبريائي كان يحتم عليّ، ولا يزال، وسيظل دائما يحتم عليّ أن أقول: - "إني لم أفعل سوى أني استجديت نصيبي ولا شيء غير ذلك، وإني لم أحصل عليه عن طريق الوشاية بأحد، و لم أكسبه على حسابه أو عن طريق الغش في اعترافاتي. إنه نصيبي فقط!"

إن رحلاتي واللقاءات التي ابتليت بها، طيلة كل هذا الوقت، سمحت لي بتكرار سؤالي، "وهو ما دوره في كل هذا؟"

ربما لست سوى بذرة دقيقة تبحث عن بويضتها، ولا شيء غير ذلك بالنسبة إليه، عندما ينظر إليّ من بعيد... لاشيء غير! هل يكرهني بسبب كل ذلك؟ بالتأكيد لا! وإذا كان قد قرّر ذلك؛ في هذه الحالة، سيكون له الحق.

أما الآن، فقد قمنا، أنا وهو، بإحلال السلم أو بالأحرى أنا في سلم مع نفسي. لقد منحني هذا الابتعاد الفرصة لمقاربة وجهة نظري بالنسبة إليه. لقد كان الرجل العجوز الذي التقيته، سواء في المقبرة أم في حلمي، لا يهم، يقول بأنه ليس بسببه، بكل تأكيد، كان العالم ومخلوقاته على هذه الشاكلة. إنه النور الذي يخترق الظلمات... والرباط الذي يؤدي إلى كل شيء، الذي يؤدي إليه.

أحيانا، وأنا في أحلامي المنشطة بالأقراص، أتصوره: *جالسا على عرشه، حكيما و شيخا جليلا، ناظرا للأكوان وهي تدور تحت قدميه. إن الحبكة*

المعلوماتية المعدة لتسيير هذه الآلية السماوية لا ثغرة فيها. وإن الشيخ لسعيد بعمله. كل شيء يسير وفق ما خطط له. تولد الأشياء وتختفي كما يأمرها البرنامج المكتوب من طرف ربّ العرش. إن اللحظة ، في هذه الشساعة الكونية، تظل جامدة، خالدة، أصلا. والنظام مستتب في خليقة بلا حدود؛ إنه علم شاسع، وامتداد لا نهاية له. قد يحدث أن ينحني، من حين لآخر، إلى الأمام ليلاحظ عن قرب أكثر كوكبا أو مذنبا أو نجما. وبعين أبوية، يتأمل هذا العالم الصغير الذي برأه بحبّ وإحكام. ذات يوم وهو يمارس تمرين الملاحظ هذا، لمح كرة صغيرة زرقاء تدور وسط نجوم أخرى مستحمة في سحابة لبنية كثيفة. كان هذا الكوكب يبدو مضطربا. انحنى الشيخ أكثر قليلا ورأى عالما يسكنه حشد من المخلوقات. انزعج من تصرف النوع الطاغي في هذا الكوكب، فسلط العدسة أكثر فأكثر على الكوكب ليجتليه بصفة أفضل. وقد هاله ما رأى: إن الناس الذين يسكنون هذا الكوكب يتحادثون ويعملون باسمه. قال متعجبا–"هاك! لم أرغب أبدا في قول هذا." كما لاحظ أيضا أن كثيرا من الأفراد يزعمون أنهم شاهدوه أو حتى سمعوه، كانوا يستخدمون أمثالهم ليتحكموا في السكان الآخرين بهذا الكوكب. حرك الشيخ الجليل حاجبيه، حائرا، في حكمة وعطف دائما. – "ما هذا؟ ولكن هؤلاء ليسوا بمبعوثيّ. لماذا لا يستمع هؤلاء الناس المساكين للرسل الحقيقيين؟" واكتفى بهذه الملاحظة بكل رحمة. وواصل تفحص هذه الكائنات الغريبة عن كثب أكبر. رأى صراعات تدار باسمه؛ حروبا تستمر مائة سنة، ألف سنة أو جزءا من الثانية، ولكنها تبيد شعوبا ولا تترك وراءها غير الدموع والأحقاد. هذه المجازر التي وقعت باسم بواعث دينية مزعومة أدت إلى سخط الحكيم. – "رغم أني منحتهم الأزهار والعصافير، الضحك والأطفال، ألوان قوس القزح ووشوشات الجداول. لماذا لا يسمعونها ولا يبصرونها؟" هكذا نطق الشيخ ذو الحكمة الخالدة. أرادت أكاذيبهم أن تخالط قوله. ودائما باسمه، شاهد تجمعات يتبنون

أبوته ويعكسون كلمته على الحجارة وفي الرموز. "إن هذه الأوثان التي تمثل آلهة معروضة لفتنتهم، ليست سوى المظهر الذي يعكس معاناتهم وجهلهم." هذا ما عاينه بارئ كل شيء وهو مرهق الآن بسبب هذا الكوكب الأزرق. كما يوجد أيضا وسط هذا المستودع للمخلوقات، متنوّرون واهمون يتساءلون دائما عن وجوده. - "ألا يعلم هؤلاء العمي أنهم البرهان القاطع على حضوري؟ إن مقولة مركزيتهم البشرية ترجع كل شيء في الكون إلى حقارتهم. إنهم يعتقدون أنهم الأسياد الوحيدون للأماكن. وإنهم يتصورون أنهم مركز ونهاية كل شيء. ألا يرفعون أعينهم نحو السماء ليعايـــنوا تمام سعــــتي، ويشهدوا كمال عظمتي؟" هكذا تحسّر ضجرا من هذه التصرفات المتصنّعة.

أتصوره متضايقا أمام هؤلاء الشياطين المساكين الذين يتحركون ويتدبرون من أجل الوصول لغاياتهم التافهة. قال لنفسه:

إن هذه المخلوقات الصغيرة مستعدة لكل شيء: هناك من يفعلون الشر باللامبالاة نفسها وهما يفعلون الخير، وهم مسرورون. هؤلاء الذين يقتلون من أجل حياة أفضل، في سلام تام. هؤلاء الذين لايؤمنون بشيء ليحسنوا الظن بأنفسهم... وهم يكذبون. هؤلاء الذين يتجشؤون أدعيتهم بفم، ويطرون حماقاتهم بالفم نفسه... وهم يُقسمون. هؤلاء الذين ينكرون الروح ليظهروا دائما منحرفين، راجين الجنة... طيلة حياتهم. هؤلاء الذين يجلدون عقولهم، وهم منطفئو النظر، متوهمين بذلك بلوغ قمة الانتشاء... بواسطة الفياغرا. هؤلاء الذين يذهبون للحب كما يذهبون للحرب، في هيئة المغامرين الفاتنين... وهم منتكسون. هؤلاء الذين يذهبون للحرب كما يذهبون للموت، مسطحي الأقدام، مهزومين... غير مؤهلين لاستخدام أسلحتهم. إن هذه العقول الفوضوية كانت تسير ضد التناغم السماوي، لقد ألقوا بخـــ... تهم الطرية في الطبخة الكونية، هؤلاء الحمقى! وأخيرا، لا بد من كل شيء لإنشاء كوكب صغير أزرق!

- ألا يعلمون أن أعمالهم تبعدهم عن نوري وتؤدي بهم إلى تدمير روحهم، ذاك ما لاحظه الكائن السماوي خالق الكون؟ ومع ذلك فأنا متأكد من أنه لا توجد أي ثغرة في برنامجي، وذاك ما فكر فيه مبرمج كل شيء وهو يعاين جدوله.

عندئذ، عاد للجلوس على عرشه، في رحمته الواسعة، واختار بحكمة، وهو يبتسم، أن يحول بصره لبرهة وجيزة عن هذا الكوكب المغرور... برهة وجيزة ستستمر مدة طويلة، طويلة جدا بالنسبة إلينا.

- أخيرا، ومن حسن الحظ، فإن الأرض، حين ترى من كوكب زحل، صغيرة جدا سلفا. فما بالكم بها من حيث أنا موجود... لكن ينبغي أن لا نضغط السداد كثيرا! هكذا همس على سبيل التحذير تجاه النجوم الأخرى الشابة التي لا تزال نائمة.

ربما يكون الإله مثلنا ، في النهاية، قد بلغ به الأمر حد الضجر من الأشياء التي لا تطيعه ؟ ولكن ليس للحد الذي لا يبقى فيه الإله!

هبط المساء على طرف هذه المدينة التي أعاد الموت فيها الاعتبار للحب؛ جلست القرفصاء كزناد بندقية على أحد الحواجز.غمر قلبي سكون كبير، وأنا نائم. استيقظت في وسط الليل وأنفي متجه نحو السماء، وملايير الشموس تتأملني. أكان ينبغي عليّ أن أتخلى عن هذا الموقف الذي يتمثل في نسبة كل شيء للإنسان وإلى قدره؟ لكن هل من الأهمية بمكان أن نعلم؟ ومع ذلك، فمن الضروري لي أن أواصل بحثي. كنت سمعت من يقول بأن إمكانية عيش الأحلام هي التي تجعل الحياة ذات أهمية. إن ما أنا متأكد منه، في هذه الساعة، هو أن حبة الرّمل مكنت الصحاري من التشكل...

أنا أحلم بالألفا و الأوميغا، أنا البذرة الصغيرة.

الساعة الرملية

"أن تحيا حياة غنية جدا بالهواء الصافي الذي لم تراود فيه أي أحد فكرة تقديمه مضغوطا في بضع أقراص من السعادة الزائفة، لا أحد يمكنه ذلك، إلا... أنا وقدري السيئ!"

انظر، ها أنا عدت مدمنا عليها.

كنت أشتغل منذ عدة أيام خلت على هيئة من تناول جرعة مفرطة من المخدّر. كنت أسير على الطريق التي هجرها الجميع، تتردد في رأسي الكلمة الأخيرة التي تلفظت بها رفيقتي قبل أن أغادرها: "حب"

لقد مضى الآن على ذلك عدة أشهر، قرون، أيام أو عدة لا شيء على الإطلاق – وماذا لو كنت لم أُخلق أبدا؟ – إني انطلقت من بيتي. وانتقلت من مدينة إلى مدن للصفيح، ومن بحر إلى جبل. زرت القصور والأقبية. طفت عبرا لطرقات والرقائق. سألت كل السرابات وكتب الطلاسم. التقيت الماكر والحمقى. رقدت على نهود العاهرات وحلمت بالحوريات في جناتي الاصطناعية. استحوذت على توقيع القديس. استمعت لأغنية الريح وطنين النحل. غادرت جسدي، التحقت بفكري وروحي في السماوات، حذفت الفضاءات وعلقت الزمن؛ وقطعت في النهاية الحبل السري. كل ذلك: من أجل أن أرى نفسي، أن أجدها، ولكني لم أرها ولم أجد أي شيء حتى الآن، إلى غاية هذا اليوم. إن أبواب الصحراء تبدو كأنها تنغلق كل مرة على ذكريات أو على مواقف مبهمة كثيرا. بقيت سجينا خلف هذه الحواجز، وتبخرت آمالي. لقد

اصطدم مد وجزر إرادتي بهذه الحواجز التي ظلت مغلقة، ولكني لا أكف ولن أكف عن ضرباتي المخففة للصدمة! لقد أصبح هذا البحث عن الذات هاجسا. كان الخيميائي الساحر في رحمه المشجّر، وريح السموم الناشرة للحكايات، المرأة والشيخ ذو الأوجه المتعددة، كانوا قد طلبوا مني أن أكون صبورا مع نفسي، وتنبؤوا بأنه يمكن لهذا البحث أن يستمر أكثر من حياة.

"النتيجة فقط هي التي تهم. أما الجهد والألم، فينبغي تجرعهما حتى الثمالة حتى يتحولا إلى انتصار، في نشوة، على الزمن والمادة، ولكن الانسلاخ سيكون مؤلما" هذا ما كانت قد وصفته جرعاتهم.

إن كل هذه الشخصيات المحيّرة كانت قد حدثتني عن التحول دون أن تحدد لي طبيعته.

– يا إلهي، إني أسألك شيئا آخر، اعمل على أن لا أتحوّل إلى ما أنا عليه الآن! لا تفعل بي هذه الفعلة السيئة، من فضلك.

استأنفت، مسترشدا ببوصلتي غير الممغنطة، الطريق الكبير التي كنت قد أتيت منه. إني أسير الآن في الاتجاه المعاكس، نحو باب الصحراء. وأنا أمشي على الإسفلت الحارق، كانت سحابة كثيفة زرقاء تقطع الطريق. كنت أتقدم، طيلة ساعات، وسط الضباب المزرقّ، دون أن أرى أين أضع قدمي؛ لم يخفني ذلك، بل بالعكس فقد رافقني هدوء غريب. أخيرا، عندما انقشع الضباب، تغيّر فجأة المشهد الذي كنت خلفته ورائي. كان القار يتفتت تحت قدميّ ليغدو رملا، والروابي تتحرك على هيئة كثبان حسّية، والجبال تتحجّر لتضارع تماثيل أبي الهول وفق الأذواق، والبحيرات تنعكس في السرابات، والسحابات الكبيرة تذوي في غيمات صغيرة ملبدة و سحب رقيقة معزولة، والشمس تستأنف سيادتها، والريح الساخنة تنشد تاريخ الرجال على

الأُرغنات البازلتية للصخور البركانية. إنها الصحراء التي تنتصب... ببطء وهدوء دون إحداث صوت، اللهم إلا صوت تلك السيمفونية التي تعزفها ريح السموم.

ويُعرض أمامي مشهد عظيم... العروق والرقاق المتغيرة التضاريس تنتصب فوق طبيعة شرهة موحدة الشكل، من أفقية عجيبة إلى تقعيرات ونتوءات محيّرة. الأصفر، الأخضر، الأبيض أو الأزرق، ألوان تكسو فراغ رؤيتي. كان المشهد يبدو مفرَغا من جوهره، أرض متناقضة، حائرة بين الموت والتجدد الأبدي، تستقر في سكون... بحكمة ورباطة جأش. أرض يصل فيها الرمل إلى حد ابتلاع المدن في جبال من الصلصال؛ وتنجب فيها مرونة الرمل واحات وتجمعات سكنية مزدهرة. إنها شساعة غامضة، سرّية، تنظر إليّ بحكمة وشفقة. فضاء شوّش معالمي وشحذ مشاعري، أنا الرحالة الذي يسافر في الاتجاه المضاد وسط ديكورات فاتنة تستحضر الحرارة والغياب. عالم مغلق يمنح الولادة لشكل آخر من الحياة. رحم متمرد. ليست تلك الصحراء التي كنت أحملها في داخلي و التي كانت تتبعني في كل مكان، حتى في أحلامي. هذه الصحراء مضاءة... تكاد تكون إلهية. قررت أن لا أحاول قهرها ولا إقناعها؛ سأحاول فقط أن أتفهمها، أن أنفذ فيها حتى تنفذ فيّ بدورها، لاقتناعي بأن كل شيء سيكون واضحا... وأن فكري سينجلي وأن روحي ستتصالح معه. لا أدري لماذا ولا كيف سيحدث ذلك، ولكني أدركه... مثل أية بديهة.

أنا مفتون بهذه اللوحة الحقيقية و الخيالية، الميتة و الحية التي تدعوني إلى عزلة أكون فيها في مواجهة مع نفسي، مثل قزم أو حبة رمل دقيقة، أو عنصرا متأصلا من هذا الفضاء المطلق. في هذه المرة، كانت هي التي جاءت نحوي. لقد وجدتني الصحراء من جديد، فقد كانت هي

الأخرى تبحث عني. أمر غريب، ولكن تعقيداتها الصحراوية لم تعد تخيفني، إني تقريبا مغتبط بغرقي في أعماقها الروحانية.

"ماذا ينبغي أن أفعل الآن؟" و قد أصبحت الصحراء هنا. "ماذا قالوا لي أن أفعل عندما أكون في جوفها؟" لاشيء. لم يقولوا لي أي شيء، إذن لا أفعل شيئا. بقيت جامدا أنتظر، ربما ببقائي على هذه الحال، سيدركني ماضيّ. فحاضري، دون ماضيّ، مظلم؛ ومستقبلي مرهون... بين وبين! أنا مقتنع بأنه ينبغي أن يكون لي أصل لأتقدم، أيّ سوء يمكن أن يحدث لي إن قررت التوقف والجمود في ما تبقى من زمني؟ إلا أنني: لن أصاب أبدا بالتجاعيد، ولن أحاول أبدا بناء مستقبلي على حاضر كثير الهروب وماض لا برهان عليه.

- أوقف كل شيء! هكذا تجرأت وأمرت الزمن.

تمددت على رمل شاطئ يتيمَ بحره، مهتما بإثقال قدميّ بحجارة كبيرة. "من يدري الآن؟ فقد يحاولون، في بعض المرات، القيام بطردي."

- أوقف كل شيء! صحت مُشَهّدا المناظر الطبيعية التي تحيط بي.

تحديت كوكب النهار، بعينين مفتوحتين قبالة الشمس، أن يتقدم في سباقه الذي لا ينتهي. أريد توقيفه حتى لا أعود لمعاناته أبدا. إن إرادتي قوية جدا لدرجة أنه يبدو لي ثابتا لا يتحرك. لقد بقي هنالك جامدا، مستقرا في مداره. لم تعد الغيمات الصغيرة ذات البراعم القطنية تُدفع من قبل الريح، حتى أن النسيم الذي يرطب هذا اليوم الجميل، قد سكت هو الآخر. لم يعد أبدا يكنس هذه السحب الصغيرة المنجرّة، و لم يعد يحرك أوراق أشجار السنط.

حبست عقارب ساعتي، داخل رأسي، وأنا مغتبط بالنتيجة. ونمت حتى لا أشيخ أبدا. هكذا سأنتقم من هذا الزمن اللعين! أطفأت عينيّ وغفوت خارج الزمن و...

أنا حبة رمل سكنت ساعة رملية ورفضت أن تسحب من طرف أندادها نحو الأسفل. حبة تريد البقاء حاضرة، لأن الأسفل يعني سلفا الماضي. - فالحبة التي سقطت تحسب كأنها استُنفدت، إذن ميتة - الحبة الصغيرة تصارع، إنها ترد هذه الجاذبية التي تدفعها نحو التاريخ. إن هاوية القدم تترصّدها كل ثانية. إنها تشعر بقواها تتخلى عنها. إنها لا تريد أن تشيخ، أن تترسب مع القدامى في الأسفل. إن الحياة في الأعلى؛ أما في الأسفل فلا يوجد أي أفق. كانت حبة الرمل المتمردة، وهي ملتصقة بالجانب الشفاف من القارورة العلوية، ترى مثيلاتها وقد امتصها الممر الضيق الذي يفصل الحياة عن الموت. إن الحبات المتسارعة سرعان ما يتم دفنها من طرف منفصلين جدد. إن المرشحة للخلود تضرب كل الحبات الصغيرة الأخرى التي تأتي لتتعلق بها؛ حتى أن إصرارها ومجازفتها أصبحا ملحوظين من طرف بقية ذرات الرمل. وقد قلدتْها حبات أكثر فأكثر عددا. وقد شاهدنا آنذاك ازدياد عدد المنشقات اللاتي لا تردن مكابدة أهوال الزمن، ولا تردن أن تكن تجسيدا للماضي.

- "ما العمل لقضاء الوقت في وقته إذا كانت أجزاؤه ترفض الاستجابة في الوقت؟" تساءلت بعض المترسّبات التي تفنّد هذه التصرفات المضادة للتيار.

إن هناك ما يشبه حبة رمل تحبس آلية الزمن. لقد أُعلنت حالة الطوارئ في الساعة الرملية. ما العمل لتخليص هذا الزمن السجين وتدارك الأوقات الضائعة؟ هكذا صاحت الحبات المتمسكة بالتقاليد، من خلال الزجاجات الملساء بفعل طقوس الزمن. - ذرة من الوقت جامدة، يمكن قبول ذلك؛ ولكن عندما تُثبّت حبّات رمل كثيرة الدقائق، ثم الساعات والأيام و الشهور و القرون، سينتهي بنا الأمر إلى الدخول في السرمدية، وهي أبدية لا قابلية لقياس الزمن فيها. ذلك ما نجازف بحدوثه

إذا لم نجد حلا في الوقت المناسب لقضاء هذا الوقت. سنجْمد في الاستقرار. فلا ماضي، وأقل من ذلك المستقبل، فقط قليل من الحاضر المشلول، حاضر يولد ويموت في نفس اللحظة، إلى الأبد، مستجديا الحبات المسالمة.

إن العصيان على أشده، والنظام الزمني مهدد. والحبة الصغيرة التي كانت أول من تمرد، بدأت تشعر بالذنب.

أرهقني التصرف المغرور لهذه الذرة المرملة الدقيقة وتابعاتها، فأخذت الساعة الرملية، وأنا محافظ دائما على إغماض جفنيّ، قلبتها و... ابتسمت!

القلب البركان

إلى هذا اليوم، كان العجز عن التصرف بفعالية والخيبات التي تبعت ذلك، قد حوّلت جشعي إلى سخط. وكان حنقي من أجل البقاء ومن ألا أجد نفسي ثانية، ولو على حساب الآخرين، يباغتني في تأملاتي وينفخ قلبي غضبا، وكان هذا السجن غالبا ما يجعل اندفاعاتي سيئة وشرسة، حتى أني كنت في بعض الأيام مؤهلا لفعل الأسوأ! وفي الأيام الأخرى كنت أتقبل الأسوأ! كانت حدة الغضب الذي أحمله تأخذ قوة ثأر شخصي غير مشبع، فيدفعني للتقوقع، ومن ثمّ، تعهُّد عالم قاس جدا أسكب فيه حياة بلا هوية وبلا قوام. لم أكن لأتوصّل لعكس نفسي في مرآة أشباهي، حتى في الحالات الأكثر هلوسة. وبإعادة استعراض مشواري، لم أكن قد كشفت أية قرينة واعدة، باستثناء بعض اللقاءات الوهمية الزائلة... وغير الحقيقية؟ وحتى هذه الخصوصيات، فقد كان قلبي هو الذي أحس بها. لقد عرف كيف يحافظ على ما لم تستطع عيناي أن تسجله في ذاكرتي لتهدئة ذهني ولو بنسبة قليلة.

منذ لقائي مع الخيميائي، انكببت على سماع قلبي وخاصة على الوثوق في نبضاته. لم أكن أعرف، من قبل، كيف أحلل الرسائل التي كان يرسلها لي، عندما كان يتألم ويشجى أكثر مني. وعندما كان يبوح، كنت لا أستجيب لنداءاته، لدموعه، لمخاوفه وأفراحه. — *إن أعمالنا، في أغلب الحالات، تمليها ضرورة قهر أزماتنا.* — أما هو فأعتقد أنه قد أدرك ذلك غالبا، وأما أنا، فإني لم أشرع في توريث

عقلي له إلا الآن. واليوم، فأنا أعيد التفكير في نداءاته... عندما كان الغضب يتملكه، كان قلبي يتحوّل إلى بركان، كانت حممه النارية تسيل في عروقي المحمرّة بسبب المرارة. — هناك كلمات لا يمكن إلا أن نفكر بها ، ولكن لا نقولها أمام الآخرين — وهناك أيضا، كان القلب البركان يصقها في النهاية. كان يستخرجها من أعمق أعماق الأحشاء إلى حد تجشؤها بواسطة فمي الملتهب. ولكني كنت أظل أصما إزاء غضبه الذي لا يمكن إطفاؤه إلا للتعبير عن غضبي، و غيظي الجشع ا لخسيس، القابل للارتشاء.

كان القلب البركان يستيقظ مذعورا على أصوات قرار اتهام الحياة وعبثية الأدوار الموزعة على ممثليها. كان يرفض سماعهم وضبط خفقاته على إيقاعاتهم. كان طنين حذره المرهق يسكن آنذاك أذنيّ، حيث لا يرنّ سوى صدى سذاجتي. ولكني لم أكن أفهم تذمّراته إذ لم تكن تطفو سوى لحاجات اضطراباتي الغضوبة.

إلى الأحلام اللعينة، - هذه الكوابيس المدمّرة للعقل والروح، هذه الصور التي كانت تغالط يقظة شعوري لتلاحقني في الظلمة وتقوم بترهيبي — هذه الرؤى الرمزية التي كانت تستنفر القلب البركان وتجعله يقفز قفزات تستحيل السيطرة عليها مثل حصان متوحش يرفض الترويض. ولم أكن أحس بقفزاته.

كان يستيقظ في بعض ليالي الأرق، تلك الليالي التي كانت تنتظرني وكانت تخرج نماذج من الغايات التي تم الشروع فيها، ولكنها لم تكن مكتملة أو ببساطة مستحيلة التحقيق، عندئذ، كانت تياراته الحَمّيّة في قمة هذا النشاط، تجرّ كل جراحات وهزائم حياة لتقذف بها إلى السطح، محدثة بذلك شروخا جديدة مهينة ومؤلمة.

وكانت جراح أوهنتها كل هذه المعارك الخاسرة تثير الندامات المستترة والمخفية في أعمق أعماقي، كما لو كان الهدف نسيانها... كنت أتظاهر بالاعتقاد بأنها لم تكن موجودة أبدا، ولكن القلب البركان كان يميع كل ما كان راسيا بصلابة في تجاويف الذاكرة، ليقوم بقذفها بطريقة أفضل في نار غضبه، حتى يريني إياها. لقد كنت أعمى عن إشاراته.

إلى انشغالات أيامي الموالية التي كانت تستقر في فتور سهادي؛هذه الأيام القادمة المرهونة الآفاق كانت تؤجج هذا القلب البركان بدقات أكثر سرعة وأكثر نفاد صبر... إنها مهمومة. وإلى سيول الحمم، وندامات الماضي، كانت تضاف انشغالات المستقبل. عندئذ، كان القلب البركان ينقذف في مستقبلي. هناك لم تكن لتهدّئه إلا سكينة نبضات الحب الهادئة وحدها، دون أن تهدئ مع ذلك هيجانه. كان يحاول أن يستفزني بإحساس شديد جدا من الحنان والجاذبية. كان يحاول أن يبلغنيه، ولكن دون جدوى. كان يعلم أن الحب يُحيي وأن الهمّ يميت؛ وفي ذلك الحين، كان يتدرب على الامتياز في العاطفية ويترك نفسه تُخترق طواعية بسهام كوبيدون[26]. في هذه الأوقات، كان القلب البركان يعمل على البقاء دائما في إيقاع النشاط.

وعلى إيقاع نبضاته، كان يفك لي عقدة حكايات مكابداتي وانفعالاتي.ولأني لا أسمع خطبه، فقد كنت أواصل البحث عن نفسي، أنا، ولا شيء غيري أنا في متاهات أوهامي. لم أكن أتقصّى غير انعكاسي الشخصي في المرايا الكاذبة لأناياتي الأخرى. والآن أخشى ما أخشاه أن يكون قلبي قد شاخ كثيرا. إنه يدق ببطء كبير نوبة الاستسلام. كنت أتمنى لمرة أخرى، خلال مرة لا غير، أن يدخل هذا القلب في ثورة وأن يعود،

---

[26] - كوبيدون: إله الحب في أساطير الإغريق. إذا أصاب سهمه قلبا أوقعه في الحب على الفور.

للحظة كافية، القلبَ البركان الباسل! قبل أن ينطفئ ويرى سيول حممه تبرد في المشاعر الإنسانية المدوخة و التي لا قياس لها.

لقد أدركت الآن كل هذه الدوافع المنتظرة بفارغ الصبر داخله، والأشواق التي تخفف أحاسيسه الكامنة، الصبورة، والمُجدّدة. إني أنتظرها، وسأنتظرها بتعقل، بتواضع ودون أي ادعاء كان. إني أعلم أننا، نحن الاثنين، سنشكل التحالف! ولكنه هو الذي سيقرر، إنه هو الوحيد المؤهل لذلك. إنه سيفعله عندما يراه ضروريا. وفي الوقت المطلوب، سيوقف نوبة استسلامه ليشرع في نوبة أخرى منسجمة أكثر مع الخارج، مع الداخل، ومع الكل. عندئذ، سيعود قلبي البركان للخفقان تزامنا معي. وسيحدّثني عن الحامض وعن الحلو... وعن هذه المذاقات الثابتة التي تسكن فيّ، فينا، في كل... وسأنصت إليه وسأنفّذ ما يقول.

ثلاث دورات صغيرة، ثم ينصرفون!

مقابل تقصير الحياة، كانت هناك ميولي الساذجة التي ترقص كما ترقص حلازين الدخان في سماء عاصفة. ففي كل مرحلة من تنقلاتي أتفاجأ بشكي في الدور الذي ألعبه، رغم أني لا أفتأ أتشبث ببحث دون أن أكون متأكدا جدا من مدلوليته. إن حياتي وآمالي وعذاباتي تتلخص في الأمل بأن يأتي ربما يوم، يحلّ فيه قدري السيئ عقده. كلما تمسكت بهذا العزاء، كلما كنت أسرُّ بوجود، أجد فيه نورا، بدون حرارة، يضيء طريقي ولكنه لا يدفئني. إنه ضوء بارد بخطوط قارصة تنتهي بالتحلل في وحل واقعي. عند هذا الحين، تحل التحفظات في صراعات مع آمالي في اضطراب فوضوي، وتمنعني من النظر إلى الأبعد... بتعقل أكبر. أحيانا، أمام هذه الرؤية المختلة، أبدي غبطة في حدود شجاعتي وجبني. في مرات خالية، كان كبريائي يستيقظ جراء استفزازات هذا الوجود الذي ليست له وعود. عندئذ، كان قلبي، هذا الرفيق الذي أهملته، والذي يرافقني الآن في قراراتي، غالبا ما يعهد لي بأمره. كان يخاطبني مثلما يخاطب الكهل الطفل، بلطف وترميزات:

إن الحياة مسرح، مشهد ينبغي على الممثل فيه أن يعرف كيف ينحني في الوقت المناسب. إن "الانصراف" قبل أن يتم التصفير بوجهه موقف شريف و ليس سهلا، حقيقة، ولكن... عندما ينبغي الانصراف، يجب الانصراف! إن دوامة التصفيقات المنتظرة، بالتأكيد،تشده وتلصقه فوق خشبات المسرح. وبطبيعة الحال، فإن أذنيه تظل صماء إزاء الملقّن الذي يجهد نفسه في تكرار الأبيات التي ينبغي عليه أن ينشدها. إنه يقف

هناك، مستقيما جدا، جامدا، منقبضا، وأحيانا مرهقا قليلا من كل ذلك. فهاجس الستار الذي يسدل بعنف، والخوف من أن يجد نفسه في الظلمة التي يتخيلها فكره الذي أعمته ضربات جهاز الضوء الكاشف، يجعلانه يتصبب بالعرق البارد. هناك، لا يرغب، غريزيا، في الانصراف والانتهاء من هذا الدور الذي يتماشى تماما مع هواه. إن هذا الفعل المنعكس المتعلق بالإصرار على البقاء يفقد كل مسبباته، و يصبح هاجسا مختصرا... هزليا. وتحل مواءمة ضعيفة فترافقه؛ ومهما يكن الإرهاق الذي يمكن أن يسبّبه دوره أو مهما كان رد فعل المتفرجين أو الشريك، فإن فكرة أن لا يكون فوق الخشبة تجبره على قبول كل الوضعيات، شريطة أن يبقى في هذا الغلاف الواقي 'لأناياته' المصنوعة مسبقا. إن التوهّم يجعله يتحمّل كل شيء من أجل ألا يواجه السقوط الأخير للستار، الذي لا مفر منه.

ولكن الزمن يوقف، بلا رحمة، عمله. فالأدوار الموزعة تؤدي في النهاية للضيق والملل والدمار؛ حتى لو غيّر الممثل أداء أجوبته وموّه تجاعيده لمحو آثار مرور الأيّام. هذا التوريط للزمن ينتهي بتسجيله ضمن تصميم إجمالي، مستجيبا لسيناريو جيد الحبكة، يجعله ينكر فكرة الاعتزال النهائي. عندئذ، يفضل الممثل معاناة أدواره على أن يتركها، ليس من باب التبجح، بل من باب الحذر الحكيم الجبان، وخوفا من البقاء في مواجهة أنا واحد. وحتى يرسي اعتداداته الغبية بطريقة أفضل، يرمي بنفسه ضمن عزائم تمنحه وهْم إمكانية تأخير هذا الأجل المكتوب. ويختار أن ينسى أنه ليس سوى مهرّج بسيط موسوم بتاريخ انتهاء الصلاحية. ولكن، وكما في كل مسارح العرائس، فإن الدمى ومحركيها يختمون دائما مشهدهم بتنفيذ ثلاث دورات صغيرة وبعد ذلك... ينصرفون!

– ثلاث دورات صغيرة وبعد ذلك ينصرفون! لم أعد متأكدا أبدا بأني موجود، في هذا المطهر الذي تطول فيه الأحداث. ذاك ما قلته بيني وبين نفسي.

– إن السبيل الوحيد لمعرفة ذلك قد يكون بالمـــوت، إذ لا يموت إلا الأحياء. بهذه الطريقة، ستعرف على الأقل بأنك قد وجدت. هكذا أجاب قلبي، في إيقاع بطيء لكل مقطع من رسالته.

لا أظن أني ميت لأن اسمي غير موجود على لوحات القبور التي زرتها... إلا إذا كان الدّهر قد نخر اسمي العائلي كما فعل بذاكرتي؟

ينبغي عليّ أن أعترف بأن هذه الفكرة المشؤومة لم تفارقني أبدا. واليوم فهي أكثر حضورا وإلحاحا من أي وقت مضى.

– أينبغي عليّ أن أوقف بحثي حتى أموت، فقط لأثبت بأني قد وجدت؟ فيم سينفعني ذلك؟ هذا ما أطلقته تجاهه مع ابتسامة ساخرة أمام هذه العبثية.

– سيبلغ بحثك غايته بعد التغيير.

– إني لم أدرك كل شيء بعد... هل على كل الناس أن يعانوا نفس المصير؟

– لا. وسيكون من شأن ذلك أن يطمئنك بالأحرى. قال مطنطنا.

– إذن، لماذا أنا؟

– لأنك تحلم بالعدل والحب.

– وأعاني الكوابيس من هذه النقطة ب114 ومن محتليها!

– ستنتهي بطردهم وستحظى بمزيد من الحساسية.

– لقد أصبت بهشاشة كبيرة جراء خيباتي!

– من الهشاشة إلى الحساسية، توجد درجة واحدة، ولفرط ما نكبو فيها، نصبح حساسين.

– وبعد ذلك، هل أعثر على نفسي؟

– لقد تم اختيارك من أجل التحول.

أصابني الذهول. كنت أنا من يقدم هذا الجواب المنحرف، ولكن قلبي هو الذي لقننيه. فمثل مقماق، لم تتحرك شفتاي، وهو الذي تكلم.

– لماذا تقوّلني ما تفكر فيه؟

– لأننا الآن في انسجام.

يبدو لي أني سمعت شيئا من الغبطة في خفقاته.

– هل ستتحقق النبوءة التي وعدني بها العجوز المتعدد الأجسام بعد "رحيلي"؟ أمن أجل ذلك، ومنذ ذلك الحين، وفكرة الرحيل السيئة لا تفارقني أبدا؟ هل عليّ أن أعتقد أو أن أرتاب في هذا التحول الذي تم التنبؤ لي به أيضا من طرف كل النساء؟ ثمّ إني أشك في أن يكون قلبي سمّاعا للمرشدين والمشيرين الذين التقيتهم، هذا ما فكرت فيه سرا، ولكنه اعترض كل ذلك.

إني أسمعه يشجعني بلطف: – مهما كانت مرارة الرحيل، فإنه سيخلصك من كابوسك، لأن ما ينتظرك لا يمكن أن يكون أكثر فظاظة مما تكابده.

– متى وكيف سيحدث ذلك؟

بقي سؤالي دون جواب.

– كيف سأرحل وفيم سيكون تغيّري؟ ألححت في ذلك. أخذ يخفق بسرعة أكبر و فجأة تملكني الخوف.

غالبا ما يحدث لي أن أكتب سيناريو وفاتي الشخصية. إني أرغب في أن تكون إجراءات تحولي النهائي من إنتاجي، إنتاجي أنا ولا شيء غير ذلك. إني أريد أن أقرّرها كما أشاء. حشد غير متجانس يحيط بجثتي: عائلة تتحسر وهي تستقبل أصداء ضحكاتي؛ أصدقاء يبتسمون لنعشي كذكرى للزمن الذي تقاسمناه؛ أعداء يتحسّرون على رحيلي هالكا لأن الوقت لم يسعفهم ليبصقوا كل سمّهم على حياتي؛ نساء محبطات الآن بسبب موتي الحديث؛ شيوخ يدعون لي الإله الطيب ذاكرين مناقبي؛ والمتسكعون العابرون الذين لا يعرفونني ولا يرجون معرفة أكثر من ذلك عني. عندما أركن جيدا في حفرتي، سيرمون عليّ التراب، ويضعون بعض الأزهار. أما أنا فسأبكي عليهم في قبري. وسيرجعون إلى بيوتهم ولن يعودوا أبدا لرؤيتي. أريد أن أكون بعيدا عنهم، بعيدا عن كل شيء، فقط قرب نفسي. سأحلم، بكل فخر، بالخلود في قبري، وسأنظر للعالم وإلى ما كانت حياتي كأجنبيّ. وقبل ذلك، أكون قد أخذت الوقت الكافي لحفر نقوش قبري على الحجر الذي سيغطيني: *"كل الأيام خلقت لتأتي أو لتذهب. أن تموت اليوم يساوي تماما أن تموت في أي يوم آخر. وإذا كان هذا اليوم، سأكون عشت مزيدا من الأشياء عما لو كنت مت البارحة."*

طمأنني قلبي بنبضات أكثر هدوءا ومسكّنة تقريبا: "اعلم، بأنه سيكون دائما غد آخر، وسيكون مخصصا لك."

انتهت كلمات الشيوخ والنساء بالتعشيش في رأسي، لدرجة اقتناعي بالبقاء منتظرا، ماذا أقول، بالاعتقاد في هذا التحوّل الذي طالما نشدته. لم يبق لي إلا أن أصرف شكوكي ومخاوفي، وأن أحوّل مجرى وجودي، لكن... أنا خائف باستحياء. سيقرر وسطائي وقلبي ما سيكون آخر أفعالي... حينئذ، فليكن الأمر كذلك!

العودة إلى الصحراء، التخلقن

لكي تتأمل نفسك أفضل، امكث في الصحراء.

جان دو لافونتين

رسالة مفتوحة... إلى الديدان

استيقظ النهار وسط صحراء من الحجارة والرمل الدقيق، دون تضاريس ولا مميزات، دون ريح ولا حياة. فقط سطحية ورتابة مخيبتان، جامدتان، محزنتان؛ بعيدة الشبه عن كل الصحارى التي سبق لي أن زرتها، هذه الصحراء ليست لا عدوانية ولا مضيافة، يبدو أنها ميتة فقط!

هناك آثار، على الأرض، ترسم محيطا مستطيلا. وهي تشهد على أنه كان في هذا المكان متاريس كثيفة؛ وفي الداخل، آثار أبنية ترسم على الحصباء الصغيرة الملبسة بالرمل، ملامح لدور ولأسوارها. إن العلامات لا تزال تدخن، ولكن لا أثر لأي رائحة. وقد كان هناك أحياء رغم أن لاشيء يبدو شاهدا على ذلك! لقد وصلت عن طريق الناحية الشمالية، متقدما بخوف وسط هذا الفناء الذي تنتصب فيه الشواهد الأثرية وسط بعض الأشجار الجامحة ذات الهيئة فوق الطبيعية. لم يبق أي شخص في هذه المدينة الشبح. ولم يعد هناك أي شيء حولي وحتى في أبعد مكان يصل إليه انشغالي! لا نفس ولا قوام، غير الصمت القاتل الذي ينام على ديكورات جنائزية. في هذا المستطيل الكبير الذي يبدو مصابا بغيبوبة عميقة ومعدية، ينبعث جو يؤدي إلى طرد الأمل من كل ذات.

– ماذا حدث لهذا المكان؟ لا يمكن أن يكون ذلك بسبب حريق: إن الأشجار كسيحة بالتأكيد، ولكنها ليست محروقة. كما أنها ليست بسبب الريح أيضا، كان لا بد من اشتراك كل أعاصير الأرض لاستئصال وابتلاع الدور والرجال في بطونها، ثم إنه لم يقع أي إعصار

استوائي على هذه المناطق! فلا فرضياتي، ولا تساؤلاتي، تعطي تفسيرا مقبولا لهذه الوضعية الغير الواقعية!

سرت بين الآثار المحدّدة للأماكن القابلة للسكن، ولكنها خالية، وفي الشوارع العريضة والمستقيمة جيدا، ولكنها مهجورة. لم أكن آمل لقاء أي شخص، وكنت أستعجل عبور هذا المكان. وفجأة، أخذت الأرض تتحرك تحت قدميّ. هذه الحركة أعطت انطباعا جديدا أكثر سريالية لديكور الأماكن المرعب. أخذت التموجات تتسارع أكثر فأكثر، كان يساورني إحساس بأني أقف على لوح شراعي فوق بحر هائج... نعم ولكن هنا لا وجود للبحر ولا وجود للوح الشراعي أيضا! ربما هو زلزال؟ لا، فما من صوت يرافق هذه التغيّرات! وفوق ذلك، فهذه الناحية ليست ناحية زلزالية ولا الفصل فصل جعجعات! انحنيت لأرى عن كثب هذه العجيبة الجيولوجية، فتملكني الرعب. لم أصدق عينيّ! ليست الأرض هي التي تتحرك، ولكن ما يكوّنها! ملايين بل مليارات من ديدان الأرض تكسو خامات الشوارع والفضاءات التي تشغلها البنايات. إنها تلهو بلعبة قفز الخرفان على شكل عنقود مؤلف من عدة آلاف منها، هذه اليرقات الصغيرة الشجاعة!

كانت كل المساحة المستطيلة، على امتداد البصر، تتحرك في كتلة لزجة ذات تموّجات دبقة. شيء لا يصدق! لقد استيقظ السكان الوحيدون لهذه المدينة المقبرة، مترعجين، بالتأكيد، من أشعة الشمس السمتية، ها هم يطفون على السطح لاستنشاق الهواء. ولكنها مفترسة هذه الديدان، فأنا أشعر الآن بحزمة معتبرة من هذه الفكّيات الصغيرة تمسك بقدميّ إلى الساقين. في حين كانت بقية مستعمرة "ديدان الأرض" تعمل كل ما بوعها لدفني. ملأني الذعر، فأخذت أقفز في مكاني تفاديا للافتراس من طرف الديدان، ولكن قدميّ كانتا تغو صان

أكثر تحت تأثير وزني. خفت من التــوحل في هذا الدابــوق الحي. ليــس من الســهل أن تصارع مليــارات الكائنات الصغيرة العازمة على جعلِ شخصي غذاء لها. على الجانب السفلي من رسم الشارع، مدت إليّ شجرة من الصحراء أغصانها العارية. أمسكت بيديها الملتويتين وارتقيت فوق غصنها الأكثر ارتفاعا. وفي الجانب الأسفل، تم اتخاذ قرار آخر من طرف السرف الغريبة: تسلق الأكاسيا. لم أجرؤ حتى على مجرد التفكير في هدف بعثتها!

إن الجواب على سؤالي: "أين ذهب سكان هذه المدينة؟" يقودني إلى هذه الحقيقة القاسية التي يتحتم عليّ أن أواجهها. أفضّل رفع الرأس إلى السماء لكي لا أرى التفسير في الأسفل. بعد لحظة طويلة، وأنا معلق على هذا الغصن الذي يتداعى دائما أكثر فأكثر تحت وطأة وزني، انتهيت إلى النعاس من جراء التعب. أمر غريب، ولكني لم أعد أشعر لا بالخوف ولا بالألم، فقط فراغ يملأ كامل جسمي ويمنحني رغبة ملحة في الاختفاء حالا، وأن أنتهي إلى الأبد من هذا البحث المستعصي. أشعر بأني جيّد، لكن مشرف على الموت. نعم، ولكن غير مفترس حيا من طرف سرف غريبة. أيّ مصير تافه لشخص مرّ من حيث مررت، وقاسى ما قاسيت، وقطع ما قطعت، أن ينتهي معلقا على شجرة شائكة صفراء الأزهار، وأن ينتظر بلطف الديدان المتسلقة والقارضة العازمة على تمزيق جلدي.

امتلأ قلبي شجاعة وأوصاني أن لا أستسلم للذعر. ومن ثم لم تعد بي رغبة للانقياد إلى الموت الحاصد، فضلا عن أن أكون طعاما لجيشه المتكون من المنظفات النهمة! أغمضت عينيّ، وتركت نفسي أتزحلق على طول جذع الشجرة لمغادرة هذا المدفن ومواصلة طريقي. وقبل أن أنزل، كنت قد حفرت بعض الكلمات على اللحاء:

أعزائي جحافل الديدان،

إن كتبت لكم هذه الأسطر القليلة، فإنما لأعلمكم بأنكم لا تخيفونني، أبدا، نعم أبدا! عندما تقرؤون رسالتي، سأكون بالتأكيد في متناول يرقاتكم الصغيرة النهمة. أريد فقط أن أقول لكم بأنكم مخلوقات أحترمها. وهذا التقدير إنما أكنه لكم للمهمة النبيلة التي كلفتم بها. إنكم الوحيدون الذين لا تفرقون بين الكائنات، فلا عنصرية ولا مفاضلة. المساواة للجميع أمام سرف الديدان. أعتقد بأنها العدالة الوحيدة في هذا العالم: الجميع مفترَسون حتى العظام، منظَفون بدون بلل إلى غاية البياض، سواء كنا أمراء أم فقراء، أقوياء أم مرضى، امرأة أم ثلاثة رجال؛ حيوانا أم لاإنسانا، أسود أم بنفسجيا؛ بكرا أم حبرا. إنكم تخصصون لنا جميعا، وبدون استثناء، نفس المعاملة؛ لهذا السبب أنتم تعجبونني، يا جحافل الديدان الأعزاء.

إنكم تعتقدون أني أمدحكم لتخفيف رغبتكم في التهامي، صحّحوا خطأكم! إن كنت أتوجه إليكم، فإنما أفعل ذلك لتوجيهكم بطريقة أفضل في احتفائكم، ولمساعدتكم على التعرف أفضل على طعامكم. إني أقترح عليكم شكلا من الوجبات، وجبتي أنا!

عندما تشرعون في التهامي، أطلب منكم أن تفعلوا ذلك ابتداء بمخّي. لقد أنهى وظيفته بهدوء. لقد ترك لي فكرا واضحا وماكرا إلى آخر نفس. لقد بقيت طفلا، رغم تجاعيدي وشعري الرمادي. إن هذا المخيخ قد سمح لي، خاصة، أن أحلم وأن أصدق أحلامي.

وإلى الأسفل قليلا، ستجدون عينيّ منطفئتين إلى الأبد؛ ومع ذلك فقد شاهدتا كثيرا، هاتان المقلتان المتعبتان. لقد شاهدتا أناسا و"لا أناسا"، طيبين وغير طيبين؛ ولكنهما حاولتا دائما أن تريا حقا، هاتان العينان الحسيرتان. أعترف بأنهما منحتاني الحظ في رؤية الأشياء الجميلة

أكثر من الأشياء القبيحة. التهموهما في غضون عدم رؤيتهما لكم. اغتنمن، أيتها الديدان الصغيرة، اغتنمن!

بعد ذلك، وفي وسط وجهي بالضبط، هناك الأنف. لا يمكنكم تضبيعه، إنه طويل ومستدق. إن هذه الزائدة الأنفية سمحت لي بشم الوردة، الياسمين، وكذلك وسخ ما كان عالمي. وقد كان حكيما إذ لم يحتفظ إلا بعطر الأزهار الممتع.

مباشرة تحت الأنف، تجدون شفتيّ اللتين أمدهما إليكم، قوموا بتقبيلهما قبل عضهما. إن هذا الفم قد استمتع باللّذات والبواكير، وقد عرف، عندما يحتم الظرف ذلك، كيف يظل مفتوحا ليقول، وكيف ينغلق ليصمت. لقد كذب، بالتأكيد، ولكن قال الحق أيضا، تعالوا، تعالوا قبّلوه أيها الغرباء الصغار قبل أن تعضّوه.

عندما تنتهون من فمي، ادخلوا داخله لتتذوّقوا لساني. إنه لم يتوقف أبدا عن الثرثرة. لقد أجرى محادثات متفاديا تكرار النقيض. على الأقل، .هذا هو الانطباع الذي أعطانيه. وأعترف لكن عزيزاتي الديدان، كذلك، بأني قد أخرجت هذا اللسان لأتهكّم على الأغبياء وعلى الأقوياء. لقد فعلت ذلك وأنا مسرور به!

بعد ذلك، أقترح عليكم أن تتوجهوا نحو قلبي. وأوصيكم بالتمتع به في هدوء. إنه طعام رقيق، كان هذا العضو يقودني في كل أفعالي، لقد وضعت فيه الثقة وقد أعادها لي جيدا... الوغد! إني لم أقم بمراعاته أبدا، لا في الانفعالات، ولا في المعاناة؛ ومع ذلك فقد كان دائما متماسكا، حتى عندما أكثرت الاعتماد عليه وأرهقته جدا. أنصحكم أن تأخذوا وقتكم معه، أعلم أنه كان صبورا.

وإلى الأسفل، داخل بطني ستجدون بعض الأغذية لم يترك لي الموت اللعين فرصة هضمها، كلوها أيضا، وأعدكم بأن الغذاء صحي ومتنوع. لم أكف أبدا عن تدليله.

وعندما تلوكون هاتين اليدين الميتتين، اعلموا بأنهما قدمتا أكثر مما قبضتا. تقدموا، إنهما لن تيسحقاكم. إنهما لم تتعلما أبدا فعل الشر، رغم أنه كانت هناك أوقات أردت فيها أن تضربا أكثر من أن تلاطفا. أنا لا أحقد عليهما الآن أبدا.

أما ما تبقى من جسمي، عزيزاتي الديدان، فإني أدعكن تكتشفنه، أعتقد أن كل شيء قابل تماما للأكل وسليم. ابدأن، لا تتحرجن خاصة من ناحيتي. إني خلقت لذلك!

ها أنتن الآن تعرفن جسدي، إني أقدم لكن جثتي، استعملنها استعمالا جيدا.

لذا شهية طيبة، أيتها الديدان!

"ولكن اعلمن أيضا، أنتن الـــلواتي ستـــتذوّقنني، أنكن ستكنن، ذات يوم، طعما لسمكة سيتم أكلها من طرف أحد الصيادين."

الأرجائية التافهة

لقد مرّ الآن أكثر من ثلاثة أيام منذ أن تركت "المدينة المقبرة" بعيدا ورائي حاملا بعض الديدان المفترسة داخل حذائي. إني أسمعها تتآمر وهي تضايق إبهاميّ المتألّمين من كثرة السير. تظاهرت بتجاهلها. تقدمت على طريق مبلطة وسط العرق[27] الأصفر، البرتقالي، الأحمر؛ كان الأفق مقطوعا بهضبة حثّية مجزأة للغاية ومحاطة عند قاعدتها ببحر من الرمل الرمادي الداكن. كانت ألوان المعدن، تحت خطواتي، تصبح قاتمة كلما تقدمت الطريق. توجهت إلى الجنوب. لم أكف، طيلة كل هذا اليوم، عن التفكير في الظهور الغريب الذي حدث يوم أمس: في وقت متأخر من الليل، بعدما نفخت على النجوم كما لو أني أردت إطفاءها، كنت أتهيأ للنوم بين شجرتين، على بعد مائة متر من جانب الطريق، حين سمعت بعض الأصوات الصماء، خشخشات قماش، حضور شيء كان يتدحرج فوق الرمل. رفعت رأسي، وعيناي مغمضتان، كنت خائفا.

ارتفع صوت منخفض وحار. نبرات ثقيلة، هادئة، ولكنها سلطوية:

– يمكنك أن تفتح عينيك!

أطعت ببطء.

كانت واقفة، حافية القدمين، مستندة الظهر إلى شجرة أثل مزهرة. طال نظري الحائر، والفضولي، للمرأة. ابتسمت ثم تركت

---

[27] - العرق: سلسلة من الكثبان الرملية طويلة الامتداد، ومنها ما يدعى السيف (المترجم).

خمارها الأبيض يسقط بدلال. اكتشفت أشكالا لم يكن فكري قد توقف عن تخيلها؛ لم يكن قد أخطأ: لقــد كانت ساحرة! المرأة ذات الشعر الأشقــر، والبــشرة اللبنية والعينين الزمرديتين؛ لقد كان لها وجه كل النساء اللائي التقيتهن أو تركتهن أو حلمت بهن أو سئمتهن. مرة أخرى، كنت متأكدا من أني قد رأيتها سابقا، عرفتها وربما حتى أحببتها. عندما تقدمت في اتجاهي، أحسست فجأة بالبرد، في حين كانت السموم، حولي، تلهب جو الأماكن. ربما هو أكثر من البرد، الخوف الذي يجعلني أرتجف.

– لا تخف.

– من أنت؟

ابتلع صمت وجيز كلماتي.

– النجاة.

كان وسطاء الوحي قد تنبؤوا لي: "سيتوجّب عليك مواجهة موتك الشخصي..." أتكون هي؟ لقد كانت تتبعني في كل مكان، تقمّصت كل الأعمار، واستعارت كل الوجوه؛ واليوم، ها هي هنا من أجل لقاء آخر تحت هويتها الحقيقية. خليط رائع من الحزن والفرح طيّب روحي. كان كل شيء غامضا فيّ، لم أكن مستعدا. وفي السماء، كانت النجوم تسطع الواحدة تلو الأخرى لإنارة هذه اللقاءات المستعادة.

بعد ذلك، صار كل شيء سريعا وبطيئا: سريالية ثاقبة تستحم في واقعية عائمة. نهضت، زلجت بعض الخطوات المترددة نحوها. أمسكتني النجاة بحنان من كتفيّ هامسة لي كلمات لم أكن متحققا من معرفتها، قبل أن تطبع بكل احترام قبلة خفيفة على جبيني. كانت هذه الحركة قد جعلتني أنتفض مبتعدا، ورأيت في عينيها عينيّ، مغمورتين بالدموع؛ وكانت شفتاي، وهما ترسمان ابتسامة،تختلجان بانتظار حائر. لست أدري كيف

أخذت أصابعها بارتباك في يدي، وأنا أشد عليها بقوة. عندئذ جذبتني نحوها، وأخذت تسرح شعري ببطء بكفها. تركت نفسي أميل نحوها. وبملامستها، طفق دمي يغلي، وأشعلت كرةٌ من اللهب في بطني بقية جسمي. عاد جفناي للإغماض بهدوء. ولا شعوريا، وبعمى تام، غمرتْها عندئذ بلطف بكلتا يديّ، وكلا ساعديّ. كانت أصابعي تفتش، تحسّسا، عن حدود وجهها الهادئ، عن أكتافها المستقيمة، عن ظهرها المتثني، عن وركيها المغلفين؛ وضعت المرأة رأسها على كتفي وبقينا هكذا، فترة طويلة، نتأرجح ببطء على إيقاع الهمسات والمداعبات البطيئة للريح الساخنة. كانت الكرة قد ازدادت اشتعالا أكثر في بطني، موقظة بذلك كافة حواسي. وبشجاعة عملت يداي على تجريد نجاتي، المرأة ذات الشعر الوهاج، من ثيابها، و بالتركيز على تجويف وركيها، على بطنها المسطح وعلى استدارة نهديها. لقد كانت جميلة.

أريد أن آخذها قبل أن تأخذني.

في هذه اللحظة، كان للسعادة عندي طعم خاص، هو طعم الحامض والحلو؛ سأنعم به إلى آخر رمق فيّ. كانت واقفة هنا، عارية. لم أكن أتصوّر أبدا أنه يمكن أن يكون للموت هذا الوجه... حقيقة، كان وجه الخلاص، خلاصي.

لماذا لا يكون وجهها جميلا؟

عندما تمددنا، الواحد بين ذراعيْ الآخر، كان القمر قد احتجب والنجوم قد خبت.

بعد دهر، خرجت بألم وحزن، من هذا الظهور العجيب لأنام على رمل الصحراء.

كانت الشمس قد ارتفعت عالية في السماء لما أفقت مفلوجا من مخاوفي ومضطربا بالتساؤلات. لا أزال وحيدا، من المحتمل أن أكون قد حلمت. حلم تجسد على شكل وشاح. طويت الحائك، الذي كان لي بمثابة الفراش! على الأرض، على أربع وجذبته فوق كتفيّ.

استأنفت طريقي مفكرا في حياتي... في لقاءاتي... في كل هؤلاء النسوة... في موتي القادم، وفي ما يستتبع. كانت حياتي إلى هذا اليوم، تشبه حلما طويلا صاخبا؛ كنت أنظر إليه انطلاقا من حافة الطريق. ابتداء من اليوم، سأغطس! ولو أدّى بي ذلك للغرق.

تمتد الصحراء والرمل أمامي، يعبرهما الطريق الإسفلتي. ويمتد القار على امتداد البصر مثل لسان فلت، قاطعا بذلك العديد من المجموعات الصخرية والكثبان الشاسعة، مارا بين رزز وعقود جسور، وقصور صلصالية، ومنتهيا بالتيه في الشعاب بعيدا، بعيدا جدا جدا.

وفي فمي، يختلط طعم حامض المذاق، حلو المذاق، لاذع المذاق، سكري المذاق، برائحة مستعارة... جنائزية. رائحة حادة وحلوة تشوّه الإحساس بالواقع. بقية روائح ومذاقات جامدة آتية من غابر الزمن. لديّ انطباع أن هذا العطر الغريب يحيطني بهالة منذ استيقظت.

ومشيت. يا إلهي ما أطول طريقي! لم يعد سكون الفضاءات اللامنتهية يخيفني؛ إن ما يخيفني موجود فيّ. كانت رجلاي تمشيان، في الواقع، ولكن فكري تائه. أيّ سراب أحاول بلوغه؟ أيّ رغبة خاصة أتملقها؟

وتقدمت. تبّا ما أعوج طريقي، أيها الشيطان! كنت أرى، في رأسي، كل الأحداث التي قادتني إلى هنا، من أجل بحث لا معنى له: بحث عن الذات ستؤدي إلى هويّة أخرى. إن وجوه كل هذه اللقاءات، الطيبة أم القبيحة، التي علمت مسيري، موجودة أمامي هنا؛ سألتها عن

المحن التي قاسيتها وعن تلك التي ستتبع، لكن ولا أي جواب. واصلت التحدث وحدي. وبسماع نفسي، كنت أكتم خيباتي وآمالي الهزيلة داخل بطني. كان كل حدث من الأحداث التي أوصلتني إلى هنا، يبدو لي كإشارة، أو على الأقل كمعلم على المسار المتعرّج الذي رسمه لي القدر، والذي اتبعته من مرحلة إلى أخرى ظانا أني دليل نفسي. كنت أتصوّر أن العالم إنما كان يتلخص فيّ وحدي. لقد بحثت طويلا عن القسط الصغير في رحلاتي، وعن الحنو في الكلمات العطوفة التي لم تكد أذناي تسمعانها، ولكن هذا البحث كان، في كل مرة، يتبدّد بالقبح الذي كانت تكتشفه عيناي. وقد سمح لي هذا بتشكيل أحكامي كما تشكل المحارات لؤلؤاتها، ثم تنغلق عليها... إني لم أر أبدا أبعد من طرف أنفي. أمام الامتهان الذي كانت الحياة قد حمّلتني إياه، كنت أفكر بقوة : "لا يوجد غيري ليبحث بحثي!" أو كنت أتفلسف ببلاهة: "إن العالم يشبه مهرّجا حزينا، والمزية الوحيدة التي يمكن لي أن أفيده بها هي أن أضحك على بزته." وظنا مني أنني واجد عذر هذا العالم في السخرية، كنت أعْبر الأحداث بتفاديها، أو بازدرائها بلامبالاة متعجرفة. ولكن، منذ التقيت بالعجوز الخيميائي الذي كان قد علمني كيف أستخلص الثمين من الغثّ، والشيخ الحكيم في الفرجة الذي كان قد استمع إلى كلامي، والعداءة التي منحتني الفرصة لتحويل النقطة ب114 حيث يجب أن تكون، وأخيرا هذه المرأة، خلاصي، التي ما انفكت تعلم طريقي والتي انتهيت إلى أخذها، تغيّر إدراكي للوجود.

وها أنذا، من جديد، أطأ الرمل والحجر، ناسيا الجن والكوابيس، لا أعيد التفكير إلا في الليلة الأخيرة التي قضيتها مع هذه المرأة. إذا كانت هي، فقد عرفتْ المنية كيف تكون محبوبة، وإذا لم يكن الأمر سوى حلم، حينئذ أكون قد استمتعت به كما نستمتع بالفرحة للمرة الأخيرة.

مشيت وأنا أفكر أو أني فكرت فقط في المشي. إن ما هو أكيد، أن فكري تسكع وتاه في تعرجات شراهته.

فجأة، توقف قلبي. انتفضت. عاود الانطلاق، على مهل.

سألته: ماذا دهاك؟

أجاب ببطء: إنها هنا.

كررت ببلاهة: من هي هذه؟

– هي، تلك التي جاءت تبحث عنك هذه الليلة.

– هل خفت منها؟

– لا، وأنت؟

– لا أدري.

لقد كذبت، بالطبع.

كانت المرأة المجهولة التي قضيت معها، احتمالا، ليلة استثنائية تبدو، وهي جالسة على حافة الطريق، كأنها تنتظرني. لم أكن قد حلمت إذن، أو أني لم أستيقظ بعد.

– لماذا منحتني نفسها بهذه السهولة؟

وردّ: بالتأكيد لتكون مقبولة بنفس السهولة.

– صه!

وصلت إلى محاذاتها، خدعني قلبي واضطرب. كان قد كذب عليّ: لقد سيطر عليه الخوف. ففككت الحائك من كتفي ومددته لها؛ قربانا تكفيريا. أخذت القماش الخفيف دون أن تنبس ببنت شفة. تردّدت في الشروع في أي شيء؛ الآن، أعلم أنها هي، حتى ولو أني لم أخرج بعد من حلمي، إنها هي.

كنا نمشي، ملتحفين بالصحراء، منذ عدة ساعات دون أن نتحادث. سمعت قلبي يدق بقوة أكبر فأكبر.

سألته: ماذا تريد أن تقول لي؟

فهمس: "لا شيء".

"لا تقل لي أنك خائف... أنت أيضا."

لقد التقطت المرأة، بالتأكيد، هذه المحادثات، ولكنها واصلت السير متفحصة أفقا توقف فجأة عن الوجود. كانت شامخة و باهرة، خفية وعطوفة، قاتلة ومهدئة؛ إن المرأة جميلة، جميلة في غموض. كان الفضاء حولنا يبدو كأنه يضيق، غارقا في سلم لا نهاية له. لا أدري متى ولا لماذا بدأت أكلمها عن أحلامي، عن ساكني لياليّ، عن النساء وعن الرجال الذين التقيتهم، عن تسكّعاتي وعن الدناءات التي صاحبتها. كنت قد ذهبت مرارا للاعتراف، متجنّبا لقاء نظرتها. وبالتأكيد، لا بد أنها كانت على علم بكل مغامراتي. عندما انتهيت من رواية قصتي، أدارت رأسها وابتسمت لي. في هذه اللحظة المحددة، كان عندي انطباع واضح بأن العالم كله قد اعتصم بالصمت، فالعصافير أوقفت تحليقها في السماء وكذلك الزمن على الأرض. حدّق فيّ أخضر عينيها بشدة. أثارني إصرارها، واستبد بي ذعري، وحيّرني لون الأمل هذا الذي انبجس من نظرة الموت.

– هل هذه أنت؟

هذا ما تمكنت من قوله. أجابت : أجل.

ما أشكّ في الجواب. استعار الجو حولنا إنذارا مكبوتا، فهناك ما يشبه النذير المتواري في الهواء. وهناك توجس جنائزي، مناسب بغرابة، يزيد أكثر في ترويع قلبي الذي لم يعد يحتمل فقدان صوابه. أما أنا، فقد كنت أحاول، من الخارج، أن أكون هادئا. إذا كنت قد نمت معها هي

مساء أمس... فلا بد أنها نسيت ذلك أو أن ذلك كان يمثل جزءا من طقوسها. كنت أتصور بسذاجة أن تسلياتنا الليلية كانت ستؤدي إلى تحسين علاقاتنا. لقد أخطأت، مرة ثانية.

– لماذا؟ سألتْ ببساطة، كما لو كانت تسأل نفسها.

لم يكن صوتها ليترك الفرصة لظهور أي تعال، بل يبدي بالأحرى حيادا... حيادا وجدانيا. حوّل سؤالها مجرى صوتي، فواصلت معتذرا تقريبا: أود أن أفهم... ربما تكون هفوة مني، ولكني كنت أود أن أعرف لماذا... لماذا أنا؟

نظرت إليّ، مندهشة من سؤالي.

– لقد أعلنا لك ذلك مسبقا، لقد تم اختيارك للتخلقن.

شعرت فجأة بالخوف يغمرني بعرق بارد. استمرت اللحظة طويلا جدا، شاهدت ثانية، خلالها، كل المرشدين الذين لم يتوقفوا عن تنبيهي من تحوّلي القادم الذي تسبقه وفاتي. ولكن بأي تحول يتعلق الأمر؟ إلى أي شيْ سأنسلخ؟ ليست تلك أمنيتي، لا أرغب إلا في أن أجد نفسي، أن أعرف من أين أتيت، وأن أعيد تركيب ذاكرتي. هذا ما أصبو إليه! إذا كان عليّ أن أتغيّر إلى أي شخص أو أي شيء آخر، فلن أفعل سوى أن أبتعد أكثر عن هويتي الحقيقية.

– كما تعلمين، أني لم أغادر شارع الشيطان متخليا عن المرأة التي كانت تحبني، وأني لم أتبع كل التعرجات، ولم أته في الرعب، ولم أصل إلى الصحراء، من أجل التخلقن، بل من أجل أن أجد نفسي أنا. أن أعرف من أنا. لم أعد أدري حتى لماذا غادرت النقطة ب114 بقصبتي لأبلغ نقاط ب114 أخرى شبيهة بها أو أسوأ منها. كنت أنتقل من معلم إلى معلم ناظرا للعالم وسيناريواته بعينين ساخرتين أحيانا من الهزء، وحزينتين غالبا من عدم الفهم. والنقطة ب114 الوحيدة التي

فتنتني، كانت تلك التي اكتشفتها مع العداءة في الهضاب العليا. ولكن أعتقد أن الأمر كان مجرد حلم فقط. وأعترف أيضا بأني قد التقيت حكماء علموني الصبر والمثابرة.

- لن ينفعك في شيء أن تفسر الظروف التي دفعتك على الطرقات... وعلى كل حال، فقد كان هناك أشخاص ساعدوك على تجاوز هذه العقبات وعلى إعدادك لموعدنا الأخير.

- كان كل هؤلاء الناس قد حدثوني عن الحامض وعن الحلو، غالبا، وقد همت بين الاثنين، خالطا بذلك بين ذي الطعم وعديمه.

ووصل بي الأمر إلى حد عدم تمييزهما، رغم أن ذلك كان من المفروض أن يكون سهلا.

- إن الحامض والحلو ليسا سوى وترين لنفس الكمان، وإن اهتزازاهما تتوقف على لمسة الريشة.

يبدو أن هذه المرأة تعرف كل شيء عن شخصي. وفعلا، لن ينفع تفسيري في شيء، خاصة أنها كانت قد برمجت سلفا نهايتي.

- إلى أي شيء سأتحول؟

هذا ليس سؤالا قمت بطرحه، بل كان بالأحرى توسّل. كنت قد خفضت عينيّ وأنا أوجه لها هذا الالتماس؛ وكنت قد طأطأت رأسي مثل المحكوم عليه الذي يقبل القرار قبل أن يتم النطق به. إن فكرة تحولي ترعبني، ولكني أريد أن أعرف نهايتها.

- إلى أفضل ما لديك...

- ما هو الأفضل الموجود عندي؟

- لقد صادفته أثناء رحلاتك. إنه مخبأ فيك، إنه هذا الجزء من ذاتك هو الذي سيتحوّل فيك.

- ومن سأصبح؟

أخذت المرأة ذات الشعر الوهاج وصاحبة نظرة الأمل يدي بحنان. وفي هذه اللحظة، غشت عينيّ صورة خاطفة لليلتنا التي قضيناها في أحضان بعضنا، وجعلت شفتي تبتسمان. وابتسمت المرأة الخالدة الشباب أيضا. لم تضف أي قول زائد حول تَخَلقني. وفي حيرة مربكة، حزرته...

إني أعرف الآن ما ينتظرني. إن بحثي سينتهي حتما معها، ولو كان ذلك بتوجّس يقبض قلبي. "لست سوى رجل يبحث عن نفسه" أسررت بذلك إلى سيدة في ماخور بالمدينة آكلة لحم البشر. ها أنا قد وصلت إلى نهايتي دون أن أعثر مع ذلك على أي شيء؛ ولكي أتصبّر سيكون لي الحق في تحول غريب.

- اليوم، جئت تضعين حدا لحياتي وتقترحين عليّ واحدة أخرى أفضل. أيتحتم عليّ أن أصدّقك، هل لي الاختيار؟ كلا. عليك أن تشكي في ذلك: إن زيارتك لا تكاد تفاجئني، فلطالما كنت ألتمسك في خضم مخاوفي، وكنت قد ظهرْت لي في أعمار أخرى. ولكن فقط... كلا، اعذريني، لن أتبعك، لست مستعدا. في هذا اليوم الأخير، لا أرغب في أي شيء، سوى ربما، أن يتوقف كل شيء!

كل شيء، حتى وفاتي. لذا، من فضلك، ارجعي غدا.

- ألم تكتبه أنت بنفسك؟ إذا كان عليك أن تموت اليوم، كان لك الحظ أن تعيش كثيرا من الأشياء إلى غاية أمس.

- إن أشجع رجل، والأفضل إعدادا لا يمكن أن يكون إلا رجلا. إن الخوف من الموت شعور إنساني بحت.

نظرت إليّ، ابتسمت؛ وأجابت بحنان وأمومة:

- إذن، إلى الغد!

بدأت الشمس هبوطها مشعلة السماء.

ذهبت واعدة إياي بالعودة حسبما اتفقنا. إني أثق بها. لم يسبق لها أبدا أن أخلفت مواعيدها. ستكون هناك عندما تحين ساعتي وأنا أيضا سأكون هناك، حتما. لم تكن تريد أن تستعجل مماطلاتي، ربما لتجعلني أعتقد أني أنا من اختار الوقت.

أنا بحاجة، هذا المساء، للتفكير في السيرورة المنطقية للأحداث، في لا معقولية القدر، وخاصة لسماع دقات قلبي. وفي صمت عميق، لاحظت أن ساكني لياليّ قد هجروني. وغريزيا، داعب أصبعي الرمل، كان يبحث عن كتابة اسم، تردّد، هو أيضا لم يعد يذكر ذلك؛ وبعد، ولمرة أخيرة، رشم، وهو متردد ومتسائل: هو... هي؟"

كان الكثيب يدعو للتدحرج، فشرعت في النزول على خاصرته إلى غاية التجويف البارد لجسمه المدوّر. لقد سئمت أخيرا مصائبي، وأجد رغبة في إلقاء مرساتي! نمت في ساعة متأخرة من الليل، تحت سماء سوداء تمزقها الشهب الجارية: "إن الصور التي رأيتها ثانية، وأنا مغمض العينين، هي صور السرابات التي ترسم بحيرات في الرمل. ومن هذا الزبد المرتد، تولّدترؤيا مثيرة ستظل محفورة في ذاكرتي. تقدمت نحوي، وكلها عزم وفخر، بخطى نشيطة، متحدية الحرارة، متخطية الكثبان وساحقة بقدميها الرشيقتين الرمل الذي يحاول، عند كل وطأة، أن يمسك بها. كانت رجلاها الطويلتان تقرّبانها مني بانتظام متري مدهش. يبدو أنه لا الجهد ولا التعب أثرا فيها. بقيت جامدا، كما لو كنا قد تواعدنا على اللقاء في الصحراء! لم يكن يفضح هدوئي الظاهر سوى خفقات قلبي المتقاربة وحدها. كانت قوية لدرجة أني أسمع صداها في السكون الذي يملأ هذه الفضاءات.

عندما التحقت بي المرأة ذات الجمال الخلاب والمحيّر، أعدت اكتشافها. كان وجهها يشكو بهدوء بعض تجاعيد حياة كادحة، ومليئة بالتضحيات. إنها جميلة، جميلة لحد تخليها عن كل المظاهر والزينات المغرية. إن هذه الآلهة الحلمية الخارجة توا من صحرائي الخالية من المشاعر الحسية التي كنت أفترض نضوبها إلى الأبد، ظهرت في حلمي مثل مسكّن لكافة معاناتي. كنت مع ذلك أقسمت لنفسي أن أحذر من السرابات، ولكن هذا الظهور توصّل إلى خلط انفعالاتي. إنها لا تنتمي لهذه الأصقاع، تماما مثل بحيرات الضوء التي تحملها إلى غاية عندي. إنها آتية من بعيد جدا، مثلي تماما، لحد تصور أن كل العالم قد تآمر لإحداث هذا اللقاء؛ وإلا كيف كان من الممكن أن يتمكن كائنان يجهلان بعضهما أن يتقاطعا ليكتشفا نفسيهما، *مرة جديدة*، في الامتدادات الكبيرة للصحراء، ما لم يكن بسبب مؤامرة كونية؟ كما لو كان الفضاء والزمن قد تضاءلا لدرجة أنه كان بإمكاننا أن نتفادى بعضنا بعضا. قلت *مرة جديدة* لأنها هي، المرأة التي تركتها في شارع الشيطان؛ تلك التي التقيتها في المقبرة؛ تلك التي همست لي حكاية الحامض والحلو، تلك التي أسندت ظهرها إلى ظهري في قرية الجياع، تلك التي جعلتني أكتشف أن النقطة ب114 كان يمكن أن تكون رائعة. تلك التي تلوّن كل أحلامي بالأزرق.

في السكون المسكر لهذه الامتدادات، وطيلة لحظات وجيزة، خاطبت أرواحنا قلوبنا وخاطبت قلوبنا أجسادنا. عادت كل النجوم إلى اللّمعان أكثر، وأخذت الريح همس، والكثبان تتموّج لتقترن بجسدينا، وأقام الرمل وشاحا من الحرير. كنا، في هذه الصحراء القائظة، واحة من الانشراح. لن أشكر كفاية أبدا الامتدادات القاحلة، التي تقرب الأشخاص المحبين، على كونها قد منحتني على الأقل هذه

اللحظات من السعادة وربما الطريق التي عليّ أن أتبعها. هذه الطريق التي أبحث عنها منذ البدء.

كم من دورة بقينا معا: ثانية، قرنا؟ كان الوقت قد توقف على هذه اللحظات من السعادة ليضع خاتم الخلود. إن كل ما أذكره، هو أنه بدا لي أن هذا التوحد قد دام، ألف ليلة وليلة، وربما أكثر!

هل كان ذلك إحساسا أو رؤيا؟ إن ذاكرتي ترتبك إزاء هذه الفكرة. هل كانت هذه المرأة التي كنت تركتها لأذهب للبحث عن نفسي ولاستعادتها، أوهل كانت هي التي كنت أنتظرها منذ الأزل؟ إنها، في جميع الأحوال، جزء مني. ثم إن ذلك ليس مهمّا أمام عظمة و صفاء الانفعالات التي أحدثتها هذه التعويذة السماوية. "هناك لحظات جد سحرية، في الحياة، لدرجة الرغبة بالموت فيها لنأخذها معنا إلى الأبد."

استيقظت حين كانت النجوم تتلألأ حول قمر أصبح تامّا. كنت قد واصلت، أثناء نومي، الكتابة على الرمل. وقد سمح لي ضوء كوكب الليل بأن أقرأ:

بقدميها الرشيقتين، وضعت أول خطوة للإنسان الماشي.
برجليها الطويلتين المنحوتتين، قطعت تدفقات الضوضاء.
من سهول جسدها، خرج المشاهير لتنوير الإنسانية.
من بطنها السخي والصبور، تم ضمان انبعاث موتنا.
من تجويف رئتيها، انفلت أول تأوه أذهل العالم.
من قمم جبال شهواتها ولذاتها، يقطر رحيقها اللبني.
من شرايها الشهواني، اقتات الناس ليصيروا مجتمعا.
من يديها الممدودتين، تم رسم حركة الفتنة والإحسان.
من فمها الحلو، ولدت ابتسامة الطفولة تحت طالع راع.

من عينيها المضمّختين، تم النطق بالرغبة بالحب في فضيلة لذيذة.
تحت شعرها، اختبأت الوجوه الدامية بالمعاصي.
منذ فجر الإنسانية إلى غروبها، كانت هي الرحم للجميع ولكل شيء، رغم أنها مطاردة منذ محاكم التفتيش القروسطية إلى الأصولية المتشددة، محكوم عليها، مقذوفة، ولكنها لم تتوقف أبدا عن الصراع، عن الحبّ... لتسمح للإنسان بالوجود.
أيا امرأة شهوانية، امرأة متأوهة، امرأة متمردة، امرأة أمومية، امرأة أبدية، أيا امرأة جميلة جدا، إني أحبك.

وأنا متمدد قبالة السماء، عدت بالتفكير في حلمي وفي النثر المغنّى الذي كان خطه أصبعي على الرمل أثناء نومي. إن المرأة التي حلمت بها هذه الليلة لم تكن النجاة، والرسالة التي ستتكفل ريح الصباح بمحوها لم تكن موجهة إلى تلك التي واعدتني خلال بعض ساعات. هل بدأت النبوءة تتحقق؟ إني محتار لأني لا أعرف كيف ستجري. ومن السماء كان وابل من الصور يهطل من كل نجم لينعكس في عتامة فكري. لم أعد نعسانا. هرب عقلي إلى الجنوب... مرة أخرى هذا الجنوب. وها أنا أرى: "بعيدا، ترتسم خمس هضاب رملية شاسعة، إنها تحاصر جبالا بركانية. أضخمها كان يشرف على سهول واسعة. اتبعت ممرّا حجريا وسط ركام حجري، داكن اللون، لا يوصف؛ سافرت في متاهة حقيقية بين كتل ضخمة مزينة برسوم من عهد آخر، تمثل ظباء رشيقة، أبقارا، نعامات ورجالا. إنها نفس الرسوم التي كنت قد شاهدتها على جوانب حبة الرمل الصغيرة خلف باب الصحراء. ها أنا الآن في قمة السهل؛ في المستوى السفلي، يمتد العرق الرائع في كثبان ذات حدود شهوانية. وسط

هذه الروابي من الرمل الذهبي، رأيت قلتة[28] ماء زمردي اللون يحيط بواحة صغيرة... سمعت ما يشبه النداء... مرة أخرى صوت امرأة؛ ولكن هذا الصوت، ارتدّ صداه إلى قلبي."

أكان حتما عليّ أن أكلم نفسي في صحارى فكري لأتمكن من العثور على نفسي في صحراء أخرى؟ إذا كان الحال كذلك، فسأتيه ما يستلزم من المرّات، فقط من أجل متعة إعادة هذه الأحلام وسماع هذا النداء. كنت خلال ترحالي أبحث، بيأس، عن وجه، راجيا أن أجد فيه انعكاسي، بدون جدوى. هذا المساء، يبدو أنها هي التي وجدتني. لقد خرجت من بحيرات الضوء؛ و قال فيها الرمل، تحت إصبعي، شعرا. وخلف أعظم الهضاب، نادى صوتها الحلو قلبي، نادى روحي. فيم سينفعني الإرجاء ثانية؟

من تجـــويف بطن الكثيب، تأملت سماء عجيبة، تزخـــر بالنجوم وأنـــا أقضي، احتمالا، آخر ليلة لي، تحت رعاية أوريون[29] و صليب الجنوب، ولكني هدّأت نفسي وحافظت على عينيّ مفتوحتين. عندئذ، هدهدت أحلامي وأصواتها فكري بآفاق بلسمية.

---

[28] - *قلتة : بركة أو مخزن ماء محفور في الصخر.*

[29] - أوريون : مجرة فضائية.

المرآة العاكسة

التحق بي الفجر عندما كنت على الطريق. ذهبت في الاتجاه المعاكس، كما لو كنت راجعا على عقبي. رأيت ثانية نفس المشاهد رغم أني أتجه دائما نحو الجنوب، نحو أكثر الهضاب علوا. الشمس ورائي، أشعر بها ترتفع ببطء في السماء. وفي وقت متأخر، تداعب قفاي بأشعتها التي تظل دافئة. تقدمت، وعيناي مشدودتان إلى أرض الصلصال العالية، إن أحلام هذه الليلة هي التي تقودني. ارتفع النهار والحرارة أيضا، وكوكب النهار يكاد يبلغ أوجه الآن. إن رأسي يغلي.

تقدمت.

انتصب سراب أمامي، ولكني واصلت المشي. رسم انعكاس حدودا واضحة لسيارة. كانت متوقفة على جانب الطريق. إنها خدعة ضوئية غريبة. أعتقد أن مخي ارتخى تحت تأثير الحرارة. تقدمت، والسراب يقترب وتوقف قلبي عن الخفقان. هذه المرة فهمت: إن أحلامي والشمس كادت تنسيني موعدي، ولكنها هنا موفية بوعدها. إنها دائما جد رائعة في وشاحها الأبيض الناصع. إنها بداخل السراب، جالسة في المقعد الخلفي للسيارة التي تجسدت الآن جيدا، مغطاة الرأس بالحائك الأبيض. إن النجاة تنتظرني والابتسامة المرحبة على شفتيها. انفتح الباب الأمامي، صعدت وجلست خلف المقود. كانت المفاتيح في موضع التماس.

– هل قضيت ليلة طيبة؟ سألتني على سبيل الترحاب.

- إنها سيارة جميلة، سيارة مزينة لحفلة. كنت عصبيا ولكن محتارا بصورة خاصة، و لم أجد ما أقول غير ذلك.

- ولكنها حفلة، رحيل. إن ذلك يعني أن هناك وصولا في النهاية.

لم أجب، ولكني فهمت تماما. هذا ما كان مرشديّ يجتهدون في إفهامي إياه: "إن لكل انطلاق وصولا جديدا."

- قالت ببطء: انطلق، سيكون الأمر أسرع حين تسير.

- ولكن أين من المفروض عليّ أن أذهب؟

- إلى موعدك. اكتفت بهذه الإجابة.

- مع من؟ كنت أظن أنه كان معك أنت.

- أنا، أنا لا أفعل سوى مرافقتك إلى ذلك.

- مرافقتي إلى أين؟

ابتسمت عيناها، رأيتهما في المرآة العاكسة.

- إلى النقطة ب114.

كان الصوت يبدو لي أكثر صفاء، من خلال زجاج السيارة، وأكثر وضوحا: نظرة غريبة وإحساس ممتع. شغّلت المفتاح وانطلقت: ابتلعت الطريق في الاتجاه المعاكس. تداعت الذكريات. إني أراها من جديد بطريقة أكثر فأكثر دقة، إنها تنعكس على الزجاج الأمامي للسيارة، في ترتيب زمنيّ محكم. كلما زدت في السرعة ازددت تذكرا. وكلما أسرعت تحددت صور حياتي، بسرعة، ولكن بصفاء لا يصدق! شيء ما يقول لي أن أتوقف. ولكني لا أستطيع فعل ذلك: حتم على قدري أن يتم. ألقيت نظرة خاطفة في المرآة العاكسة، لقد تغيرت كثيرا منذ أن غادرت قصبتي القديمة الكئيبة. ظل فكري مركزا على أحداث حياتي التي تتعاقب أمامي.

مشاهد وشخوص تتوالى في اتجاه معاكس. إنها تنعكس من خلال الزجاج الأمامي للسيارة ليتم ابتلاعها على عجل من طرف المرآة البيضوية الصغيرة، مباشرة إثر ظهورها القصير. احتفظت بعيني مشدودتين إلى المرآة العاكسة. أما الطرق الأمامية، فإني أنا من اختارها على هوى المزاج والصدفة، حتى إذا لم أقبلها أبدا؛ إنها مقدرة لي وأنا أقبلها مثل هدية من العناية الإلهية. إن عقلي مشوش؛ ولساني صار عجينيا، نفخه طعمُ شيء لم يكتمل. لديّ حدس بأني ذاهب لملاقاة شيء مباغت. كل ما أعرفه، هو أن لي موعدا لا أريد تضييعه.

نعم، أعرف ذلك!

في المرآة العاكسة المعلقة في سقف السيارة، يبدو لي أني أرى امرأة جالسة على وسادة موضوعة مباشرة على أرض الرصيف، إنها ترضع رضيعها وتغنّي له أغنية مهدهدة سرعان ما أيقظت ذكرياتي: "نم، نم، أيها الطفل، نم..." اختفت هذه الصور لتترك مكانا لأشباح تبتعد بسرعة عن مجال بصري؛ إني أسير بسرعة. كان بودي أن أتوقف، ولكن عندي موعدا،عليّ أن لا أضيّعه.

بعد قليل، بعثت لي المرآة صورة طفل ضحوك يجري في تبّان صغير مع صبيان من سنه، ليضربوا كرة ممرغيّة. ابتعدت ضحكات الصبي عن رأسي. رمشت عينيّ وإذا به قد كبر. أريد أن أتوقف لأنصحه بألا يكبر وأن يواصل لهوه أكثر، لي أنا، له هو، ولكني مستعجل جدا، عندي موعد لا يمكن أن أضيعه.

في المرآة المعلقة في سقف السيارة، أرى الآن شابا ممتلئا حيوية، إنه يحمل محفظة بيده، ربما لا يكون رجلا الآن، ولكن غدا سيكون كذلك بالتأكيد. أريد أن أصرخ نحوه "إلى الأمام! أحبب الحياة، أنصت إلى الأشجار وغنّ للحب، مادام الوقت يسمح بذلك!" انعكس صوتي على

الجانب الزجاجي من المرآة العاكسة و لم يعد الوجه سوى نقطة خلفي.
لا لن أعود إلى الخلف. عندي موعد لا أريد تضييعه!

كان الناس والمشاهد يتنقلون بسرعة كبيرة في المرآة العاكسة الداخلية، كما في شريط نديره بسرعة كبيرة وفي الاتجاه المعاكس، ولكن قد يحدث لي أن أرى بتمييز بعض الوضعيات مثل وضعية هذا الرجل، الجالس على مقعد. كان ينحت بمقص في كتلة من الصخر. هذا الرسم هو صورته الشخصية مع بعض التجاعيد الزائدة. لكن على هذا الجذع المنحوت بعناية، هناك عيوب. عليّ أن أنبهه إلى ملاحظتها، ولكن عندي موعدا لا أرغب في تضييعه.

كثير من السيارات تشبه كلها سيارتي، تسير الآن على الطريق. وهي تسير أيضا في الاتجاه المعاكس!

صرخت فيهم: "تنحّوا، أنا مستعجل، عندي موعد!"

مرة أخرى، يتم ابتلاع الصور المعكوسة بواسطة مرآتي من طرف دوامة مشكلة من جزء من مليون رمز وجملة من الوجوه.

من خلال دوران شخصيات حيّة وديكورات غير واقعية، ميّزت بجلاء: كوخا من الصفيح، تماما في وسط صحراء لافحة وعدائية؛ نارجيلات تنبعث منها روائح القنب الهندي العطنة؛ صاحبة حانة متدثرة بجلابة ضخمة قذرة وسوداء، تتصبّب عرقا وتجاعيد؛ خرقا على الأرض تشبه، رجل فضاء بخوذة ألمانية مغروزة لحد الفم؛ وشخصا بلحية شعثاء وظل هارب؛ وفتاة شابة خائفة؛ وشيخا حقيقيا؛ ومراهقين يتنزّهون بحبل في اليد؛ وملاكا ذهبيّ الشعر. ثم ميّزت مرابطا، وجنودا بلون "أخضر كاكي"، وقردا غبيا، وطبيبا فاسقا، وصاحبة الحانة – هي مرة أخرى – في ثوب زفاف، وسماء اكتسحها الجراد، أشباحا، موكبا من الديناصورات، معتوها فوق هضبة، فانوسا غمّازا على كثيب متنقل،

إنارة باهرة، وضوءا أعماني. نظرت أمامي فرأيت مؤخرة حافلة تسرع نحو زجاج سيارتي. كان عندي من الوقت ما يمكنني أن ألمح وراء الزجاج الخلفي للحافلة كل الشخوص الذين رأيتهم في مرآتي العاكسة خلال لحظة وجيزة. كانوا ينظرون إليّ بغرابة. وكان، وسط هذا الخليط، الخيميائي أيضا، النحل، اليعاسيب، متسولون، أبقار، شياطين، جرة على كتف، سترة بيضاء بداخلها بائع كتب، صبي ذو شعر صوفي، خضروات تطهى، نساء... وامرأة. كانت دوامة من الصور والكلمات تدور في رأسي. رأيتهم جميعا ثانية في هذا السيل. عادت أصوات إلى فكري، تتحدث عن الصبر، عن الابتلاءات، عن الزمن، عن الموت وعن التحول. بحثتْ قدمي عن دوّاسة المكبح لتفادي اصطدام عنيف، ولكنها لم تجدها. في جزء من الثانية، ستختفي شمس اللهب الكبيرة، تاركة الأرض تستريح في ظل الليل الأزرق. وفي جزء من الفضاء، مُنحت لي عزلة مطلقة. أعتقد أني وصلت إلى موعدي. كنت أعلم أنه لم يكن بإمكاني تضييعه! وفجأة، أسدل ستار!

الطور يطور ذاته

كنت تارة على هضبة، وطورا في شعاب ضيقة نوعا ما لأذهب نحو الانفتاح على اللانهاية وعلى أي مكان. مساحة شاسعة بسعة 360 درجة تُعرض عليّ. إن هذا يتجاوز إدراكي... كل الإدراكات! ولكني أعلم إلى أين أذهب.

وبعد، وفي لحظة محددة، شعرت بأني ميت أو أني سأموت. ولكن، في تلك اللحظة، حدث شيء ما؛ كان ضخما، قويا لدرجة بدا لي فيها أني تخليت عن الحياة لأعرف ما الأمر. لقد جُررت في نفق ضوئي طويل. ليست إضاءة فقط، إنه مثل عبور طاقة واقية، طرفها مفعم ببريق أكثر وأشد قسوة. أحس بالحاجة إلى أن أذهب لملاحظتها عن كثب، وأن ألمسها. لا ضجيج يأتي من الخارج، ولكن في الداخل، كانت هناك أصوات غريبة حلوة جدا تنصهر مع هذا البريق. سيمفونية مسكّنة بجمال لا يوصف تتردد من خلال كل مسام الجدران؛ شدّتني إليها كما تشدني قوة خفية. إنه شعور جديد وانفعال عجيب؛ إن ما ينتظرني سيكون مذهلا جدا، جميل لدرجة أن لا شيء يمكن أن يثنيني عن طريقي!

بعد ذلك، سمعت هريرا خفيفا في رأسي، لدي انطباع بأني أغرق من جديد في عمق أكبر، لحد الشعور بأن جسمي لم يعد يتحرك، وصار جامدا، ثم... بدون قوام. وعلى النقيض، وفي نفس الوقت، أحسست بصعود حيويّة متجددة أو بالأحرى جديدة. إن شيئا ما بداخلي انفجر

وتحرّر، وخرج من صدري شكل ضبابيّ مائل للزرقة وارتفع، كما لو كان مجذوبا بمغناطيس عملاق. غمرتني عاصفة هائلة بظلمات كثيفة تخترقها بروق كانت تمزقها خلسة، والكل مصحوب بالموسيقى المهدئة نفسها. ومن جديد يلمع نور أكثر شدة بعيدا... عند النهاية؛ نهاية أخرى اختلطت بأفق آخر. وبعد ذلك ،أخذت الكتلة المظلمة التي تحيطني، من جديد، شكل ممرّ أكثر إبهارا، عبرته مثل نور، مسرعا نحو النقطة المضيئة. عند وصولي قرب المخرج، أو المدخل، وقفت معلقا؛ ولفّتني هالة مزرقّة. وفي المقابل أصبح النور أكثر شدة، أكثر لطفا، أكثر روعة. بعد لحظة، بعد أزل، امتصّني التوهج. وامتزجت كلية بقوته.

وجدت نفسي من الجهة الأخرى للممرّ الساطع.

بعد ذلك أو قبل، بكمشة من الثواني أو بعدة قرون، استيقظت وسط واحة من جنة عدن، مفعمة ماء ونباتات ذات أريج مثير للشهوة، تحت سماء زرقاء خالية من كل بأس. وعلى أغصان الأشجار، كانت هناك عصافير رائعة ذات ريش متعدد الألوان. إنها شبيهة بالثمار المتدلية بين الأوراق. وكانت فراشات ذات أجنحة مرصعة بالحجارة الكريمة، تطير من زهرة إلى زهرة. وكانت كثبان مشكلة من التبر الذهبي الدقيق تبدو متموجة. وهناك قلتة تلمع بالزمرد، تسبح فيها أسماك كسلى... أسماك صغيرة تماما كسلى... كان كل شيء مضاء، رغم أن كل شيء نصف شفاف، ولا وجود للشمس.

تملكني اغتراب غامض ومطلق في الداخل، مثل النجاة.أما أنا؟ فأحسست أني مجرد من لحمي وعظامي. لم أعد جسما! لقد فتحت الذهن في جنتي الشخصية التي أجد نفسي فيها ممثلا ومتفرجا، في آن واحد، على سيناريو جديد. هل هي حياة جديدة؟ لقد اختفت كروبي وكائدوها، وكذا غلافي وأعماري. نعم! إنه بالتأكيد فجر

مغامرة جديدة. لست أدري ماذا أصبح جسمي، ولكن ما أنا متأكد منه، هو أن السعادة تسكن هذا الشيء الذي لا يسمّى ولا شكل له، والذي أشغله.

– وإذا كان من المحتم أن يكون ذلك لمدة قصيرة؟

إن شخصا ما قد أراد إثارة البلبلة؛ ربما كنت أنا؟ لم أستمع له وأمرته بالسكوت. أريد أن أغتنم اللحظة، أن لا أترك شيئا يمر، أن آخذ كل شيء، أن أحب كل شيء، أن أعرف كل شيء. أريد الذهاب للصّيد بأقواس قزح، أن أشرب الندى، أن أفرغ كل الزجاجات المملوءة بالعلم، أن أقطف كل الأزهار، أن أمتصّحتى آخر قطرة، رحيقها الحلو، وأن أدغدغ مدقّتها إلى أن أنفجر نشوة. أي نعم! أشعر بأني مستعد للحب والاكتشاف. وغدا، حتى لو جعلوني مخصيا نديا فإني لا أبالي. ولكن الآن، لدي رغبة في أن أقبل كل النوريات، وحتى أن أنسى لساني داخل تويجها. وبعد ذلك فليقطعوه لي! وعد مني أن لا أقول شيئا! أريد أن أظل حاميا متوهّجا مثل أشعة هذه الطاقة التي تداعبني وتؤجج حواسي. رائع! عشت كل هذا دون غلافي الشهواني، وبالأحرى فإني لا أدري حتى إذا كان لي قوام، أو شكل. لا أشعر بنفسي إلا حبّا! إن الأكثر أهمية بالنسبة لِيَ هو أن أستمر في حب واكتشاف بواكير التخلقن.

بعد ذلك، استقر الأزل في وضعية وقتية. اللحظة الصفر! لا ليالي، ولا أيام؛ فقط اللحظة الصفر تسبح في التحام صلب وسائل، حام وبارد. أصْل ونهاية مندمجان في فضاء واحد، هو ذاته لم يعد له حجم، لم يعد له قياس، إنه أمر رائع، لا يوصف ولا يسمّى. إنه أمر رباني!

في هذه الحالة من النشوة، لديّ انطباع واضح بأني ببساطة في حالة عبور. هل أنا خائب الأمل؟ لا. لم أعد أشعر حتى بهذا النوع من الإحساس، في المستوى الذي وصلت إليه. ماذا صرت إذن؟ من أنا؟ هل

أنا ماء؟ هل أنا شجر؟ هل أنا زهرة؟ هل أنا ثمرة؟ هل أنا عصفور؟ هل أنا فراشة؟ هل أنا سمكة؟ هل أنا رمل؟ هل أنا نور؟ أو أني كل ذلك في وقت واحد. أنا أحلق فوق، تحت، داخل وخارج ذاتي. إني أعيد التشكل مثل بلورة استعادت صفائحها واحدة واحدة. ارتسمت صورة خفية، رائعة على سطح البركة المحفورة في الصخر. وأعاد إليّ اللمعان أشكالا جديدة استوقفت فكري: لا حصر لعددها، بالتأكيد ملايين. وفي الوسط، يبدو انعكاس أحد هذه الأشكال، كأنه ينظر إليّ، في توارد غريب للخواطر، كما أنظر إليه: لقد ولد الزمن من هذه اللحظة. لقد حصل أن "*رأيت*" بذرة صغيرة.

دون أن أتساءل، ألقيت بنفسي في هذا الماء الزمرديّ اللون. أما الجواب فأحمله في داخلي. إني مكلف بمهمة شبه ربانية: ضمان تحولي .

غطست من دون الزمن ومن دون الفضاء. وغصت في لزوجة مريحة مع نشوة مسكرة. أنا البذرة مقترنة بالنفَس الذي يحملها نحو نزوح جديد. داعبت ظهر كثيبين فجعّدت رعشة خفيفة حلوة بشرتهما؛ شربت، بجرعات كبيرة، أقداحا مملوءة شموسا مجددة، احتضنت زرقة السماء لأدخلها فيّ، أنا أسبح! أنا أطير، أنا أنقضّ! وصلت إلى مفترق طرق، عليّ الآن أن أختار الاتجاه الصحيح. عند تقاطع كل طريق، تُعرض عليّ عدة مخارج، وكل واحدة من هذه الإمكانيات تعرض عليّ أخرى مثلها. متاهات غريبة هي مسارالانبعاث. — إن كل الحل يكمن في تسلسل الوقائع. إن الأحداث تتعاقب الواحد تلو الآخر لإحداث مصير جديد.— بدون أدنى تردد، دخلت في واحدة من فجوات هذه المتاهة. لست وحيدا، نحن ملايين نتدافع. في قعر هذا النفق الطويل، التقفَنا، مثل القطارب، ضوء مجهريّ بيضوي الشكل، أعمى نورُه بصرنا، ولكنه أعلمنا بأن مصيرنا أن ننتهي بالقرب منه، من أجل الانبعاث

والتحوّل. جريت أسرعَ فأسرعَ، أريد أن أكون أول من يصل هناك، *ليعلم وليحبّ*... لأني فهمت أننا ملايين، وأنه لن يبقى منا إلا واحد!

"أن تعلم وأن تحبّ، هذان فعلان يبهران بكبرهما، بجمالهما وبأثرهما. أن تعلم وأن تحبّ، كلمتان بسيطتا المظهر، ولكن بسلطان أزلي." في سباقي الجامح، التقط فكري معارفهما: *أن أعلم حبّ تدرّبي على التيقظ، على الانفعال، على الحنان وعلى العفو.* بعد ذلك، قلب فكري ترتيب الكلمتين. أخذت الكلمة الثانية مكان الأولى. أن تحبّ أن تعلم: أن التنظيم من أجل إعادة إبداع العالم يقع ويرفع حجاب الظلمة ليسمح للنور بالإشراق. *أن أحبّ تعلّم تمريني الروحي على المعرفة وعلى تمييز العوالم.*

تمكنت من إثارة اثنين من خبايا الحياة: أن تعلم أن تحبّ و أن تحبّ أن تعلم. لم أكمل نزهتي وتوصّلت إلى فهم جوهر الوجود ذاته، الذي لا يقوم إلا على كلمتين بسيطتين... وكل ما ينجذب حولهما ليس سوى مشتقات، إغراءات خطيرة و إسقاطات ثانوية. أما الأسس، فهي تظل ذاتها! هذا الاكتشاف دفعني لأن أتمنى دورة أخرى، أن أجرّب حياة أخرى مع عقيدة وحيدة: "أن أحبّ وأن أعلم".

لقد أعلنت حالة الطوارئ. ففي حرارة جسدين، حيينا لنعيد الدورة وننجز المستقبل. نحن نتحرّك في الأوعية الجوفاء للإعادة، مدركين يقينا بأن واحدا منا فقط سيخرج منتصرا في هذا السباق المجنون. إنه صراع وحشي. كنا نحمل في حقائب ظهورنا ميراث وذاكرة الأبدية. غطسنا في السائل المنوي ليأخذنا صخب فيض من الرغبة. نحن ملايين ويجب ألا يبقى منا سوى واحد! أخذنا نجري محركين سياطنا، موجهين لأنفسنا ضربات رأس لنكون ضمن الأوائل. وفي سباقي الجامح، داخل القنوات المصرّفة، أخذت أفكر في المرور، في هذا الرواق وفي عظمة

مهمتي؛ يجب عليّ أن أنجح! يجب أن أكون الوحيد! أنا مشكّل ومخطّط لذلك، وستقرر انتقائية وأحاجي الطبيعة بالنسبة للباقي. نحن ملايين ويجب ألا يبقى سواي! إن البرنامج المحفور في أمتعتي شجّعني على مواصلة ملحمتي المجنونة وعدت إلى السباحة بسرعة أكبر. ولكن إذا كنت سأضيّع لقائي وإذا... وإذا...

إن طعم الشيء غير المكتمل يقشب شفيّ وأنا أتصوّر أني قد أنهيت مساري بين اليدين النديّتين لناسك ذي شركاء مفترضين. نحن ملايين وينبغي ألا يبقى منا سوى واحد! هو أنا، فأنا خلقت لأتضاعف، وليس لأنتهي إلى جفاف في يمين معروقة.

استأنفت، بحتمية، نزهتي المائية التي لا كابح لها في هذا السائل المائل للبياض والمغذي. أريد مع ذلك أن أكون الأول! إن ما أتمناه، أخيرا، وما يدفعني في استمراريتي، هو أ ن أنتهي إلى طموح متقد حيث سأغرق عند وصولي في محيط من السعادة، بين جسدين سيتّحدان في انسجام لحدّ جعل نجوم السماء تهتز...

آه! كم كنت أتمنى أن أكون بذرة المحبة، وأن أقترب، للحظة وجيزة، من الله! نحن ملايين ويجب أن لا يبقى منا سوى واحد! و كنت أريد أن أكون ذلك! أن أقطع فيض الشهوات لأشبع، في النهاية، على ضفاف الحياة، والحب.

اندفعنا، في هلع، إلى هذا الكهف، دافعين الباب المحكم لكون مقدس، مخترقين الحجاب المؤدي إلى عالم الأرواح والذي يسمح بإبقاء السلسلة التي تربط الماضي بالمستقبل من خلال الحاضر، والأسلاف بالأحياء من خلال أولئك الذين سيأتون. عبرنا اللحظة الصفر. كانت، على جوانب هذه المغارة، رسوم على شكل كتابات جميلة وحيّة الألوان. لم أر أبدا رموزا كتابية مماثلة. لقد أسرتني هذه المنحوتات. وأنا أطالعها،

كان فكري يترجم مالا تتوصل عيناي لقراءته، بيسر وسهولة مذهلة. استعجلت لمعرفة بقية الأخبار المحفورة على جدران هذه المغارة الطبيعية التي رسم عليها تاريخ كل شيْ وتاريخ اللاشيء، تاريخ الإنسان والكون، تاريخ الأصل والإعادة. وسط المغارة كانت البذرة الخصبة تنتظر. نحن ملايين ويجب أن لا يبقى منا سوى واحد!

لقد اشتقت لملاقاتها ولتحريك جسمي ورأسي في بطنها المضياف والواقي، قبل أن أخترقها. داخل هذه البذرة، سأتطوّر وسأمزج بين كنوزي وكنوزها. وباندماجنا ستلوح حياة جديدة. سنقوم نحن الاثنين بإنجاب التوحد، في اقتران سيسكرنا فيه الحب والمتعة من السعادة، خلال لحظة هذيان، خلال خلود طفيف. كنا ملايين و لم يبق منا سوى واحد. هو أنا!

انتهينا، ها قد حصل!

لقد نجحت في ذلك. لقد كنا ملايين والقدر اختارني. كانوا قد تنبؤوا لي بذلك. ها أنا أجد نفسي من الجانب الآخر لمرآتي، يبدو لي كل شيء محلولا، واضحا، وأشعر خاصة بأني محاط برقة واقية، مع حبل لتغذية روحي بالنور. غريب، كنت قد طرحت على نفسي العديد من الأسئلة التي لم أكن أستطيع أن أقدّم أي إجابة عليها. والآن، لم أعد في حاجة إلى هذه الإجابات ولا لأسئلتها. أنا أعيد دورة أخرى. وأنا أعيدها ببساطة وبكل طمأنينة.

من الآن فصاعدا، أجد نفسي في بطن لا أشعر فيه بكوني أسوأ أو أفضل. أنا هناك، وإني أنتظر بوعي، نعم، بجلاء كبير للفكر. كل شيْ أكثر وضوحا، أكثر شفافية، أكثر حقيقة وأخيرا أكثر بساطة للإدراك. وبغرابة تذكرت كل شيء دون أي صعوبة، حتى ولو بدت كل المراحل مختلطة، متمازجة في نظام مشوش كما في لوحة متداخلة الأشكال، حيث تكون الأحاسيس والتناظرات الحيّة والمتنوعة تامة التناسق عندما

ألاحظها في جملتها. إنه أمر غريب، إن كل شيء يبدو أكثر صفاء وأكثر بساطة للتأويل.

أنا البذرة المغلفة بسائل مغذّ و واق. من خلال الحبل الذي يربطني بالرحم، جاءتني أولى الأحاسيس. فالتطور يفعل فعله، أخذ مخي مكانه وبدأ يتدرب، تشكلت أذناي وبدأتا تسمعان، غدت حلمتاي هلاميتين وأخذتا تتذوقان، انفتحت عيناي الصغيرتان ورأتا لأول مرة الملجأ الأمومي الذي يحتضنني. أشعر بأني جيد. كنت، وأنا متقوقع، أستقبل مقدمات حياة وأحس العطور الأولى لحاضنتي. إنها نكهات ستحتفظ بها ذاكرتي؛ وبعد ذلك، بعد ذلك بكثير، ستبقى منحوتة في جزء من لاشعوري لتستيقظ من حين لآخر وتذكرني بأصولي، بجذوري العميقة: "تعلّم الحبّ وأحبّ التعلّم". تعلمت الاستماع للأصوات الغريبة الآتية من خارج مجهول يحيط بوعائي الخلاق. هذه الأصوات تكون أحيانا محددة، وأحيانا متقطعة. وحتى أحتمي بطريقة أفضل، أزيد في الانكماش قليلا، أرفع ركبتيّ الضعيفتين نحو جبيني العاري حتى الآن، وأضع يدي الاثنتين الصغيرتين مضمومتين على عينيّ كأني لا أريد أن أميز ضوضاء الخارج. "لماذا يصرخون بهذه القوة في الخارج؟ لماذا ليسوا سعداء ومطمئنين، مثلي أنا، هل أنا كذلك؟"

بعد ذلك، كبرت في بعد جديد من الفضاء–الزمن، انبسطت، تطورت وتثقفت من خلال الحبل المغذي. وذات يوم سأقع كما هو محدّد. في انتظار ذلك، وشدّا للعزم، انكمشت من جديد ووضعت، وعيناي مغلقتان، إبهامي في فمي وابتسمت. لقد بدأ العد العكسي. دورة أخرى بدأت: تسعة، ثمانية، سبعة...

صفر. وأنا مسجّى في الرمل الحار، غادرت محل تطييي مثلما تغادر الفراشة شرنقتها لتعيش طورا آخر. أحسست بأني مسكون بطاقة جديدة، بجسم آخر صاف. وأدّت بي غبطة مذهلة إلى العثور مجددا على قلبي؛ أحس به أكثر ضغطا، أكثر مرحا، ولكنه دائما شديد الحكمة.

"لقد عبرت جحيمك دون أن تترك نفسك تقع ضحية لعنتك الذاتية. ها أنت متحوّل إلى أفضل ما فيك."

لم أجبه، وعدت للتفكير في العبور الفوضوي الذي عايشته خلال ترحالي. لقد اتخذت قطع المربكة في النهاية وضعيات وديكورات أكثر فأكثر تحديدا: فمن قلب الطاسيلي، في القلته الوهمية التي تمنح الحياة، استيقظت وسط هذا المشهد الأخاذ. فحول محيط من الرمل، وأجراف قضيبية أخاذة، وشعفات صخرية، وممرات ضيقة، ومتاهات حجرية، ومسلات وأقواس، ها هي الصحراء تعرض عليّ مختلف أوجه جمالها. صحوت على أنوثة الكثبان الهادئة، الملقحة بحضورها المتوحد كي تأذن لميلاد سلامي الداخلي.

عبرت جلدي وخزة، آلاف الوخزات، نظرت إلى نفسي: إنه جسم آخر!

لقد تفاجأت باكتشاف ساعديّ ورجليّ وقد فقدت شعرها. كان جلدي أملس. لمست جبيني بأصابعي التي صارت رقيقة: لقد امّحت تجاعيدي، وعوّض شعر حريريّ الخصلات الرمادية القليلة التي كانت تزين رأسي. وانبسط جذعي على ثديين بحلمتين سخيّتين. وتسطح بطني. واستدار ركاي. خفضت ناظريّ لأكتشف بقية جسمي، وابتسمت لهذا التخلقن السعيد. وأحسست، على لساني، طعم عسل حلو.

إني أجتهد من أجل الشفاء، ولكني أقبل التحوّل كما تقبل الدودة أن تصير فراشة.

نهضت، وأنا عارية تماما، فخورة بجسمي. مشيت إلى غاية نخلة مجاورة؛ كان في يدي سبع قوقعات صغيرة. كانت الشجرة التي ينتهي جذعها بباقة من الأوراق الراحية تحميني بظلها وتغذيني بثمارها. تكيفت بصورة جد طبيعية مع غلافي الشهواني الجديد، ورأيت جسمي يتفتح بسرعة. وفي انعكاس ماء القلتة الصافي، رأيت وجها يشبه كافة وجوه النسوة اللائي كنت قد التقيتهن في رحلاتي. لقد بحثت عنه دائما، وقد فهمت الآن بأني إنما كنت قد سافرت من أجل هذا الهدف المثالي، وأني قد رجعت أخيرا.

لقد صرت ثانية أنا وإني أول من تفاجأ بذلك، أخيرا سألتحق بنفسي في هذه الصحراء التي لم تنته بها الحياة أبدا والتي يبدأ فيها كل شيء، من جديد، منذ البداية. وفي تكييف غير منتظر، حمل نظري أفكاري الهادئة بعيدا نحو ما أحب وما ينتظرني. أعلم أن الريح ستتكفل بوضعها في المكان الذي ينبغي لها... ربما في النقطة ب114، ذاك ما أتمناه على كل حال.

أنا سعيدة بتخلقي!

خاتمة

إن النقطة ب114، مثل أي مكان... دائما في مكان آخـــر.

ج. ماتي

النقطة ب114، المستقبل السابق

لقد عادت الشمس إلى الظهور بعد ليلة طويلة جدا، وأخذت الأشعة الحارة التي تداعب وجهي حلاوة شفتيّ. لقد حلمت، هذه الليلة، أحلاما غريبة، واستيقظت سعيدة لقيامي بها كلها، هذا بالتأكيد آخر حلم وضع نفسه على فمي. ومع فتح عينيّ، اختفت الشمس؛ أعدت إغماضهما فعادت للظهور. تسليت لحظة بهذه اللعبة الغريبة: مغمضتان، هناك شمس؛ مفتوحتان، لا أثر للشمس؛ في حين أن العاصفة تضرب بعنف في الخارج. وريح عنيفة تحمل الرمل في دوامات كبيرة. وصلت إلى الخلاصة، أن اليوم لن يكون جميلا، ولكن، ومع ذلك، فعندي شمس في رأسي. صارت الزوابع أكثر خصاما، وهي تخلط رملا وحجارة قبل أن تقذفها بحدة على كل ما يمكن أن يشكل تضاريس، متحركة أو ثابتة. نهضت من على الحصيرة الموضوعة مباشرة على الأرض والتي نستخدمها فراش زفاف. لا أعيش وحدي هنا، هذا شريكي في السكن واقف الآن. بدأنا معا بسد الباب بممسحات التقطناها من هنا ومن هناك، في الكوخ. صدمت قدمي جسما باردا، لقد مشيت على نارجيلة تنبعث منها بقايا قنب هندي باردة. إذا لم نسرع، فإن الرمل الذي تنقله الريح الحارة سيحاول مجددا أن يتدخل في حياتنا.عجّلنا بسد كل الثقوب والفجوات التي تزين صفائح الخشب التي تقوم مقام الجدران. إن مرحلة الرياح تسير نحو نهايتها، وقد زعزعت بقسوة كوخنا الصغير، الضائع في آخر أعماق الصحراء. وهذا لا يمنعها من الاستيقاظ مرة أخرى والاندفاع كلما لاح

لها ذلك أو ببساطة كلما أرادت أن تبلّغنا غضباها. وفي بقية الوقت، يصمت المولولون اللاهبون ليتركونا محصورين بين متوازيين اثنين: المستوى السفلي، المكون من الرمل الساخن والصخور المقرصة، والمستوى العلوي، المكون من الشمس، نهارا ومن النجوم، ليلا. نحن نصارع ضد المستوى الأول، ونحلم بالمستوى الثاني.

بردت القصفات الفائرة بفرار كوكب النهار. لم تعد تصرخ غضبها؛ حطت سعادة ندية في الصحراء وكذلك في هذه الدار الحقيرة. حطت لعدة لحظات، وما عليّ أنا إلا أن أجعل منها دهرا. ففي هذه الزاوية، يطيب العيش طالما بقي الأمل.

"الأفضل أن تعيش على أمل في حياة أفضل، ولو خيالية، من أن تعيش في الشك وحتمية عالم متعفن لم يعد ينبت فيه أي شيء ولا يرتسم. في عالم، كل الأصباح فيه باهتة والليالي حبلى بالهموم المصورة؛ الدواء الوحيد هو أن تعتقد بوجود عوالم أفضل حتى وإن ظلت عسيرة الولوج." أنا أقول ذلك، أحسست بأني مطمئنة تقريبا على مستقبلي.

ككل مرة، عندما تتنحّى الشمس، أخرج لأرفع أنفي ونظارتي نحو السماء. أعلم أنه في مكان ما من صحارى أخرى، هناك نساء مثلي، في ظلمة من لياليهن، ينظرن بعيدا بنظراتهن الطويلة. إنهن يتحسسن آفاقا جديدة راجيات العثور على باب يؤدي نحو النجوم، حتى يتمكنّ من أن يكّن جميلات أو أن يقمن بتهريب أي أحد آخر. أن يهربن، أن يذهبن إلى مكان أكثر بعدا، أكثر علوا، أن يتفادين التجذر في محيط لا تنمو فيه سوى الخصاصة والضجر، والأحكام المسبقة والممنوعات، ما لا يقال وما لا معنى له. إن أدواتهن الفلكية تسمح لهن بأن يرين في مكان آخر.ففي جهة أخرى، هناك أشخاص مثلهن، ولكنهم مختلفون جدا رغم أنهم يشبهونهن جدا... أخيرا، إنسانيون بكل بساطة. إني أمثل جزءا من

ملاحظات الرغبة والأمل تلك. وأنا مسرورة بذلك. فهذا يسمح لي بانتظار أيام قادمة أكثر فتنة وأنا أوجه البصر على هذه الأكوان التي تعيش الآن في مستقبلنا، فيما وراء البحار، والأراضي والسماوات.

هبط الليل ببطء، بهدوء، دون أن يحدث صوتا، مكتفيا بالوميض فقط. بعدسة منظاري الهاوي، لاحظت كوكبا صغيرا في السماء. كان فوقه كوخ خشبي صغير، مرميّ في قلب الصحراء: في داخله، يوجد زوجان يشكلان حياتهما من الحامض والحلو. أريد أن أعرف موقع هذا الكوخ الخرب بالضبط، إنه يشبه بغرابة ذلك الكوخ الذي أشغله، هنا في صحرائي، أنا. إن السدسية تعطيني إحداثيات النقطة: ب114!

فهرس الأحلام

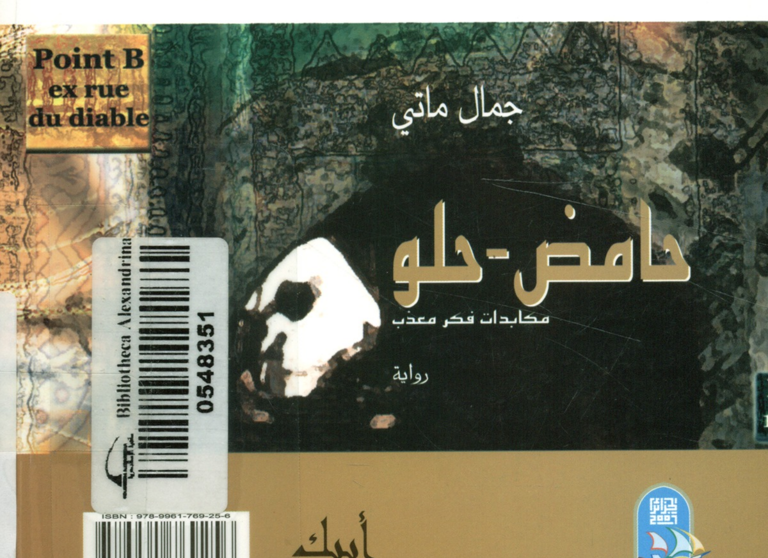
ديباجة : الاستيقاظ	11
الحجيرة البيضوية	17
التعرجات	63
البحث العميق	179
العودة إلى الصحراء، التخلقن	241
خاتمة	279

ر.د.م.ك : 978-9961-769-25-6
الإيداع القانوني : 2007-47

أنجز هذا الكتاب بمتيجة للطباعة
جويليا 2007

إن المغامرة تعدل أن تعيش كل التخيلات. إن النقطة ب114، منذ سيبار كافي . كوم، لم تفتا تشكل مغارة رعب عجيبة للعديد من علي بابا العصور الحديثة مع شخوص مختلة، بهلوانات عباقرة، يوازنون بين واقع بائس وخيال محشو بالقنب الهندي. إن كل الطرق، عند جمال ماتي، ملتوية وغير متوقعة، تؤدي إلى العجب، إلى هذه الجنّات المصطنعة والسقيمة، حيث تُسيّر الحكاية و السرد البارد و الخرافة والكوميديا مكابداتها جيدا، وحيث لم يستطع أي أدب معاصر أن ينسج بهذا القدر من الموهبة والعبقرية. إن المغرمين بالألعاب سيركبون العجلة دون أن يشكوا في كونها تدور على نفسها بالصرخات، بالدوار، بالمخاوف وبإغماءات هؤلاء المسافرين للحظة .

لكن، إذا كان هذا المعرض لألعاب الكلمات، لعالم لعبيّ ماهر، يُضحك لحد الانفجار، فهو يدفع كذلك إلى الانكفاء على الذات، إلى لحظات من الغبطة في أعماق الكائن البشري. إن هذا الفصل الجديد من سيبار كافي. كوم ومن فادا! والمعنون بالضبط حامض-حلو، يقدم للقراء المطلعين، لهاث سباقات المشي الضائعة والأسفار الذهنية التي تؤدي إلى عتبة الجنون الغريبة وإلى واجهات الحلم الأخاذت. والحقيقة عندئذ؟ فيم تنفع إثارتها؟



ISBN : 978-9961-769-25-6
9789961769256